خريف لأربعة فصول

رواية للكاتب
سمير محمد عالم

الطبعة الأولى 2023

خريف لأربعة فصول

الطبعة الأولى ٢٠٢٣

ISBN: 9789189288645

الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية:

٢٠٢٣-٠٤-٢٥ ١٧-٢٢

الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم

السويد، فاستراء جوتالند

البريد الإلكتروني:

digitizethearabicbook.com

© جميع الحقوق محفوظة لدى دار نشر رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. والمؤلف هو المسؤول عن المحتوى

دار نشر رقمنة الكتاب العربي-

Stockholm

خريف لأربعة فصول

رواية للكاتب

سمير محمد عالم

الطبعة الأولى
٢٠٢٣

الإهداء

إلى أبطال روايتي، إلى من عرفتهم وجهلتهم، إلى كل أولئك الذين يحملون الجمال في قلوبهم، والنقاء في أرواحهم، والآمال في أحلامهم،

أقول.. إني أحبكم

إلى مشاعر كل قارئ؛ يقلّب صفحات هذه الرواية، ويتفاعل مع كل لحظاتها بسعادة أو بحزن، ويعيش تفاصيلها

أقول.. ليس من السهل، أن يكون كل فرد منّا إنساناً، بإمكانه الشعور.

الفصل الأول

الانفصال عن الجذور

الارتباك يعم غرفة الطوارئ بالمستشفى، والممرضات يركضن في كل اتجاه، وصوت طنين تلك الأجهزة الكئيبة لا يتوقف، وكأنها نذير شؤم ترسل تحذيراتها بأن الأسوأ سيقع.

سوسن تجلس في الممر، وتتابع كل تلك الهستيريا التي تجري حولها، ولا يمكنها السيطرة على قلقها وخوفها.

لم يتوقف لسانها عن الدعاء والابتهال بأن ينتهي كل ذلك، وتمنت، أن يكون كل ما يجري، هو مجرّد كابوس ما يلبث وأن ينتهي.

مرّت ساعتان على بداية هذا الكابوس، والساعة الآن تقترب من الرابعة فجراً.

كم تكون اللحظات ثقيلة، ونشعر بذلك الثقل على صدورنا؛

حين نعيش لحظات من القلق والانتظار المتشبع بأنفاس الخوف.

حاولت سوسن مراراً الاتصال بصديقتها ليلى، ولكنها لم تجب على الهاتف، فهي تشعر بحاجتها لوجود شخص بجانبها، يخفف عنها عبء هذا الانتظار، وربما يمنحها القليل من الشعور بالاطمئنان.

فكرت بأن تعيد المحاولة، ربما تسمع ليلى جرس الهاتف هذه المرّة، وبالفعل أجابت ليلى على الاتصال والفزع يبدو جلياً في نبرة صوتها.

سوسن: **"أخيراً.. أخيراً يا ليلى"**

ليلى: **"سوسن ما بكِ، لم تتصلين بي في هذا الوقت المتأخر!"**

لم تتمكن سوسن من تمالك نفسها وانفجرت بالبكاء، كانت متعبة، وبحاجة للإحساس بوجود شخص معها.

أجابتها وصوتها يكاد لا يُسمع: **"أنا في طوارئ المستشفى الآن"**

ليلى: **" ما بكِ سوسن؟"**

سوسن: **"الأستاذ محسن في وضع صحي سيء يا ليلى.. واضطررت لنقله إلى المستشفى.. وأنا هنا منذ ساعتين"**

ليلى: **"مما يشكو؟"**

سوسن: **" ليلى أنا بحاجة لوجودك بقربي الآن.. أرجوكِ.. ولست في حال يسمح لي بسرد الكثير من التفاصيل عبر الهاتف"**

ليلى: **"حسناً سوسن أنا قادمة في الحال.. اطمئني عزيزتي"**

سوسن: **"لا تتأخري في القدوم أرجوكِ"**

أقفلت هاتفها، وأسندت مؤخرة رأسها إلى الجدار وأغمضت عينها، وهي تشعر الآن بقليل من الاطمئنان، فليلى قادمة، ووجود صديقتها المقربة بجانبها سيمنحها القوة بالتأكيد.

ضلت سوسن على هذا الحال لبعض الوقت، تسمع كل ما يجري من حولها، صوت طنين الأجهزة، وصوت خطوات الأطباء والممرضات، أبواب تفتح وأخرى تغلق، عالم من الجنون اللامتناهي، وكأن كل تلك الخطوات تعبر من فوق قلبها وتدوس عليه.

مرّ الوقت ببطء شديد، ثم لفت انتباهها أن كل تلك الأصوات خفتت فجأة، وعم المكان صمت غريب، ومن ثم شعرت بشخص يقترب من مقعدها.

فتحت عينيها لترى الطبيب يقف أمامها.

نظرت إليه بطريقة تنم عن حالة من الاستفهام، وبداخلها صوت يكاد يصرخ في وجه الطبيب، ويقول: **"تكلم.. لم تقف أمامي صامتاً.. أرجوك تكلم.. هل فقدت النطق فجأة حين وصلت عندي!"**

بادرها الطبيب بسؤالها: **"هل لي أن أعرف آنستي من يكون المريض الذي بالداخل بالنسبة لك؟"**

أجابت سوسن بسرعة: **"لا شيء"** ثم حدقت في عين الطبيب، وأجابت مرّة أخرى: **"بل هو كل شيء"**

استغرب الطبيب من ردها، وسألها: **"لم أفهم آنستي!"**

ردت سوسن: **"إنه بالنسبة إلي المعلم والأخ الأكبر"**

هز الطبيب برأسه، وكأنه استوعب ما تعنيه، ثم صمت، فبادرته سوسن بالسؤال: **"ما الذي يحصل!.. أرجوك أخبرني؟"**

رد الطبيب: **"يؤسفني آنستي أن أخبرك أننا بذلنا ما بوسعنا لإنقاذه.. ولكنه كان يفقد النبض بسرعة.. وأننا لم نتمكن من فعل المزيد.. و"**

هنا قاطعته سوسن بقولها: **"فهمت"** بعد أن استوعبت ما كان يعنيه الطبيب.

أشاحت بنظرها باتجاه الممر الطويل الممتد، وفجأة امتلأت عيونها بالدموع، وكأنها تبكي في أعماقها بصمت دون أن تحدث ذاك الصخب، ودون أن تفقد السيطرة على مشاعرها، ثم عادت ونظرت إلى الطبيب وقالت: **"كان من الصعب على قلب رجل واحد أن يتحمل كل ذلك الأسى.. وكل تلك الآلام.. وكان عليه أن يستسلم في النهاية.. فهذا العالم ليس مكاناً ملائماً ليمكث فيه الأنقياء طويلاً"**

سألها الطبيب مرّة أخرى: **"هل هو أستاذك في الجامعة آنستي؟"**

أجابت سوسن: **"إنه الرسام محسن عبدالمجيد"**

الطبيب: **"يؤسفني أنني لم أسمع به سابقاً"**

سوسن: **"لست الوحيد.. هناك الكثيرون ممن لم يسمعوا به"**

نظر الطبيب إلى سوسن، وكان يرى كل ذلك الانهيار في عيونها، بينما تبدو متماسكة وقوية ظاهرياً.

وسألها إن كانت بخير؟

أجابت سوسن أنها بخير، وأنها بانتظار صديقتها.

استأذنها الطبيب في الانصراف؛ لمتابعة حالة بقية المرضى.

أومأت سوسن إليه برأسها، ومن ثم هوت بجسدها على المقعد، وكأنها شجرة أعمل فيها أحد الحطابين فأسه؛ ليفصلها عن جذورها التي قضت الشجرة سنوات وهي تمدها عميقاً في باطن الأرض.

وهي بالضبط كالعلاقة التي كانت تربط سوسن بالأستاذ محسن، فقد كان بالنسبة إليها أكثر من مجرّد صديق أو أخ أكبر، وكانت تربطهما سوياً علاقة توائم، وهي الآن

تشعر بحالة ذهول، وغير قادرة على استيعاب تلك الصدمة، رغم أنها كانت تستشعر منذ مدة بوادرها.

إنها تمر بحالة الانفصال عن الجذور التي كانت تجعلها تقف منتصبة على أقدامها.

وبينما هي تجلس على المقعد، وسارحة في حالة اللا شيء تلك، وصلت ليلى واقتربت منها، ووقفت أمامها.

نظرت إليها سوسن وأمسكت بيدي ليلى، وبدأت بالبكاء الممزوج بشعور بالاحتراق.

أدركت ليلى حينها ما حصل، وبدأت محاولة يائسة لتهدئتها.

فُتح باب غرفة الطوارئ، وخرجت إحدى الممرضات وهي تدفع بسرير يتمدد عليه جسد مغطى بغطاء أبيض.

لم تتمكن سوسن من مجرّد النظر إلية، وأرخت رأسها باتجاه الأرض، في إيماءة تعبر فيها عن تقديرها واحترامها لصاحب هذا الجسد، الذي رحل عن عالمها للتو.

وواصلت الممرضة دفع السرير في الممر الطويل حتى ابتعدت، وكأنها تتلاشي في ظلمة الممر.

في هذه الأثناء، دخل رجل من باب الطوارئ الرئيسي، وبجانبه امرأة متعبة، تضع رأسها على كتفه وهو ينادي على الممرضات: **"أرجوكم.. احتاج إلى كرسي متحرك.. زوجتي في حالة ولادة"**

نظرت سوسن إليهما، وابتسمت بطريقة ساخرة من كل ما يجري حولها، وقالت: **"قصة تنتهي.. وقصة أخرى تبدأ.. في نفس المكان ونفس الوقت.. هذه هي الحياة التي نأتي إليها بآمال كبيرة.. ونغادرها بآلام أكبر"**

اقتربت إحدى الموظفات بالمستشفى من سوسن وهي تحمل بيدها بعض الأوراق، وحادثتها بلطف، وطلبت منها التوقيع على الأوراق.

تناولت سوسن منها الأوراق، وبدأت بقراتها وتدقيقها قبل التوقيع -تاريخ اليوم ٢٧ فبراير ٢٠٢٠ الاسم محسن عبدالمجيد، العمر ٤٩، الجنس ذكر- ثم صمتت قليلاً ونظرت إلى الممرضة، وقالت لها: **"يجدر بكم تعديل هذا التصنيف..**

بحيث تكون خيارات الجنس بشري أو لا بشري.. بدلاً من ذكر أو أنثى" وأكملت حديثها بسخرية: **"يبدو لي هذا التوصيف أدق في تصنيفنا ككائنات تسمي نفسها بالبشر"**

وأكملت سوسن قراءة الورقة، ومن ثم قامت بالتوقيع عليها، وأعادت الأوراق إلى الموظفة مرّة أخرى.

ليلى كانت تشعر بحجم الألم الذي تعيشه سوسن في هذه الأثناء، لأنها كانت تدرك جيداً ما كان يعنيه الأستاذ محسن بالنسبة لها.

حاولت مساعدتها على النهوض، وعرضت عليها أن توصلها إلى منزلها.

ولكن سوسن طلبت منها أن تذهب بها إلى منزل الأستاذ محسن.

وتحت إصرار سوسن على ذلك، لم يكن بوسع ليلى إلا تنفيذ طلبها.

الفصل الثاني

وصلت سوسن برفقة ليلى إلى شقة الأستاذ محسن.

بحثت في حقيبتها عن المفتاح، فهي تمتلك نسخة من مفتاح الشقة.

فطوال السنوات الأخيرة؛ كانت سوسن أحد أقرب الأشخاص القليلين إلى الأستاذ محسن، وتقضي برفقته ساعات طويلة يومياً، واعتادت الحضور إلى منزله حتى أثناء غيابه.

دخلا إلى الشقة، وتوقفت سوسن للحظة عند الباب، وأغمضت عينيها وأخذت نفساً عميقاً وصمتت، ثم قالت بصوت خافت: **"لا تزال رائحة غليونه تعبق في المكان"**

وكأنها كانت ستبدأ بالبكاء مجدداً، ولكنها تمالكت نفسها، وبدأت بالتقدم إلى الداخل بخطوات مثقلة بألم الفقد، وهي تسرح بنظرها في كل مكان، وتمرر يدها وتلمس بعض اللوحات

المعلقة على الحائط، إلى أن وصلت إلى غرفة نومه وتوقفت.

بادرتها ليلى بالقول: **"يجدر بنا الاتصال بعائلته لإخبارهم بالأمر"**

لم تنتبه سوسن لم قالته ليلى، فقد كانت تسرح بفكرها في بعد آخر، وغارقة في الذكريات، والتفتت إلى أحد اللوحات المعلقة على الحائط واقتربت منها، وبدأت تتحدث بصوت خافت وكأنها تحدث نفسها:

"أتذكر هذه اللوحة جيداً.. لقد كنت أجلس بجواره حين كان يقوم برسمها" ثم ضحكت ضحكة ممزوجة بحشرجة البكاء المليء بالحنين، وتابعت: **"لقد أفسدها للحظة وغضب من نفسه.. وبدأ يسخر من غبائه بسبب ذلك.. وما لبث وأن أصلح خطأه"**

ثم التفتت إلى مجموعة من اللوحات الموضوعة في زاوية الغرفة على الأرض، ونزلت على ركبتيها وقالت: **"هذه أيضاً.. كنت أجلس بجواره وأراقبه أثناء رسمه لها"**

وبدأت في تقليب اللوحات واحدة تلو الأخرى، وهي تردد:

"وهذه.. وهذه أيضاً.. أوه.. وهذه كذلك.. في الواقع لقد عايشت مراحل رسم كل هذه اللوحات الموجودة هنا"

كررت ليلى كلامها مرّة أخرى، ولكن بصيغة السؤال هذه المرّة: **"سوسن.. ألا يجدر بنا الاتصال بعائلته؟"**

التفت سوسن إليها وقالت: **"بالتأكد.. سأفعل"**

وبدأت في البحث في المكان عن هاتف الأستاذ محسن الذي تركه أثناء خروجه للذهاب إلى المستشفى، إلى أن وجدته فوق أحد الطاولات في غرفة المعيشة.

نظرت ليلى إلى ساعتها، فإذا هي تشير إلى السابعة صباحاً فقالت: **"هل من اللائق فعل ذلك الآن؟.. لايزال الوقت مبكراً جداً.. ولا يزال الجميع نائمين بالتأكيد.. ولا أرى من الصواب إيقاظ أحدهم لأخباره بأمر مماثل"**

ويبدو أن سوسن اقتنعت بالفكرة ولم ترد بكلمة، ومشت عدة خطوات باتجاه الأريكة، وجلست دون أن تتحدث، وهي لا تزال تسرح بنظرها في كل اتجاه.

فسألتها ليلى: **"هل ترغبين في فنجان من القهوة؟"**

فردت عليها سوسن: **"لو فعلتي.. فسأشعر حينها بأن فنجان القهوة ذاك.. تجسيد لمعنى النعيم الحقيقي في هذه اللحظة"**

توجهت ليلى على الفور نحو المطبخ لإعداد فنجان من القهوة، بينما سوسن تجلس بغرفة المعيشة وتحدثها من بعيد: **"ستجدين السكر والقهوة في الخزانة العلوية.. وفناجين القهوة في الدرج الأوسط.. وبكرج القهوة ستجدينه بجوار المغسلة.. فقد وضعته هناك بعد أن قمت بإعداد آخر فنجان للأستاذ محسن بالأمس"**

ومن يستمع لهذه التفاصيل؛ كان سيظن بالتأكد بأن سوسن ليست سوى صاحبة هذا المنزل الذي تعرف أدق التفاصيل فيه.

جلست سوسن مشغولة البال، وتشعر بالتوتر والقلق تجاه الطريقة التي يمكنها بها إيصال خبر وفاة الأستاذ محسن لعائلته.

فهي لا تعرف منهم سوى ابنته نغم، والتي لا تزال في السنة الأخيرة من دراستها الثانوية، ولا يزيد عمرها عن ١٨ عاماً.

كيف لها أن تنقل خبر مؤلم إلى هذا الحد إليها، وما الذي ستكون عليه ردة فعل نغم؟!

وكأن سوسن بدأت تجري بروفة سريعة للطريقة التي ستتحدث بها، وكيف لها أن تمهد لنقل الخبر.

انتهت ليلى من إعداد القهوة وقدمتها لسوسن، وجلست بجوارها يتبادلان الأحاديث.

فسألتها ليلى: **"أليس للأستاذ محسن أي أقرباء في مدينتنا؟"**

أجابت سوسن: **"لا أعرف أحد من عائلته سوى ابنته نغم.. التي كانت تأتي لزيارته والإقامة عنده لعدة أيام أثناء الإجازة.. فهي تسكن وتقيم مع أمها في العاصمة.. والأستاذ محسن انتقل للعيش في مدينتنا بعد أن انفصل عن زوجته منذ أن كانت ابنته في الخامسة من عمرها.. لقد آثر الابتعاد عن كل شيء هناك.. ورغب في العيش في مدينة صغيرة تمنحه الشعور بالهدوء.. كان يحدثني باستمرار أنه كان يكره صخب المدن الكبرى.. ويشعر بالاشمئزاز من طبيعة ساكنيها المتعجرفة.. وكان يقول بأن سكان المدن الصغيرة يبدون له أكثر ألفة ومودة في علاقاتهم الإنسانية بالآخرين.. وهذا الأمر كان يناسب طبيعته أكثر.. وكان يردد دوما أنه يحب رائحة الصباح في هذه البلدة.. فهي مشبعة برائحة الطين والشجر**

التي يحملها النسيم معه من الحقول المجاورة"

واستمر الحديث بينهم لبعض الوقت، حتى انتهتا من احتساء القهوة، وكانت الساعة تشير إلى التاسعة.

حينها أمسكت سوسن بهاتف الأستاذ محسن، ونظرت بتوتر إلى ليلى.

أمسكت ليلى بيد سوسن، وقالت: **"يجدر بأحدهم فعل ذلك"**

بدأ جرس الهاتف يرن في الجهة الأخرى، وردت نغم على الاتصال

نغم: **"أهلا بابا"**

سوسن: **"صباح الخير"**

نغم: **"صباح النور.. آنسة سوسن!"**

سوسن: **"نعم.. أنا سوسن"**

أجابت نغم بسعادة كبيرة: **"آنسة سوسن.. لقد اشتقت لك كثيراً.. أنتِ في زيارة مبكرة لبابا اليوم!"**

سوسن: **"نغم.. هل من أحد بجوارك؟"**

نغم: **" نعم.. ماما تجلس بالقرب مني.. آنسة سوسن ما الأمر!"** تعجبت نغم من الأسلوب الذي كانت تجيب به سوسن.

وهنا ارتبكت سوسن، ولم تعرف كيف لها أن تبلغ نغم بهذا الخبر.

فبادرتها نغم بالسؤال مرة أخرى

نغم: **"آنسه سوسن.. أنا انتظر إجابتك!"**

سوسن: **"حسنا نغم.. أنا أحمل لك خبر حزين.. وأتمنى أن تكوني بالقوة التي كان والدك يحدثني بها عنك دوماً.. في حقيقة الأمر.."** وهنا بدأت سوسن بالبكاء مجدداً.

نغم: **"هل عليَ أن أتوقع الأسوأ!؟"**

سوسن: **"الأمر كذلك يا صغيرتي"**

وبعدها توقف الحوار بينهما للحظات.. فبادرت سوسن بالسؤال: **"نغم.. هل أنتِ بخير؟"**

نغم: **"سنكون في البلدة خلال ساعات.. يجدر بنا الحضور دون تأخير"**

وانتهت المكالمة، ومرّت لحظة صمت بين سوسن وليلى.

فبادرت ليلى بالقول: **"كم أشفق على قلبها الصغير"**

تنفست سوسن بعمق وهي تقول: **"كانت قوية بالقدر الذي كان الأستاذ محسن يفخر بها دوماً"** ثم اتبعت كلامها: **"يجب عليَ أن أذهب لمكتبي.. وأرتب خبر نشر نعي يليق بالأستاذ في صحيفتنا.. ولكن هناك ما عليَ أن أحمله معي قبل المغادرة"**

وبدأت سوسن بالبحث في المنزل عن دفتر مذكرات الأستاذ محسن، وطلبت من ليلى أن تساعدها في البحث حتى عثرت عليه في أحد الأدراج.

تعجبت ليلى من رغبة سوسن في الاحتفاظ بدفتر مذكرات الأستاذ محسن، وربما شعرت بأن تصرف سوسن يفتقر للذوق، وفيه تعدِ على خصوصية شخص آخر.

ولكن سوسن بادرتها بالقول: **"كثيراً ما طلبت من الأستاذ محسن أن يسمح لي بتصفح مذكراته.. ولكنه كان يجيبني دوماً.. ليس الآن.. ولكن سيأتي اليوم الذي ستكون فيه مذكراتي تحت تصرفك"** وتابعت سوسن بالقول: **"وها قد أتى ذلك اليوم"**

خرجت سوسن وليلى من المنزل، وأثناء خروجهما من المبنى؛ صادفتا عند الباب السيدة وصال، صاحبة المبنى الذي يقيم فيه الأستاذ محسن، وتسكن في الشقة المقابلة لشقته.

وهي سيدة طيبة، وفي بداية العقد الخامس من العمر، فبادرتهم السيدة وصال بإلقاء التحية الصباحية.

وصال: **"آنسة سوسن صباح الخير.. لقد جئت مبكراً هذا الصباح!"**

فردت سوسن عليها التحية

وصال: **"هل استيقظ الأستاذ محسن؟ وكيف هي حالته الصحية اليوم؟ لقد خرجت لإحضار بعض الحاجيات**

لأعد له حساء الدجاج الذي يحبه.. ربما يساعده ذلك على استعادة عافيته"

فردت سوسن: **"لم يستيقظ.. وفي الحقيقة لن يستيقظ مجدداً"**

وبدت علامات التعجب على ملامح السيدة وصال حينها، وتساءلت ما لذي تعنيه الآنسة سوسن بكلامها هذا**!**

ردت سوسن: **"لقد رحل الأستاذ محسن عن عالمنا هذا الصباح"**

وما أن سمعت السيدة وصال ذلك؛ حتى أوقعت كل ما كانت تحمله في يدها، وكادت تسقط هي الأخرى جرّاء الصدمة، وشرعت في البكاء، والحديث عما كانت تكنه من حب وتقدير للأستاذ محسن.

الفصل الثالث

في المساء، وصلت نغم برفقة والدتها السيدة فاتن.

وهي سيدة أنيقة على قدر من الجمال، وتصغر الأستاذ محسن بسنوات قليلة، إلا أنها تبدو أصغر بكثير من عمرها الفعلي.

كما قدم برفقتهم السيد هشام، الأخ الأكبر للأستاذ محسن، وهو رجل قد بلغ الخامسة والستين من عمره، وتبدو عليه مظاهر الثراء، بالنظر إلى السيارة الفارهة التي كان يستقلها.

وكانت تلك هي المرة الأولى التي تلتقي فيها سوسن بطليقة الأستاذ محسن، وشقيقه الأكبر، بالرغم من أنها قد سمعت الكثير عنهم.

وحقيقة الأمر، لم تشعر سوسن بأي قدر من المودة تجاههم، بعكس مشاعرها تجاه نغم، التي كان الحزن بادي على ملامحها بشكل عميق، ولكن سوسن كانت مجبرة

على استقبالهم بشكل لائق، وقد توجهت بهم إلى أحد الفنادق في البلدة ليقضوا ليلتهم فيها.

وبمجرّد أن انتهت من ذلك؛ عادت إلى منزلها وهي لا تكاد تقوى على الوقوف على قدميها، فقد كان يوماً مرهقاً بلا شك بالنسبة لها على الصعيد النفسي والجسدي، ومضى ما يزيد عن الأربع وعشرين ساعة لم تحصل خلالها على قسط من النوم، وبالرغم من ذلك؛ فقد وجدت صعوبة كبيرة في النوم، فقد كانت لا تزال تحت تأثير صدمة الفقد، وشعور مزعج، وكأنما فقدت جزءاً من قلبها.

وأثناء ذلك، رن جرس هاتفها، وكان المتصل هي السيدة وصال، والتي كانت تسأل عن ترتيبات العزاء ليوم غد.

أجابتها سوسن بأنها لم تجد الفرصة الكافية للاهتمام بهذا الأمر.

فاقترحت السيدة وصال أن يتم استقبال المعزين في منزلها، وقالت: **"المرحوم كان فناناً.. وبالتأكيد سيكون هناك الكثير من المعزّيين.. ومنزل الأستاذ محسن عبارة عن شقة صغيرة.. مكونة من غرفة معيشة وغرفة نوم..**

ولن يستوعب المكان أعداد كبيرة من الناس.. بينما منزلي به صالون استقبال واسع"

انتهت المكالمة بينهما وأغلقت سوسن الهاتف، وبالرغم من أنها وافقت السيدة وصال في كل ما قالته؛ إلا أنها كانت تشعر في داخلها أن أعداد الحاضرين لتقديم واجب العزاء لن يكون كبيراً، فهي تعلم أن الأستاذ محسن كان منعزلاً بشكل كبير طيلة السنوات القليلة الماضية، باستثناء عدد قليل من الناس الذين كان يحتفظ بعلاقات جيدة معهم.

مساء اليوم التالي، وبعد الانتهاء من تشييع جثمان الأستاذ محسن، توجه الجميع إلى منزل السيدة وصال لاستقبال المعزين.

جلست سوسن بجوار ليلى، وفي صدر الصالون جلست نغم، والسيدة فاتن، والسيد هشام، وكانت السيدة وصال مشغولة بتقديم الضيافة لكافة الحاضرين.

وكما توقعت سوسن، فلم يكن عدد الحاضرين لتقديم واجب العزاء كبيراً، سوى بعض الجيران في المبنى والحي،

وعدد من طلاب الجامعة بكلية الفنون الذين اعتادوا على زيارة الأستاذ محسن في منزله للاستفادة من خبراته الفنية.

مرّت ساعات العزاء باردة وكئيبة، ولم يكف خلالها السيد هشام عن النظر لساعة يده، وكأنه يستثقل هذه الساعات.

وفي كل مرّة يرفع فيها يده للنظر إلى ساعته؛ كانت الساعة تعكس إضاءة الثريا الكبيرة المتدلية من سقف الصالون، وكأن الساعة تود لفت انتباه جميع الحضور ليلتفتوا إلى حبات الماس التي تزينها.

في الحقيقة، تعجبت سوسن من علامات الملل تلك البادية على ملامح السيد هشام، وكأنه قد أتى لتلقى العزاء مجبراً، ولرفع الحرج عن نفسه لا أكثر.

وبينما سوسن تحدث نفسها بتلك الأحاديث، مالت عليها ليلى وهمست في أذنها: **"لاحظت أن السيدة فاتن لم تكف عن ذرف الدموع منذ جلسنا.. هل لاحظتي أنتِ ذلك؟.. يبدو لي أنها كانت تحب الأستاذ محسن بشكل كبير!"**

هنا نظرت سوسن إلى السيدة فاتن وحدقت فيها،

والسيدة فاتن مطاطاه رأسها إلى الأسفل، وتمسك بيدها منديلاً يساعدها على تجفيف تلك الدموع التي تنهمر من عينيها بين الحين والآخر، ثم نظرت سوسن إلى ليلى وقالت: **"هل تعلمين؟.. أنا اشعر باحتقار كبير تجاهها"**

تعجبت ليلى من رد سوسن، ولكن سوسن تابعت حديثها قائلة: **"هذه السيدة تسببت بالكثير من الألم لصاحب القلب الكبير.. رغم جهلي بالعديد من التفاصيل.. ولكني كنت أشعر بكل ذلك الألم في أحاديث الأستاذ محسن.. في أي حديث عابر عنها.. فهو دائماً ما كان يتجنب الخوض في التفاصيل.. ويكتفي بالتفوه ببضع عبارات مقتضبة.. تثير فضولي وحسب"**

كانت السيدة وصال تتابع هذا الحوار الخافت، الدائر بين سوسن وليلي، فعقبت قائلة: **"في المآتم يبكي الكثيرون.. ولكن ليس كل من يبكي يشكو من ألم الفراق.. فبعضهم يبكي ندماً أنه لم يحظى بفرصة لطلب الصفح من المتوفي على جرائمه في حقه"**

بعد ذلك بقليل، دخل رجل قصير القامة وبدين بعض الشيء، ويبدو عليه أنه قد تجاوز الخمسين من عمره، وذو ملامح ودودة.

دخل وهو يمشي ببطء، ويتلفت يميناً ويساراً وهو يشعر بالحرج، وتوقف في وسط الصالون، ونظر باتجاه نغم ووالدتها وعمها، وكأنه أدرك أن هؤلاء هم عائلة الأستاذ محسن.

ثم خلع قبعته التي كان يلبسها، وامسك بها بين يديه وهو يعبث بها، وكأنه كان يستعد لإلقاء كلمة.

نادت سوسن على السيدة وصال وسألتها، عمّا إذا كانت تعرف هذا الرجل؟

فأجابتها السيدة وصال، بأن هذا هو السيد منصور، صاحب محل البقالة الذي يقع في بداية الشارع.

بعدها مباشرة، بدأ السيد منصور بالحديث: **"أنا منصور صاحب محل البقالة الذي يقع في بداية الحي"** ثم صمت للحظة، وبدأ بالحديث مجدداً: **"أعرف الأستاذ محسن مند أن سكن في هذا الحي.. وقد اعتاد على الحضور إلى دكاني لشراء احتياجاته اليومية.. كان رجلاً طيباً أسعد برؤيته حين يأتي"** ثم صمت مرّة أخرى ونظر باتجاه نغم وأمها، وتابع: **"في أحد الأيام مازحته وطلبت منه أن يرسمني.. فما كان منه إلا أن وافق على رسم صورتي.. وبالفعل..**

جاء في اليوم التالي وهو يحمل لوحة فارغة وأدوات الرسم، ونصب منصته في زاوية الدكان وجلس يتأملني.. بينما أنشغل أنا بتلبية طلبات زبائني.. وقد تطلب منه الأمر عدة ساعات.. كنت خلالها أطلب منه أن يسمح لي بإلقاء نظرة على اللوحة.. ولكنه كان يرفض ذلك ويقول لي.. ستراها بعد أن تكتمل.. وبالفعل.. بعد أن انتهى منها.. طلب مني أن أتقدم نحوه لأراها.. نظرت إلى نفسي في تلك اللوحة.. وكان الشخص الذي في الصورة بالفعل يشبهني بشكل كبير.. ولكن كانت ملامحه طفولية جداً.. فبادرته بالسؤال: هل هذا أنا بالفعل!"

فأجابني الأستاذ محسن: **"نعم بالتأكيد.. هذا أنت يا سيد منصور"**

فقلت له: **"ولكن الشخص الذي بالصورة يبدو كطفل"**

فضحك وقال لي: **"الكاميرا (الفوتوغرافية) آلة جامدة.. تلتقط الصورة التي أمامها كما هي.. ولكن الفنان قادر على تلمس الروح في أعماق كل شيء.. وهو قادر على رؤية الروح التي تسكن جسد الإنسان الذي يقوم برسمه"**

وتابع السيد منصور كلامه قائلاً: **"حقيقة لم أتمكن من فهم ما كان يعنيه بكلامه ذاك.. ولكني كنت سعيداً بلا شك بالصورة.. وفي الليل.. أغلقت الدكان وعدت إلى منزلي حاملاً تلك اللوحة.. واخترت لها مكاناً مناسباً في غرفة المعيشة.. وعلقتها على الجدار.. وجلست أمامها أتأملها.. فاقتربت مني زوجتي وسألتني عن اللوحة.. فأخبرتها بأن الأستاذ محسن قام برسمي وأهداني إياها.. اقتربت زوجتي من اللوحة أكثر.. وكأنها كانت تحاول حشر أنفها فيها.. ثم التفتت نحوي وقالت بنبرة تنمر كعادتها: تبدو ملامحك في غاية البلاهة في الصورة.. وانصرفت إلى المطبخ.. وقد أغضبني وصفها لي في الحقيقةً.. ولكني تجنبت كالعادة جدالها.. وضللت جالساً في مكاني أتأمل اللوحة.. ومن ثم تذكرت كلام الأستاذ محسن.. بأن الفنان بإمكانه رؤية الروح على حقيقتها.. وحينها فقط.. أدركت ما كان يعنيه بكلامه.. وعلت وجهي ابتسامة.. فما كان مني إلا أن نهضت وتوجهت إلى المطبخ.. ووقفت عند الباب وأنا أتأمل زوجتي وهي تقوم ببعض الأعمال.. نظرت نحوي وسألتني بتهكم ما بك تقف هكذا! فقلت لها أتدرين!.. يخيّل إلي لو أن الأستاذ محسن فكر برسم صورة لك.. فأنه سيرسمك على هيئة ساحرة تمتطي مكنسة..**

وبمجرّد أن سمعت ما قلته ثارت.. وبدأت بالصراخ.. وتوجيه كلمات عنيفة نحوي.. ولكني تجاهلتها.. وعدت إلى مكاني.. وجلست أتأمل اللوحة"

هنا برقت بضع دمعات في عين السيد منصور، وتملكته مشاعر الحزن العميقة، فما كان منه إلا أن مسح دموعه بقبعته التي كان يمسكها بيده، وواصل كلامه: **"إنني أشعر بأن الأستاذ محسن كأن الوحيد الذي أدرك حقيقتي.. وحاول رسمي بالطريقة التي كان ينظر بها إلي.. بعكس زوجتي.. التي لطالما كانت تظنني شخص أبله عديم الفائدة"**

كان جميع من في الصالون. يحدقون في السيد منصور وهم يستمعون إلى حديثة، دون أن يهمس أحدهم بكلمة، أو تبدو على ملامحهم أي ردة فعل واضحة.

وضل السيد منصور واقفاً للحظات في مكانه.

فما كان من نغم؛ إلا أن نهضت من مكانها، وسارت باتجاه السيد منصور، وأمسكت بكلتا يديه، وقالت: **"نحن نقدر لك حضورك لتقديم واجب العزاء.. وأنا واثقة أن أبي كان يدرك مدى نبلك.. وجمال الروح التي تسكن فيك يا سيد منصور..**

كما أنني واثقة من أنه كان يحبك كثيراً"

وهنا رد السيد منصور: **"وأنا كذلك كنت أحبه.. وأكن له الكثير من الاحترام"**

انصرف السيد منصور، وعاد الصمت ليخيم على المكان، ومرّت الساعة تلو الأخرى، والسيد هشام لا يمل من النظر إلى ساعته؛ حتى تأخر الوقت.

نهض السيد هشام من مكانه، وبدأ بالحديث بصوته الخشن، وقال: **"أرى أن نكتفي بيوم واحد لتلقي العزاء.. فعلى أي حال.. لا يوجد عدد كبير من المعزين.. ولا أتوقع أن يكون هناك المزيد في اليومين القادمين"**

والتفت باتجاه نغم والسيدة فاتن، وكأنه ينتظر منهم موافقته على نفس الرأي.

توجهت إليه سوسن بالكلام، وقالت: **"الأستاذ محسن يستحق منا أن نقيم له مراسم عزاء تليق به كإنسان أولا.. وكأحد المبدعين ثانياً.. أما عدد الحاضرين لتقديم العزاء لا تزيد**

عن كونـها مسألة شكلية"

والتفتت باتجاه السيدة وصال وسألتها عن رأيها في ذلك، فما كان من السيدة وصال إلا أن وافقتها في رأيها، وقالت بأن العزاء سيستمر لمدة ثلاثة أيام في منزلها.

كانت نبرة سوسن في الكلام لا تخلو من الحدة، والتعبير عن رفض كلام السيد هشام، مما تسبب له ذلك بالحرج قليلاً، ولكنه استعاد تماسكه، وقال: **"في الواقع أنا مرتبط بكثير من المواعيد التي يصعب عليَ طلب تأجيلها.. وتجدر بي العودة إلى العاصمة.. وبإمكان نغم والسيدة فاتن المكوث لثلاثة أيام لتلقي العزاء نيابة عني إن رغبا في ذلك طبعاً"**

وبالفعل، رحل السيد هشام عائداً إلى العاصمة، وبقيت نغم ووالدتها بالبلدة، ولكن تصرف السيد هشام أثار دهشة سوسن، ولم تتمكن من تبرير هذا التصرف الذي يشير بكل وضوح إلى سطحية مشاعر هذا الإنسان، الذي كان يجدر به أن يبدي مزيداً من التأثر، بسبب فقدان شقيقه الأصغر.

عادت سوسن تلك الليلة إلى منزلها، وبالرغم من التعب الذي كانت تشعر به، إلا أنها كانت متلهفة لقراءة مذكرات الأستاذ محسن.

وبالفعل هذا ما قامت به، فقد بدأت بتصفح بضع صفحات من المذكرات، حتى غلبها النعاس ونامت.

الفصل الرابع

مرّت أيام العزاء الثلاثة بشكل باهت ظاهرياً، ولكن مشاعر المحبين لا تبهت أبداً، وتضل مفعمة بألوان الحنين، وتصبح أكثر توهجاً بعد الفقد.

وهذا تماماً الشعور الذي كانت تشعر به سوسن والسيدة وصال، وبالتأكيد نغم، وإن لم يكن يبدو عليها الكثير من الحزن، وذلك ما قد يجعل الآخرين يظنون بأن الشخص المقابل غير حزين لمجرد أنه لا يبكي، بينما الدموع قد تكون نازفة ومتدفقة بأعماقه.

في صباح اليوم الرابع، قررت سوسن أن تصطحب نغم إلى شقة الأستاذ محسن؛ للملمة بعض مقتنياته الشخصية، والتي أبدت نغم رغبتها في الاحتفاظ بها كتذكارات.

بينما أبدت السيدة فاتن رغبتها في الخروج للتنزه قليلاً في البلدة.

دخلت نغم إلى شقة والدها وهي تنظر حولها، وكأنها في حوار صامت مع كل شيء يمت بصلة إلى الأستاذ محسن.

تقدمت نحو الكرسي الذي اعتاد والدها الجلوس عليه أثناء ممارسته للرسم، وكانت هناك لوحة لا تزال غير مكتملة، وإن كانت تبرز فيها بعض ملامح الصورة، تحدثت نغم بصوت هادئ، ووجهت سؤالها لسوسن: **" آنسة سوسن.. برأيك كيف كانت ستبدو هذه اللوحة بعد اكتمالها؟.. أرى فيها ملامح زهرة لم تتفتح بعد.. وصورة فتاة بملامح حزينة.. تجلس بجوارها وتحدق في الزهرة"**

اقتربت سوسن من اللوحة وقالت: **"نعم هذا صحيح"** ثم تابعت: **" لقد بدأ في رسمها منذ أيام قليلة.. وتوقف عن ذلك بسبب مرضه"**

صمتت نغم للحظات، ثم قالت: **"ألم يكن يجدر به أن يكملها.. بدل أن يترك هذه المسكينة تنتظر تفتح تلك الزهرة إلى الأبد!"**

فردت عليها سوسن: **"نحن لا نختار بإرادتنا ساعة الرحيل يا نغم.. وكثيرون هم أولئك الذين رحلوا وتركوا من خلفهم أمور غير مكتملة.. ولكن دائماً ما يكون هناك آخرون مستعدين لإكمال ما بدأوه"**

تأملت نغم في كلام سوسن، ثم ردت: **"كنت أتمنى لو أنني تعلمت الرسم لأكملها فعلاً"**

سوسن: **"لا يقتصر الأمر على إكمال لوحة.. ربما هناك أمور كثيرة يجدر بك التفكير في إكمالها.. كما كان الأستاذ محسن يتمنى"**

وضعت سوسن يدها على كتف نغم، وقالت لها: **"كان الأستاذ محسن يحدثني دائماً عن حلمه في أن يرى نجاحاتك.. وتفوقك في الحياة.. وكان يقول يوماً ما سأفخر بابنتي نغم.. وهذا ما عليك العمل عليه وإكماله"**

ثم نظرت في عيون نغم، وقالت لها: **" إنك تشبهين والدك كثيراً.. عيونك تتدفق منهما نفس البراءة التي كانت في عيون الأستاذ محسن"**

وهنا قرع أحدهم باب الشقة، فتوجهت سوسن لفتح الباب، وكانت السيدة وصال هي الطارق.

دخلت وألقت عليهم تحية الصباح، وقالت: **"لقد سمعت صوت فتح باب الشقة.. وعلمت بلا شك أنكم أنتم من دخلها.. فجئت لألقي عليكم التحية.. وسوف أذهب لأعد لكم القهوة.. وآتي لنشربها سوياً"**

خرجت السيدة وصال، وباشرت سوسن ونغم في ترتيب بعض الأغراض، والبحث في المكان عن متعلقات محسن الأخرى.

وبالطبع لم يكن الأمر بالسهولة التي يبدو عليها، فكل قطعة في المنزل تمثل جزءاً من الإنسان الذي كان يسكنه، ويحمل ذكرى فريدة عنه.

كانت نغم تجري حوار صامتا مع كل لوحة، وكل تحفة صاغتها أنامل والدها، بينما كانت سوسن تتذكر كل تلك اللحظات التي كانت تقضيها برفقة الأستاذ محسن، وكل تلك القصص التي كان يتحدث فيها.

عادت السيدة وصال وهي تحمل بيدها صينية عليها بكرج القهوة والفناجين، ودعتهم للجلوس لحين الفراغ من احتساءها.

وطوال فترة جلوسهم، لم تكف السيدة وصال عن الحديث، فهي امرأة ثرثارة إلى حد ما، ولكن دون أن تتسبب لأحد بالإزعاج، أو يشعر منها بالملل.

ثم قامت السيدة وصال وتوجهت ناحية الخزانة الصغيرة الموجودة في زاوية غرفة المعيشة، وفتحت أحد الأدراج، وأخرجت الناي.

حدقت به طويلاً، وبدأت تمسح عليه بأطراف أصابعها، وتتحدث بنبرة حزن عميق، لا يختلف كثيراً عن صوت الشجن الذي يبعثه الناي الذي تمسك به: **"كم كان يطربني بعزفه.. كان يحب العزف عليه في الليل.. وصوته يصلني من خلال نافذة غرفة نومي.. فأنصت إلى تلك الأنغام التي لم أشك يوماً أن مصدرها لم تكن قصبة الناي.. إنما كانت تخرج من روح الأستاذ محسن"**

اقتربت منها نغم، ووجهت إليها سؤال: **"بوسعك الاحتفاظ به إن رغبتي في ذلك سيدة وصال؟"**

لم تخفي السيدة وصال سعادتها ودهشتها بذلك، وقالت: **"ظننت أن طلب من هذا النوع سيكون فيه الكثير من عدم اللباقة.. وآثرت الصمت.. هذا الناي رافقني صوته لسنوات، وبت أشعر وكأنه جزء من الأستاذ محسن.. وكم كنت أتوق للاحتفاظ بشيء يذكرني به"**

أنهت السيدة وصال كلامها، وضمت نغم إلى صدرها تعبيراً منها لامتنانها لمنحها هذا الناي، ومن ثم نظرت نغم إلى عيني السيدة وصال وقالت: **"أبي كان جزءاً منكم جميعاً كما هو جزء مني.. ولن أشك للحظة بحجم المشاعر التي تكنونها له.. وأرى أننا نشترك جميعاً في محبته.. ولذلك فمن حقكم كذلك أن تحتفظوا بشيء يشعركم بوجوده بقربكم دائماً"**

ومن ثم نظرت نحو سوسن وهي تسألها: **"كذلك أنتِ آنسة سوسن.. بإمكانك الاحتفاظ بشيء إن أردتِ؟"**

صمتت سوسن للحظات، ولكن كان يبدو عليها أن لديها ما تود قوله، فانتبهت نغم لذلك، وألحت عليها بالسؤال، فردت سوسن: **"حقيقة لا أعلم.. هل كان يحق لي فعل ذلك أم لا!.. ولا أدري إن كان الأمر سيزعجك؟.. ولكني أحتفظ بمذكرات**

الأستاذ محسن.. وقد فعلت ذلك لأنني أنوي قراءة تلك المذكرات.. وكتابة سلسلة قصصية عن حياته ونشرها بالصحيفة.. فهل توافقين على ذلك يا نغم؟"

لم تتردد نغم للحظة، ومن ثم أجابت: **"بالتأكيد.. أنا موافقة.. ولكن بشرط أن تعيديها إليَ بمجرّد الانتهاء منها.. فأنا أجهل جوانب كثيرة من حياة والدي.. وأرغب في معرفتها"**

بعدها أنهمك الجميع في الترتيب، وقامت نغم بجمع بعض الأغراض التي أحبت أن تحتفظ بها، واستمرت السيدة وصال في ثرثرتها، وسرد بعض القصص المضحكة، وكانت سوسن ونغم يضحكون حين سماعها، خاصة وأن السيدة وصال كانت بارعة في سردها بطريقة كوميدية احترافية.

مضى الوقت وهم على هذا الحال، وكانت الساعة تقترب من السادسة مساء، حينما تسللت طفلة صغيرة إلى داخل الشقة.

كانت طفلة لم تتجاوز السابعة من عمرها، لديها ملامح ملائكية، وترتدي فستاناً زهرياً، وشعرها الطويل ينساب على أكتافها.

ولم يلحظ أحد دخولها؛ إلا حينما وجهت إليهم سؤالها: **"هل الرجل اللطيف موجود؟"**

التفت الجميع إليها متفاجئين، وهم لا يعرفون كيف ومتى دخلت الطفلة، ومن تكون!

سألتها سوسن: **"عن أي رجل لطيف تسألين؟"**

أجابتها الطفلة: **"الرسام الذي يسكن هنا"**

نظرت سوسن إلى السيدة وصال وسألتها، إن كانت تعرف الطفلة، ولكن أتضح أن حتى السيدة وصال لا تعرفها.

اقتربت نغم من الطفلة ونزلت على ركبتيها، وسألتها من تكون!

كانت الطفلة تحمل بين يديها علبة ألوان وكراسة رسم، فأرتها لنغم وقالت: **"لقد طلب مني الرجل اللطيف أن أحضر علبة ألوان وكراسة.. ليعلمني الرسم"**

فسألتها نغم: **"متى طلب منكِ ذلك؟"**

فأجابت الطفلة: **"كان ذلك منذ أيام.. حين كنت ألعب**

أمام منزلنا.. فمرّ الرجل اللطيف وهو يحمل لوحة كبيرة.. استوقفته وسألته إن كان ما يحمله لوحة؟.. فنزل على ركبتيه.. وأجابني بنعم.. وأنه رسام يحب رسم اللوحات.. طلبت منه أن يعلمني الرسم مثله.. فوافق.. وقال لي أحضري كراسة وعلبة ألوان.. وسوف أعلمك كيف ترسمين لوحة جميلة"

ثم تابعت الطفلة: **"ولكنني لم أكن أملك كراسة أو أية ألوان حينها.. فبدأت أدخر بعض المال لحين تمكنت من شرائها"**

سألتها سوسن: **"وهل سبق لكِ المجيء إلى هنا!"**

ردت الطفلة: **"لا.. هذه أول مرة آتي فيها إلى منزله"**

فتعجب الجميع كيف عرفت الطفلة منزل الأستاذ محسن، وسألتها سوسن.. كيف عرفتِ مكان إقامته**!**

ردت الطفلة: **"منزلنا يقع في الجهة المقابلة.. ومنذ أن قابلته في الشارع لأول مرّة.. كنت أجلس في النافذة المقابلة لنافذته.. وألوح له بيدي.. فيرد عليَ التحية.. فعرفت أين يسكن"**

ثم تقدمت الطفلة نحو سوسن، وسحبتها من يدها نحو النافذة وقالت: **"أنظري.. تلك هي نافذة منزلنا"** ثم عادت الطفلة لتسأل: **"والآن.. أين هو الرجل اللطيف؟"**

اقتربت نغم من الطفلة، وقالت لها: **"لقد رحل الرجل اللطيف من هنا"**

وحين لاحظت الاستياء على ملامح الطفلة، قالت: **"هو الآن يجلس مع عدد كبير من الأطفال في حديقة واسعة يعلمهم الرسم.. لأنهم طلبوا منه أن يأتي إليهم دون تأخير"**

ردت الطفلة: **"وماذا عني أنا!.. ومن سيعلمني الرسم إذا؟"**

نغم: **"لقد كان الرجل اللطيف في انتظارك منذ أيام.. ولكنّه كان مضطراً للرحيل.. وقبل مغادرته أخبرني عنكِ.. وطلب مني أن أخبرك حين تأتين.. أنكِ الآن تمتلكين الألوان وكراسة الرسم.. ولم يتبقى لكِ سوى الخيال لتتمكني من رسم لوحة.. فمتى امتلكت الأدوات لن ينقصك سوى الخيال لتصبحي فنانة"**

صمتت الطفلة للحظة، ثم بدأت تسال: **"حسناً.. وأين هي**

تلك الطفلة التي قال عني أنني أشبهها؟.. إن كانت موجودة فأنا أود أن ألعب معها"

تعجبت نغم، وتساءلت من تكون تلك الطفلة؟

فردت عليها الطفلة، بأن الرجل اللطيف حين نزل على ركبتيه أمامها؛ نظر في عينيها وتأملها قليلاً، ثم مسح على رأسها وقال لها: **"إنكِ تشبهينها كثيراً!.. وحين سألته من تكون وأين تسكن؟.. ضحك وأجاب بأنها صديقته الصغيرة التي تعيش معه"**

وفي هذه اللحظة، ارتفع صوت الناس بالشارع، فركضت السيدة وصال نحو النافذة لتستطلع الأمر.

رأت من خلال النافذة سيدة تصرخ وتبكي بشكل هستيري، وتبحث عن ابنتها، وقد اجتمع الناس من حولها، فأدركت أن تلك السيدة لابد وأنها أم الطفلة وقالت: **"يال المرأة المسكينة.. لابد أنها أم هذه الطفلة.. سأوصلها لأمها في الحال"**

وبالفعل، أسرعت السيدة وصال بالطفلة، ونزلت بها إلى الشارع، وسوسن ونغم يراقبانها من النافذة بالأعلى،

لحين أخذت السيدة طفلتها ورحلت، وتفرّق الجميع، نظرت نغم إلى سوسن وسألتها: **"من تكون تلك الطفلة التي كان يتحدث عنها أبي!"**

فردت عليها سوسن: **"قد تكون ابنة أحد أصدقاءه"**

التفتت نغم نحو الأفق، فرأت الشمس آخذه في الغروب، وأسرها ذلك المنظر، وطلبت من سوسن أن تتأمل معها الشمس لحين غيابها، ووقفا سوياً يتأملانها حتى غابت بالكامل.

وهنا همست نغم: **"ستشرق غداً مجدداً.. أليس كذلك آنسة سوسن؟"**

سوسن: **"نعم بالتأكيد.. إنها تشرق كل يوم"**

صمتت نغم للحظات، ثم أتبعت تتسأل: **"ولمَ لا يعود الراحلون مثلها مرّة أخرى!"**

تفهمت سوسن ما كانت تعنية نغم، وما تريد قوله، فردت عليها: **"الشمس التي تغيب.. هي نفسها التي ستشرق في صباحنا في اليوم التالي.. أما أصحاب القلوب الدافئة متى رحلوا.. فلا توجد منهم نسخة أخرى.. هم يشرقون**

في سماء الحياة لمرّة واحدة.. ويرحلون تاركين من ورائهم إرثاً من الحب"

رن جرس الهاتف الخاص بنغم، وكان المتصل هي أمها السيدة فاتن، والتي كانت تسألها ما إذا كانت انتهت من جمع ما تريد أخذه معها من مقتنيات والدها، وأن عليهم مغادرة البلدة، والعودة إلى منزلهم في العاصمة.

في تمام الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم؛ ودعت سوسن نغم والسيدة فاتن في محطة القطار، وعادت إلى منزلها.

وبدأت في قراءة مذكرات الأستاذ محسن بتمعن.

الفصل الخامس

حديث السطور

عادت سوسن لمزاولة حياتها الطبيعية، ولكن مع شعور عميق بالفراغ والملل، وإن كان عملها كصحفية لا يترك لها مزيداً من وقت الفراغ.

فمهنة الصحافة معروفة بأنها مهنة المتاعب، ولكن كونها مراسلة للصحيفة في بلدة صغيرة نسبياً، فهي تفتقر للفعاليات المستمرّة، أو الأحداث المهمة، مما يترك لها وقت فراغ معقول في المساء.

وكانت تستغل تلك الأوقات في زيارات للأستاذ محسن، أو الخروج لأحد المقاهي برفقة صديقتها ليلى، وذلك كان أمراً نادر الحصول.

توجهت سوسن لمكتبها في الصحيفة صباح اليوم التالي لوداع نغم، ووجدت في جدول أعمالها عدد من الزيارات،

والتغطيات الصحفية لبعض الفعاليات في البلدة.

ودائماً ما كانت تتذمر من الإمكانيات المتواضعة لزميلها رامي في المكتب، والذي كان بدوره يفتقر لكثير من المهارات التي يتطلبها العمل الصحفي، مما كان يشكل ضغطاً إضافياً على سوسن، تضطر معه لإنجاز بعض مهامه بدلاً عنه.

ولكنها كانت تحب وظيفتها كصحفية، ومتى أحب الإنسان مهنته؛ فلا يعود يشعر بالضجر مما يقوم به.

قضت ذلك اليوم بأكمله في التنقل من مكان لآخر برفقة مصور الصحيفة.

ففي الساعة ٩:٣٠ كان يتوجب عليها التواجد في المكتب البلدي؛ لتغطية المؤتمر الصحفي الذي يعقده رئيس المجلس، وفي الساعة الثانية عشره توجهت لمستشفى البلدة، لحضور حفل افتتاح أحد الأقسام الجديدة، وفور انتهاءها عادت إلى مكتبها لتقوم بتحرير الأخبار، ومن ثم إرسالها للمركز الرئيسي للصحيفة؛ لتجد لها مساحة للنشر في العدد الذي سيصدر صباح الغد.

وما أن انتهت من ذلك، توجهت لحضور حفل تكريم المساهمين في أحد المشاريع المجتمعية في مقر أحد الجمعيات الإنسانية بالبلدة، وبعد انتهاء الحفل عادت مرة أخرى إلى مكتبها لتقوم بتحرير الخبر بشكل مفصل، وإرساله للنشر.

كانت الساعة قد قاربت التاسعة مساءً، وشعرت سوسن أنها قد استنزفت طاقتها بالكامل، وعليها الآن العودة للمنزل، فهي تتوق لمتابعة ما بدأته منذ أيام ومواصلة قراءة مذكرات الأستاذ محسن.

عادت سوسن إلى المنزل، وحصلت على حمام دافئ؛ لتشعر بعدها بالراحة.

تناولت وجبة العشاء، واستلقت على الأريكة، وبدأت في قراءة المذكرات.

كان الأستاذ محسن قد شرع في كتابة مذكراته بعد أن أنفصل عن زوجته السيدة فاتن، ولكنه بدأ في سرد قصته ابتداءً من طفولته.

وقد لفت نظر سوسن، أن الأستاذ محسن كان ابناً لعائلة ميسورة الحال، وحظي بطفولة لا بأس بها، وعاش في منزل واسع، تحيط به حديقة كبيرة، اعتاد اللعب فيها يومياً، وكان يشير بين وقت لآخر إلى والديه، ويتحدث عنهم بقدر كبير من الحب، مما يدل على أنه حظي برعايتهم وحبهم بشكل جيد.

بينما كان يتحدث عن أخيه هشام بتحفظ شديد، واستشعرت سوسن من ذلك أن العلاقة بينهم لم تكن على درجة كبيرة من الوئام منذ طفولته.

كانت سوسن تتوق من خلال قراءتها لبلوغ المنعطف الذي بدل حياته، وجعله شخص مدمر إلى هذا الحد الذي عرفته عليه.

في حين كانت على ثقة كبيرة، أن حادثة انفصاله عن زوجته؛ كان له أكبر الأثر في ذلك.

استمر الأستاذ محسن في الصفحات الأولى من مذكراته في الحديث عن طفولته بإسهاب أحياناً، وبشكل مختصر أحياناً أخرى، حتى بلغ التاسعة من عمره.

وهنا ذكر أن حياته قد تبدلت بشكل درامي نحو الأسوأ،

وذلك بسبب أنه فقد والديه فجأة في حادث سير، تسبب في وفاتهما.

وفي هذه المرحلة، كان يكتب بعاطفة عميقة عن مشاعره المؤلمة جرّاء ذلك الفقد، ولكنه كان يجهل بأن كثيراً من الأحداث السيئة لا تزال بانتظاره.

فبعد مرور أسبوعين فقط على تلك الحادثة؛ أيقظه هشام باكراً في صباح أحد الأيام، ولاحظ أن مربيته سعاد كانت تقوم بترتيب جميع ملابسه، وأغراضه الشخصية، في حقائب سفر.

وذكر كيف أن سعاد كانت دموعها تنهمر على وجنتيها دون توقف، فيما يقف هشام بجانبها ويطلب منها الإسراع في إنهاء الأمر.

لم يدرك ذلك الطفل ما الذي كان يجري من حوله، وظل جالساً على فراشه في صمت، وذكر أنه كان يشعر بالجوع، ويطالب سعاد بأن تعد له طعام الفطور، وظل يكرر ذلك الطلب لعدة مرات دون جدوى.

وحين أرادت الاستجابة لطلبة، نهرها هشام، وطلب منها

أن تنهي عملها، وأنه سيتدبر مسألة الفطور في الطريق.

وما أن فرغب سعاد من ترتيب جميع الأغراض في الحقائب؛ حتى طلبت منه النهوض لارتداء ملابسه، وبعد ذلك ضمته إليها بقوة، وأخذت تقبله وهي لا تكف عن البكاء، وطلبت منه أن يعتني بنفسه جيداً، حتى ودعته عند باب الفناء الخارجي للمنزل.

كانت سعاد تعتني بالأستاذ محسن منذ أن كان رضيعاً، وبدوره كان يحبها، ويفتقدها إن غابت عن الحضور لأيام، كما هو مدون في مذكراته.

خرج بصحبة هشام، وبدأ السائق يقود بهم باتجاه لا يزال مجهولاً بالنسبة إليه، ولم يجرؤ على سؤال هشام عن الوجهة التي يقصدونها سوى لمرة واحدة، ولم يتلقى منه أي إجابة، فآثر حينها الصمت والانتظار لحين تكشّف الأمور بمجرّد وصولهم إلى وجهتهم.

تحدث الأستاذ عن رحلته تلك بكثير من الألم، وذكر أنه كان يشعر بالجوع طوال الطريق، ولم يدرك حينها بأن سلسلة الفقد التي سيعيشها طوال حياته لازالت في أول حلقاتها.

فمنذ أسبوعين فقد والديه، وها هو الآن سيفقد وجه مربيته سعاد، التي اعتنت به لسنوات، وإلى الأبد.

شعر وهو يجلس في تلك المركبة، أن هذا الطريق الذي يسلكه لن ينتهي أبداً، وكأن المكان الذي يقصدانه يفرّ من أمامهم هارباً، ويأبى استقبالهم.

ولكنه حاول كسر ذلك الملل الذي كان يشعر به، بأن يراقب ظلال الأشجار السامقة على جانبي الطريق، وتخيل أن الشمس تمارس معه لعبة الاختباء، حين تتوارى خلف أغصان الأشجار، ومن ثم تعاود للظهور من بين فراغاتها مرّة أخرى، في حركة مشاغبة.

شعر بأنها وسيلة غبية لتمضية الوقت، ولكن لم يكن يمتلك وسيلة أخرى ليبدد الملل.

وحين بدأت المركبة بالانعطاف، وأخذت في التهدئة من سرعتها؛ أدرك بأنهم قد بلغو مقصدهم أخيراً، والآن سيتوصل لاكتشاف حل لذلك اللغز الذي بدأ منذ الصباح الباكر، ولا يزال مجهولاً حتى الآن.

ذكر أن المركبة دخلت بهم إلى ساحة أحد المباني الذي يتكون من عدة طوابق، دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن ماهيته، وواجهة المبنى يشبه الغربال لكثرة النوافذ المفتوحة إلى الخارج على مصراعيها، وكأن من يسكن بداخل تلك المباني؛ ما هي إلا أزهار دوار الشمس التي تتوق للضوء، وتخشى أن تذبل وتموت اختناقاً خلف النوافذ الموصدة.

ترجل الجميع من المركبة، وطلب هشام من محسن أن يتبعه إلى الداخل.

خطى محسن خطواته الأولى خلف هشام باتجاه الداخل، وبعد البوابة الرئيسية؛ كانت هناك ردهة واسعة مفتوحة نحو الأعلى، وكأنها ساحة داخلية تطل عليها جميع غرف المبنى.

كان يتردد في المكان أصوات أطفال كثيرين، منهم من كان يردد بعض العبارات باستمرار، وهناك أصوات مجموعات أخرى كانت تقوم بأداء بعض الأناشيد مع صوت الموسيقى.

ذكر الأستاذ محسن أن انتظارهم لم يطل في تلك الردهة، فسرعان ما تقدمت نحوهم سيدة في الأربعين من عمرها،

قصيرة الطول، ممتلئة الجسم، تتدلى على صدرها نظارة معلقة بسلسال.

توجهت السيدة نحو هشام وسألته عن سبب حضوره، فألقى عليها هشام التحية، وسألها عن مكتب السيدة فريدة؟ فردت السيدة بأنها هي فريدة.

وهنا قام هشام بتحيتها مرّة أخرى، وأخبرها بأنه هشام؛ الذي حدثها عنه السيد ماجد، وأخبرها بأن السيد ماجد يكون عمه وشقيق والده المرحوم، وقد جاء بناء على الموعد، وأنه يصحبني معه.

نظرت السيدة فريدة بتمعن نحو الطفل محسن، وطلبت منهم أن يتبعانها إلى مكتبها.

دخل الجميع، وجلس محسن وهشام على الأريكة الموجودة في مكتبها، وقامت السيدة فريدة بمناولة هشام بعض الأوراق؛ وطلبت منه التوقيع عليها.

دار بينهم حديث مقتضب وسريع، ولم يدرك محسن حتى الآن ما لذي كان يجري، رغم أنه ومنذ دقائق كان يشعر

بأنه أخيراً سيتوصل لحل رموز هذا اللغز الذي بدأ معه منذ الصباح.

انتهى الحوار بين السيدة فريدة وهشام، وهم الثاني بالنهوض لمغادرة المكان، وتوقف للحظة أمام محسن وقال: **"ستمكث هنا لعدة أيام.. وسآتي لاصطحابك مجدداً بعدها.. وأنا أطلب منك أن تكون ولداً مهذباً.. وألا تتسبب بأي إزعاج للمتواجدين بالمكان"**

لم يهمس محسن بكلمة واحدة، وذلك لأنه لم يعتد أن يتلقى أي إجابات على أسألته من هشام منذ الصباح، وكذلك لم يكن يوماً يشعر بعاطفة الأخ الأكبر من هشام تجاهه.

وذلك لم يعني أبداً بأنه كان يشعر بالارتياح جرّاء ما يحصل، ولكن لم يكن بوسعه السؤال، أو حتى الاعتراض، وذكر أنه اكتفى بهز رأسه كتعبير عن الموافقة.

خرج هشام من المكان، وما هي إلا دقائق معدودة حتى دخل السائق حاملاً الحقائب، ووضعها بجوار الباب وانصرف.

جلس محسن على الأريكة صامتاً يراقب السيدة فريدة

وهي منهمكة في عملها، دون أن تكلمه بكلمة، وكأنه كان ينتظر ما لذي سيحل به، ويتساءل لمَ هو في هذا المكان أصلاً!

ولكن صمته لم يطل كثيراً، فشعوره بالجوع تجاوز حدود صبر طفل في عمره، مما اضطره للإفصاح للسيدة فريدة عن ذلك، وهو يقول: **"سيدتي.. أنا جائع"**

نظرت إليه السيدة من فوق نظاراتها التي كانت ترتديها، والتي انزلقت حتى طرف أنفها، وكأنها توشك أن تقع، فردت عليه: **"لقد انقضى موعد الإفطار.. وموعد الغداء لا يزال بعيداً"**

فأعاد محسن قولة: **"ولكنني جائع سيدتي"**

شعرت السيدة فريدة بالشفقة عليه، وسألته: **"ألم تتناول وجبة الإفطار في المنزل؟"**

فأجابها محسن: **"لا يا سيدتي"**

فما كان من السيدة فريدة إلا أن نهضت من مكانها، وذهبت خارجاً وغابت لدقائق، وعادت وهي تحمل له بعض الكعك ليتناوله.

هنا توقفت سوسن عن متابعة القراءة، وبدأت تتأمل في تلك الأحداث التي دونها الأستاذ محسن.

وكأنها بدأت تمسك بطرف الخيط أخيراً؛ لتجد ضالتها، وتتوصل إلى المنعطف الذي كان سبباً في كل ذلك الحزن العميق، الذي كان يستوطن أعماق الأستاذ محسن.

فتخلي أخيه هشام عنه بتلك القسوة؛ بالتأكيد ترك في نفسه جرحاً عميقاً ودامياً، وصدمة لطفل بعمره، لم يستيقظ بعد من صدمة فقد والديه، وحقيقة أنه غدا يتيم الأبوين.

كانت الساعة قد قاربت الواحدة صباحاً؛ حين شعرت سوسن بأنها بحاجة لنوم عميق؛ لتتمكن من مواصلة عملها صباح الغد.

فتوجهت إلى فراشها، وكل تلك الأحداث والصور لا تزال تشغل تفكيرها.

الفصل السادس

كانت سوسن تقضي لياليها طوال تلك الفترة في قراءة وتصفح المذكرات، وكل ليلة تقرأ عدة صفحات، وتدون في نوتة خارجية بعض التفاصيل؛ لتعود إليها لاحقاً، حين تبدأ في كتابة المذكرات بطريقة صالحة للنشر.

وقد وصلت لجزء مهم من الأحداث التي عايشها، ومرّ بها الأستاذ محسن في طفولته، وتابعت القراءة من حيث توقفت في الليلة السابقة.

دون محسن في مذكراته؛ كيف قضى ليلته الأولى في أحد الغرف، في ذلك المكان الخالي من أي عاطفة، وهو لم يدرك بعد ماهيته ولمَ هو هنا؟

كانت غرفة صغيرة، وبها سرير مكون من طابقين، ولكن كان هو الساكن الوحيد فيها.

شعر بالوحدة والوحشة، فهو لا يعرف أحداً هنا، وهذه أول مرّة يعيش فيها تجربة أن يتواجد في مكان بمفرده.

انكمش على نفسه، وكأنه يحاول أخذ وضعية الجنين؛ ليشعر بنفس الأمان الذي كان يشعر به في رحم أمه.

بكى بخشوع شيخ ناسك، يبتهل في الليل وحيداً على سجادته، وذاكرته تصور له تلك الوجوه التي يفتقدها، وتلك الملامح الدافئة لأمه وأبيه.

ولكنه كان يعلم أن عودتهم باتت مستحيلة، وبدأ يردد أسم مربيته سعاد، فهي لا تزال حية، وبإمكانها أن تسمع صوته الخافت وتستجيب له، وتأتي لأخذه وإعادته إلى بيته، وإلى حديقته التي زرع في أرجاءها خطواته منذ أن احترف المشي.

اشتاق لصرير عجلات دراجته التي كان يطوف بها في أرجاء الحديقة، اشتاق للفراشات التي كانت تتنقل من زهرة لأخرى من حوله، وهو يركض خلفها ويطاردها من مكان لآخر.

تذكر صوت أمه وهي تناديه: **"محسن.. كفاك لعباً في الحديقة يا صغيري.. ادخل إلى المنزل قبل أن تصاب بضربة شمس"**

تذكر صوت أمه، وهي تجلس بجواره كل صباح وتداعبه بكلمات لطيفة وحانية: **"هيا استيقظ يا صغيري.. محسن لقد تأخر الوقت.. هيا لا تمارس علي دلالك المعتاد.. استيقظ يا محسن"**

دون تلك الكلمات في مذكراته، ثم أتبع يقول إنه شعر لحظتها بجسده يهتز؛ ففزع ونهض فجأة؛ ليجد أحد العاملات تقف أمامه، وتقول له: **"هيا استيقظ يا محسن.. حان موعد طابور الصباح.. يجيب عليك أن تحترم وتلتزم بأنظمة الملجأ.. فهنا نتبع أنظمة صارمة.. ولا نسمح لأحد بتجاوزها"**

وأتبع قائلاً في مذكراته، وهو يصف ذلك الشعور، بالشعور البغيض.

فمنذ لحظات، كان يحلم بصوت أمه الدافئ الذي كان ينساب كالنسيم في عروق جسده، ويلامس الروح بكل الحنان والحب الذي بصوتها لصغيرها، ليستيقظ على صوت إنسانة غريبة تنهره، وتأمره بالاستيقاظ، وبنبرة لا تخلو من التهديد.

كما أنه انتبه جيداً للكلمة التي تلفظت بها تلك العاملة، حين قالت: **"الملجأ"** ليدرك أخيراً أن هذا المكان يطلق عليه

أسم ملجأ، دون أن يعي ما يعنيه الاسم بالتحديد.

ارتدا ملابسه ونزل تلك الدرجات؛ ليصل أخيراً إلى حيث يجتمع كل الأطفال في الساحة.

وقرع بعدها الجرس، ليجد كافة الأطفال يصطفون في صفوف مستقيمة، وقد علم كل واحد منهم الصف الذي ينتمي إليه، بينما هو بقي واقفاً في مكانه، لا يدرك أين يجدر به الوقوف.

انتبهت إليه السيدة فريدة من بعيد، وأشارت إليه أن يقف في أحد الصفوف الطويلة تلك.

أدرك حينها، أنه بات ينتمي إلى هذه المجموعة من الأطفال، وأن عليه الوقف في هذا الصف كل صباح، إلى حين عودة هشام لأخذه مرّة أخرى، فهو لا يزال يحتفظ بهذا الأمل، ويتطلع لعودته إلى المنزل مرّة أخرى.

بعد أن انتهى طابور الصباح؛ توجه جميع الطلاب إلى مطعم الملجأ لتناول وجبة الإفطار، ومن ثم إلى الفصول الدراسية.

لم يتمكن محسن من كسر تلك الحواجز بينه وبين بقية الأطفال بسهولة، فهو هادئ الطباع، وخجول إلى حد ما، ولم يكن ليبادر بالحديث مع أحدهم دون وجود سبب يدفعه لذلك.

في منتصف اليوم الدراسي؛ تسلل محسن متوجهاً لمكتب السيدة فريدة، فوجدها تجلس على مكتبها، ومنهمكة في إنجاز بعض الأعمال، فألقى عليها تحية الصباح بلطف.

فردت عليه: **"صباح النور يا محسن.. نعم يا صغيري.. ما الذي أتى بك إلى مكتبي.. يجدر بك البقاء في فصلك!"**

فقال لها: **"هل بإمكانك الاتصال بأخي هشام لسؤاله متى سيعود لاصطحابي مجدداً إلى منزلنا؟"**

أدركت السيدة فريدة ما كان يشعر به محسن، وأن عليها منحه بعض الشعور بالاطمئنان، حتى لو تطلب الأمر أن تنسج له كذبة ليشعر بذلك.

فنهضت من مكتبها، وتوجهت نحوه وأجلسته على الأريكة، وجلست بجواره، وبدأت تحدثه بهدوء: **"لقد أتصل بي أخوك هذا الصباح.. وأخبرني بأنه سيتأخر لعدة أيام أخرى.. دون أن**

يحدد لي موعداً لعودته.. كما طلب مني أن أعتني بك جيداً.. لأنه لا يريدك أن تنزعج بسبب تواجدك معنا.. كما ينبغي عليك أن تحاول تكوين صداقات مع زملاءك.. لتتمكن من قضاء وقتك هنا.. ريثما يعود هشام لأخذك"

مرت الأيام، ومن ثم تحولت إلى أسابيع، وهو بانتظار أن تنقضي، ويعود هشام ليعيده إلى المنزل، وهو لايزال يتردد باستمرار على مكتب السيدة فريدة، ولا يكف عن السؤال عن موعد عودة هشام.

وفي كل مرّة، كانت السيدة فريدة تسرد له قصة، وعذر مختلف.

حتى بدأ يدرك، بأن كلمات هشام له، لم تكن سوى تلك الكذبة التي اعتاد الكبار على نسجها؛ لإقناع أحد الصغار بالبقاء، حين يودون الرحيل عنهم.

بدأ يشعر بأن هذا الملجأ سيكون منزله لفترة أطول مما كان يعتقد أو يتأمل، وربما إلى الأبد.

شعر بالخذلان العميق بسبب تخلّي هشام عنه، وتركه بهذه القسوة، ودون مبرر مفهوم بالنسبة إليه، وكان مطلوباً منه تقبل الأمر الواقع الذي فرض عليه.

بدأ بالتفاعل مع محيطه، وتكوين بعض الروابط مع الأطفال الذين يشاركونه نفس الظروف الحياتية في المكان.

فكل منهم له قصة لم يرويها لأحد، وربما لا أحد منهم يمتلك قصة حقيقية ليرويها لأحد، سوى أنه أحد النزلاء في هذا الملجأ الذي يشكل ماضيه وحاضره.

أما الأحلام والطموحات والمستقبل؛ فهي مصطلحات لا تزال بعيدة عن خيال طفل لم يدرك من الحياة سوى الحوائط والأبواب الموصدة، والتي تحول بينه وبين العالم.

كانت هناك طفلة اسمها بتول غنام، تصغره بقليل، وتشاركه نفس الفصل، ومع الوقت باتت هي الأقرب بالنسبة إليه، ويقضيان سوياً اليوم بأكمله في اللعب والحديث.

لاحظت سوسن أثناء قراءتها في هذا الجزء، كيف تحدث

الأستاذ محسن عن صديقته بكثير من العاطفة والحنين، وتساءلت هل لها أن تعتقد أن هذا ما يمكننا تسميته بأول حب في حياة الأستاذ محسن!

استمر الأستاذ محسن في سرد التفاصيل الصغيرة في مذكراته، حول اللحظات التي كان يقضيها برفقة بتول، وكأن تلك الذكريات لا تزال محفورة في ذاكرته، ومستعصية على النسيان.

ولم يهمل ذكر بعض الحوارات التي دارت بينهم بشكل مفصل كلمة، كلمة، وكان يتذكر اسمها بالكامل، وحتى بعض فساتينها التي ارتدتها في الحفلات التي كان يقيمها الملجأ من حين لآخر، ويستمر في وصفها، وكيف كانت تبدوا بالنسبة إليه كملاك، لا ينتمي إلى بيئة الملجأ.

ولم تكن تلك بسبب ذاكرة الطفل التي تحتفظ بالذكريات بشكل جيد، ولكن هي مسألة تعود لتعلقه بها، وعدم قدرته على النسيان.

الفصل السابع

رحيل صامت

تعد البلدة التي تعيش فيها سوسن بلدة زراعية، وتحيط بها المزارع من كل الجهات.

وقد اعتاد سكان البلدة الاحتفال بحلول الربيع في هذا التاريخ من كل عام، كتقليد متوارث منذ أجيال، ويصاحب هذا الاحتفال عدد من الفعاليات والمهرجانات، ويتفرّغ الجميع في البلدة للاستمتاع بهذه العروض الترفيهية، والتي تستمر لمدة ثلاثة أيام.

كان يتوجب على سوسن بصفتها صحفية؛ تغطية تلك الاحتفالات بشكل مكثف طوال مدة المهرجان، مما يعني انشغالها بشكل كبير على مدار اليوم، ولا يترك لها متسع كبير من الوقت لمواصلة قراءتها للمذكرات.

كانت سوسن تبدأ عملها من الصباح الباكر، وحتى وقت متأخر

من الليل، برفقة مصور الصحيفة.

وتضطر بعدها للعودة إلى مكتبها لتحرير الأخبار وصياغتها بشكل لائق، لتكون جاهزة للنشر في الصحيفة صباح اليوم التالي.

ولم يخلو الأمر من بعض ساعات المرح التي كانت تقضيها سوسن برفقة صديقتها ليلى، وكانت ليلى تشعر بأن المهرجان كان فرصة مناسبة؛ لتحظى سوسن بوقت ممتع، قد يساعدها في الخروج من حالة الحزن التي كانت تعيشها بسبب رحيل الأستاذ محسن، وكانت تسعى بصدق لفعل ذلك.

انقضت تلك الأيام الثلاثة، وعادت الحياة لطبيعتها في البلدة، مما سمح لسوسن للعودة لمواصلة قراءة المذكرات من جديد.

وقد تجاوزت في قراءتها الآن؛ تلك المرحلة الأولى التي تلت دخول محسن إلى الملجأ، وكيف تمكن بعد فترة من الزمن من التأقلم مع محيطة.

كان يحظى محسن بمحبة الجميع كما ذكر، وأشار بأن

مديرة الملجأ السيدة فريدة؛ كانت سيدة طيبة ومحبة، ومخلصة في أداء واجبها كمربية، ولكن، لم يكن بالإمكان بأي حال أن تمنح عنايتها بشكل كافي لهذا العدد من الأطفال المتواجدين بالملجأ، والذين هم بحاجة للعاطفة كأي طفل بالتأكيد.

استرسلت سوسن بالقراءة، والاطلاع على التفاصيل التي كان الأستاذ محسن يرويها في مذكراته، وكان لصديقته بتول النصيب الأكبر من تلك التفاصيل، دون أن تكون هناك أي أحداث مهمة أو ملفتة، حتى بلغ الحادية عشر من عمره.

أي بعد مرور سنتين على تواجده في هذا المكان.

ذكر أنه في صباح أحد أيام العطلة المدرسية؛ نزل إلى ساحة الملجأ كعادته في كل صباح، وبدأ في البحث عن صديقته بتول، ولكنها تأخرت في هذا اليوم على غير عادتها.

فأنظمة الملجأ تحتم على الجميع الاستيقاظ في ساعة محددة، حتى في أيام الإجازات، كما أن بعض الأنشطة التعليمية كالدروس الموسيقية كانت تستمر بشكل منتظم طوال العام.

مضى بعض الوقت، وهو يجلس بانتظار أن تأتي

بتول إليه كعادتها، ولكن، بعدها رآها من بعيد، وهو تسير برفقة رجل وامرأة، وكانا يسيران بها باتجاه البوابة الرئيسية المؤدية للخارج.

وهنا لمحت بتول محسن من بعيد، ونظرت إليه بنظرات لم يتمكن من تفسيرها، ومن ثم لوحت إليه بيدها مودعة، وخرجت من الباب.

تسائل محسن عن هوية ذلك الرجل وتلك المرأة، وإلى أين كانا يصحبانها!

مضت عدة ساعات وهو في انتظار عودة بتول، وحل مساء ذلك اليوم وهو منشغل التفكير، والتساؤلات تملأه، وينتظر أن يحل صباح اليوم التالي، علّه يجتمع ببتول مجدداً، ويتمكن من سؤالها أين كانت.

حل الصباح، ولكن لم يكن يحمل أي جديد، فلا تزال بتول غائبة.

بحث عن صديقاتها اللاتي كانت تقضي معهن بعض الوقت،

ولكن لم يكن لديهن أي إجابة أو تفسير.

توجه محسن إلى مكتب السيدة فريدة، دخل وألقى عليها تحية الصباح.

ردت عليه التحية، وسألته عن سبب قدومه إليها؟

فأجاب: **"أتيت إليك سيدتي لأسأل عن بتول.. فقد رأيتها بالأمس تخرج برفقة رجل وامرأة.. ولم تعد حتى الآن!"**

فأجابته السيدة فريدة بأنها قد رحلت بصحبة والديها.

تعجب محسن من الأمر، فقد كانت بتول تخبره بأنها لم ترَ والديها أبداً، ولا تعرف عنهم شيء، فطرح تساؤله على السيدة فريدة: **"ولكنها أخبرتني سابقاً بأنها لا تعرف والديها!"**

فردت عليه السيدة فريدة: **"بل هم كذلك يا محسن"**

صمت قليلاً، ثم عاود السؤال: **"إذا كانا والديها.. لمَ تركوا ابنتهم كل هذه السنوات في هذا الملجأ، وتخلوا عنها.. أهما سيئين كأخي هشام.. هل كل الكبار بهذه القسوة!"**

عندها أدركت السيدة فريدة الحيرة التي يشعر بها محسن،

وربما عليها إخباره بالحقيقة، حتى لا تترسخ لديه مشاعر سيئة تجاه معنى العائلة، وترتبط في ذهنه بصورة سلبية تمثل القسوة والخذلان.

اقتربت منه وقالت: **"في حقيقة الأمر هم ليسوا والديها.. ولكنهم رغبوا في تبنيها.. ومنذ هذه اللحظة هم أصبحوا عائلتها التي ستعيش معهم في منزلهم"**

فتساءل محسن: **"وهل يحق لأي أحد.. أن يأتي إلى هنا ويأخذ أي طفل منا.. وهل من الممكن أن يحصل ذلك لي أنا أيضاً!"**

أجابته فريدة، بأن ذلك لن يحصل دون موافقته بالتأكيد.

رد محسن: **"هل يعني ذلك.. أن بتول وافقت على المغادرة معهم!"**

فردت عليه السيدة فريدة: **"بالطبع.. ولا يمكننا إجبار أحد منكم على المغادرة مع أحد.. دون موافقته"**

صمت محسن طويلاً، وكانت علامات الاستياء بادية عليه بكل وضوح، مما جعل السيدة فريدة تشعر بما كان يشعر به محسن، فبادرته بالسؤال: **"ما بك يا محسن؟.. تحدث إلي يا صغيري"**

ولكنه رفض الحديث في الأمر، واستأذنها في المغادرة.

كانت مغادرة بتول بهذا الشكل، مؤلمة بالنسبة له، فهو الآن يشعر بأنها غادرت بملء إرادتها، ودون أن تفكر في وداعه، وذلك بالطبع جعله يشعر بدرجة من الخذلان، وكان يتساءل في داخله، كيف كان بإمكانها أن تفعل ذلك!

لمَ لم ترفض المغادرة! ولم تفضل البقاء معه!

شعر وكأنه عاد وحيداً مجدداً، مع شعور مؤلم بالفقد والتخلّي.

بعد عدة أيام، عاد محسن لزيارة السيدة فريدة في مكتبها، وسألها هل من الممكن أن تعود بتول يوماً ما لزيارته؟

فردت عليه السيدة فريدة: **"ربما ستفعل.. ولكن لا أتوقع أن يكون ذلك في وقت قريب.. فهي قد انتقلت مع عائلتها الجديدة للعيش في بلدة أخرى.. تبعد عن العاصمة بضع مئات من الكيلو مترات.. ولكنها حتماً ستأتي لزيارتك مجدداً.. كما يجدر بك أن تشعر بالسعادة من أجلها.. فهي الآن تحظى بعائلة وبمنزل.. وبالتأكيد أنها سعيدة في حياتها الجديدة"**

أدرك محسن مع مرور الوقت، أنه ربما قد يكون فقد بتول إلى الأبد، لأنه بات يعي الآن ما يعنيه الرحيل، وأن الراحلين لا يعودون أبداً، وأن من أمكنه الرحيل، يمكنه أن يفعل ذلك إلى الأبد.

ولكن ظلت تلك الصورة لا تفارق مخيلته، حين لوحت إليه بتول بيديها مودعة، ولحظة استدارت عند بوابة الخروج، وكيف استدار شعرها الطويل المنساب على ظهرها خلفها.

كانت تلك هي آخر ما لمحه منها، وكانت تلك هي أخر مرة يراها فيها.

الفصل الثامن

إشراقة صباح

بعد ذلك الفقد الذي شعر به محسن، والوحدة التي رافقته لسنوات، لم يكن لديه الكثير ليقوله في مذكراته.

فحين يفقد أحدهم لذة الحياة، لا يعود يهتم بالتفاصيل كثيراً، ويكون ذلك أصعب حين يسكن الشعور بالفراغ داخل طفل، لم يتجاوز الثانية عشر من عمره.

فالطفل عادة يسعى من خلال فضوله وأسئلته المزعجة إلى اكتشاف العالم من حوله، والتعرف عليه، وذلك يحمل له في كل إجابة جديدة معرفة جديدة، ما يمنح الطفولة متعتها.

أما حين ينغمس طفل في نفق البحث عن المبررات والمسوغات؛ فهو بذلك يكون قد بلغ بؤرة البحث عن حقيقة الحياة، وفلسفتها منطقيا.

وحين تكون غير متماشية مع المنطق؛ يتحول من الفضول

المؤدي إلى المتعة؛ إلى الفضول الذي يؤدي بصاحبه إلى المتاهات.

وهذه المرحلة لم يكتب عنها الكثير، أو بتعبير أدق لا شيء تقريباً، مما جعل سوسن تعتقد، بأنه كان يحيى حياة رتيبة في وسط رتيب، خالي من أي روح.

واكتفى بذكر أنه قد أنهى دراسته في المرحلة الابتدائية، وانتقل للمرحلة المتوسطة.

وكان عليه الآن، الانتقال كذلك من المبنى الذي سكن فيه طيلة السنوات الثلاث الماضية، إلى جناح آخر من نفس الملجأ، والذي يتم فيه الفصل بشكل أكبر بين الجنسين.

استمرت حياته برتم باهت، أبعد ما يكون عن حياة الأحياء، ومرت السنة تلو الأخرى، وهو يجتاز من مرحلة دراسية إلى أخرى.

في بداية السنة التي التحق فيها بالصف الثاني ثانوي، ذكر أنه لمح وجهاً جديداً ضمن فريق المعلمين في الملجأ.

فعادة ما يتنقل المعلمون في نهاية كل عام دراسي بين المدارس، فيرحل بعضهم، ويحل محلهم آخرون.

ومنذ أن أصطف صباح ذلك اليوم في الطابور، لم يتمكن من إشاحة نظره عن تلك الآنسة التي تقف بجوار السيدة فريدة.

شعر بفضول كبير تجاهها، من تكون؟ ما اسمها؟ ما هي المادة التي ستقوم بتدريسها للطلاب، وهل سيكون فصله من ضمن الفصول التي ستقوم بتدريسهم؟

كانت الآنسة هند، شابة تبلغ الثامنة والعشرين من عمرها، وذات ملامح لطيفة، وشعر قصير بالكاد يلامس كتفها.

ضل يراقب كل تحركاتها، ولفتاتها، وابتسامتها الرقيقة التي زادت صباح ذلك اليوم بهجة، وكأن وجهها زهرة ربيع تتفتح على شرفة منزل ريفي، ويكاد ندى الصباح يلتصق ببتلاتها، وهو من مكانه يشم عطرها وأنفاسها.

بدأ اليوم الدراسي الأول، وهو غير قادر على التفكير في أي شيء آخر، وكأن تلك الملامح انسدلت كالستار أمام ناظريه؛ فحجبت عنه العالم بأسره.

مضت عدة أيام منذ بدأ العام الدراسي، ولا شيء يشغل تفكيره سوى تلك الآنسة الجديدة.

وكلما مرّت بالقرب منه، أو لمحها من بعيد، شعر بقلبه يخفق، ويكاد يمزق سترته ليحلق نحوها، وهي تمرّ بالقرب منه دون أن تشعر بوجوده.

فهو طالب ضمن عدد كبير من الطلاب، وكيف لها أن تميز أحدهم من بين كل هؤلاء!

وبعد أن مضى أسبوعان على بدأ العام الدراسي، بدأ يفقد الأمل في أن تكون تلك الآنسة إحدى معلمات فصله، وكذلك شعر بالخجل من أن يسأل عنها أي أحد؛ كي لا يلفت الانتباه لنفسه، وباهتمامه بها.

ذكر الأستاذ محسن، بأن إدارة الملجأ قررت أن تنظم رحلة للطلاب، إلى المتحف الوطني للفن التشكيلي بالعاصمة.

وهو متحف يعنى بعرض اللوحات والأعمال الفنية المتميزة، ذات القيمة العالية، لفنانين من داخل البلاد وخارجها،

ويحظى باحترام عالمي نظراً لمكانته الفنية، واقتنائه لمجموعة رائعة من أعمال كبار الفنانين.

وأعلنت إدارة الملجأ بأن العدد المتاح للتسجيل محدود، وعلى الطلاب الراغبين في الالتحاق بالرحلة تسجيل أسمائهم.

أوضح الأستاذ محسن أنه لم يشعر حينها برغبة في الذهاب، ولم يسترعي الأمر اهتمامه.

وفي صباح اليوم المحدد للرحلة، اجتمع كافة الطلاب الذين قاموا بتسجيل أسمائهم في القائمة سابقاً في الساحة الخارجية للملجأ، بجوار الباص المحدد لنقلهم.

بينما أخذ بقية الطلاب بمتابعتهم من نوافذ الفصول، والتصفيق والصفير، كعادة الطلاب في هذا العمر.

قام محسن من مكانه الذي يجلس فيه ليلقي نظرة هو الآخر على ما يجري بالخارج.

تفاجأ حينها، أن الآنسة مجهولة الاسم، هي من سترافقهم في هذه الرحلة، وشرح كيف أن صدمته كانت كبيرة، وكيف شعر

بندم شديد لأنه تخلف عن تسجيل اسمه ضمن قائمة الراغبين في الذهاب.

وما عساه أن يفعل الآن!

فقد تم الإعلان سابقاً بأن العدد المتاح للمشاركة محدود، وذلك بما يتناسب وعدد المقاعد في الباص الذي سيقوم بنقلهم، وضل متسمراً في مكانه للحظات، وهو يتساءل هل من سبيل إلى الانضمام إليهم الآن!

فما كان منه إلا اندفع فجأة، وخرج راكضاً خارج الفصل، واستمر بالركض في الممرات، ونزل من تلك الدرجات المؤدية إلى الأسفل وهو يقفز الثلاث والأربع درجات في خطوة واحدة.

توجه نحو الباب الرئيسي المؤدي إلى الساحة الخارجية، وركض بسرعة نحو الباص، وهو يرى من البعيد الطلاب وهم يصعدون إلى الباص استعداداً للرحيل.

وصل إلى حيث يقف الباص، وهو لا يكاد قادراً على التقاط أنفاسه التي أنهكت من الركض، ليجد السيدة صباح

أحد المشرفات بالملجأ واقفة هناك، فالتفت إليه وسألته: **"هل أسمك مسجل في القائمة؟"**

فرد عليها: **"لا يا سيدتي.. لقد فاتني تسجيل اسمي.. ولكني أرغب بشدة للانضمام إليهم"**

وللأسف كانت السيدة صباح من أكثر الشخصيات المنبوذة من جميع الطلاب، نظراً لقسوتها، وطبيعتها المتعجرفة، فأجابته بأن ذلك غير ممكن الآن.

وبدأ محسن بالتوسل إليها لتسمح له بصعود الباص، وهي متمسكة برأيها، وتأمره بالعودة إلى مقعده في الفصل.

هنا، انتبهت الآنسة هند من داخل الباص إلى ما كان يجري بالخارج، فنزلت لتستعلم عن الأمر.

وبمجرّد أن رآها؛ لم يعد قادراً على النطق بكلمة واحدة، خجلا من التوسل إلى أحد أمامها.

توجهت الآنسة هند بسؤال السيدة صباح: **"ما الأمر سيدة صباح.. هل من مشكلة!؟"**

فردت عليها بأن لا تشغل بالها بالأمر.

فالتفتت الآنسة هند حينها إلى محسن وسألته بلطف: **"ما الأمر؟"**

وهنا، احمر وجه محسن خجلاً.

فهذه هي المرّة الأولى التي تنتبه لوجوده، لا بل وتقف وتتحدث إليه.

شعر حينها بأنه قد نسي مفردات اللغة التي يتحدثها، وبات عاجزاً عن النطق ولو بكلمة.

فعاودت سؤاله للمرة الثانية، ولكنه ضل صامتاً ينظر إليها فقط.

وهنا تدخلت السيدة صباح، وقالت: **"إنه يريد الانضمام للرحلة.. وقد اكتمل العدد.. ولم يعد هناك متسع من المقاعد يا آنسة هند"**

نظرت إليه الآنسة هند بلطف، وسألته: **"هل أنت راغب في مرافقتنا فعلاً؟"**

لم يتمكن من الرد، واكتفى بهزّ رأسه بسرعة تنم عن مدى لهفته لمرافقتهم.

ابتسمت الآنسة هند ابتسامتها التي جعلته يكاد يشعر بأنه سيقع مغشياً عليه، وقالت: **"حسنا"**

وخاطبت السيدة صباح وقالت لها: **"لا عليكِ.. سأجلسه على مقعدي"**

والتفتت إليه وأمسكت بيده، وسحبته وراءها وهي تقول له: **"تعال"**

لم يصدق ما كان يجري.

أ يعقل أن يحظى بكل هذا اللطف من الآنسة هند في موقف واحد، يقف أمامها وتخاطبه، وتبتسم له وتمسك بيده**!** هل يعقل أن يكون ذلك واقعاً يعيش فيه، أم أنه مجرّد حلم**!**

صعد خلفها، وبمجرد صعوده لأول درجة من درجات الباص، تعثر ووقع.

وهنا أيقن بأن ما يحصل له حقيقة، يمكن الإحساس بها من خلال الألم الذي شعر به في ركبته، جرّاء السقطة.

وبمجرّد صعوده الباص، طلبت منه الآنسة هند

أن يجلس بالمقعد الوحيد المتاح، والذي كان يفترض به أن يكون المقعد المخصص لها.

تحرّج من الجلوس، واعتذر لها، وطلب منها أن تجلس هي على المقعد، وهو سيظل واقفاً.

فابتسمت له ابتسامة مشاكسة، وقالت: **"ربما كان ذلك ممكناً قبل أن تصاب ركبتك بأذى.. ولكن ركبتك قد تأذت جرّاء السقطة.. وعليك الجلوس"**

أغلق السائق باب الباص استعداداً للسير.

وذكر كيف أن السيدة صباح وقفت تتمتم بكلمات غير مفهومة، معبرّة عن غضبها مم حصل.

الفصل التاسع

ولادة الشغف

طوال الرحلة، كانت الآنسة هند تقف في رأس الممر الفاصل بين المقاعد، وتستند بيديها على جانبي الممر، وهي تقدم لهم شرحاً عن المتحف الذي هم في الطريق لزيارته.

كان كلامها هادئاً ومتزناً، وتنتقي عباراتها وكلماتها بشكل ملفت، وتتحدث بطريقة تنم عن لباقة عالية.

بينما كان محسن طوال الطريق، يحدق إلى الآنسة هند باهتمام كبير، ويتأمل ملامحها الهادئة، وابتسامتها الرقيقة.

وربما بات ينظر إليها دون أن يعي كلمة مما كانت تقوله، وتذكر أنها التفتت إليه فجأة أثناء حديثها وهو سارح بخياله فيها.

ويبدوا أنها تعجبت من نظرته، وسألته ما بك؟

حينها أنتبه، وشعر بارتباك، واعتدل في جلسته،

وكأنه يتابع حديثها بعناية.

ويعترف في مذكراته أنه لا يتذكر شيئا مما كانت تقوله.

بعد ٤٠ دقيقة من انطلاقهم، وصل الباص إلى المتحف، وتوقف في الفناء الخارجي.

كانت الآنسة هند أول المترجلين، وتوقفت عند باب الباص، تتابع نزول الطلاب واحداً تلو الآخر، وحين هم محسن بالنزول، مدت يدها باتجاهه، وسألته: **"هل تحتاج لمساعدة؟"**

فالتفت إليها -وذكر كيف شعر بالحرج منها- واكتفى بابتسامة، وشكرها.

كان المتحف عبارة عن مبنى مهيب، بارتفاع ثلاثة طوابق، ويتميز بتصميم فريد، يليق بالهدف الذي شيد من أجله، ويجسد البعد الثقافي والفني للمكان، ويضم عدداً من الأجنحة والأقسام، كما يحتوي على مسرح كبير، وقاعات متعددة.

تقدم الجميع نحو المدخل الرئيسي للمبنى، وكان هناك أحد منسوبي المتحف باستقبالهم عند المدخل.

وبمجرّد تقدمه بضع خطوات داخل المبنى؛ شعر محسن بشعور غريب.

شعر وكأنه ينتمي لهذا المكان بشكل أو آخر.

فأول ما لفت انتباهه، هو الهدوء الذي كان يسود المكان، هذا الهدوء الذي لم يكن لينعم به في بيئة الملجأ المليء بالصخب.

بهره المكان بشكل كبير.

تلك الواجهات الزجاجية الواسعة، والتي تسمح لضوء النهار أن يقتحم كل تلك المساحات الواسعة.

وتلك النباتات المتسلقة في الزوايا التي لا تتمكن أشعة الشمس من الوصول إليها.

وكأن من وضع التصميم كان يعي تماماً كيف يبث الروح في كل متر مربع داخل هذا البناء.

ونافورة الماء تلك التي تتوسط البهو الكبير في المنتصف، وكأنها واحة تعزف سنفونيتها من خلال التدفق الهادي لنبع ماء.

كان محسن يسير خلف الآنسة هند أثناء تجولهم في الأجنحة،

ويستمع بعناية للشرح الذي يقدمه لهم المرشد بالمتحف عن كل لوحة وكل قطعة فنية، ولاحظ تفاعل الآنسة هند بشكل ملفت مع ما تستمع إليه، وكل تلك التلميحات التي تعقب بها على المعلومات المقدمة لهم.

استمرت تلك الزيارة لثلاث ساعات، استمتع خلالها بمشاهدة كل شيء، للحد الذي تمنى معه ألا يعود مجدداً إلى الملجأ، وإلى بيئته الملوثة بالضجيج.

ذلك المكان ترك أثراً بالغاً في نفس محسن، فكل ما شاهده في المكان كان يمثل قيمة وفناً راقياً، لم يعتد أن يراه داخل الملجأ.

انطبعت بضع أسماء في ذاكرته للفنانين الذين أبدعوا كل تلك التحف الفنية، والطريقة التي كان يتحدث بها الجميع عن هؤلاء المبدعين.

وفي طريق العودة، جلس محسن في نفس المقعد الذي كان مخصصاً لجلوس الآنسة هند، وبدورها كانت تقف في نفس المكان، وبنفس الطريقة.

نظر نحوها محسن والفضول يملأه تجاهها، وقد كان فضوله وإعجابه قد تعاظم بعد أن لاحظ ثقافتها العالية في المجال الفني، فبادرها بالقول: **"هل تسمحين لي بالسؤال آنستي"**

التفتت إليه الآنسة هند بطريقتها اللطيفة، وقالت: **"بالتأكد تفضل يا محسن"**

سأل محسن: **"ما هي المادة التي ستقومين بتدريسنا إياها بالملجأ آنستي؟"**

ردت هند: **"أنا معلمة مادة الرسم.. ولكني اكتشفت أن الملجأ كان يفتقر لقاعة مخصصة لذلك.. كما لا توجد أي تجهيزات لهذا الغرض.. ولكن خلال أيام قليلة سننتهي من كل ذلك.. وسأباشر عملي في تعليم الرسم للراغبين في تعلمه"**

أنهت كلامها، وضل محسن صامتاً ينظر إليها دون أن يتفوه بكلمة، فباردت هي بسؤاله هذه المرّة: **"هل ترغب في تعلم الرسم؟"**

وكأنها أخرجته حينها من مأزق الطلب، فرد بحماس شديد، أنه بالفعل متحمس لتعلم الرسم.

وطوال طريق العودة، دار بينهم حديث حول الفن، والرسم، واللوحات.

وكان محسن خلال ذلك، يعبر عن مدى دهشته بهذا الفن الذي اكتشف روعته منذ قليل، وبدورها هي، لمست فيه ذلك الشغف الذي بدأ بالتنامي في أعماق هذا المراهق.

فكثير من المواهب تبدأ بالظهور في هذه المرحلة من العمر، وإن تمت رعايتها والاعتناء بها؛ قد تشكل مستقبل الإنسان.

وهند كانت مدركة لذلك، وربما هي شعرت بحسها بأن هذا المراهق قد يصبح يوماً ما، أحد الأسماء الكبيرة في عالم الفن، فعادة ما يبدأ النجاح بحلم.

مساء ذلك اليوم، لم يتمكن محسن من النوم مبكراً، وظل طوال الليل يستعيد كل تلك اللحظات الرائعة التي جمعته بالآنسة هند، وتلك الأحاديث التي دارت بينهم، وهو من كان يحلم منذ أيام؛ لمجرّد أن تلتفت إليه، أو أن تشعر بوجوده على الأقل، وها هو الآن يحظى بتلك الفرصة، والتي قد تساعده

في كسر ذلك الحاجز بينه وبين الآنسة هند، ويتمكن من التواجد بالقرب منها أكثر.

مرّت عدة أيام على تلك الرحلة، وفي صباح أحد الأيام توجه محسن إلى المكتب الذي اعتادت الآنسة هند الجلوس فيه.

طرق الباب بهدوء، وتقدم بخجل نحوها وهي تجلس.

انتبهت هند لدخوله ورحبت به.

توقف قليلاً، ثم بادر بسؤالها: **"لقد جئت إليك آنسة هند لسؤالك.. كم من الوقت قد تبقى على اكتمال قاعة الرسم والتجهيزات؟"**

نظرت إليه وابتسمت، ونهضت من مقعدها فجأة وأمسكت بيده، وسحبته خلفها.

مشت خلال الممرات بشكل أقرب ما يكون إلى التحليق في السماء، ومحسن يحاول مجاراتها في سرعة خطواتها،

وهو يشعر بالحرج، وغير مدرك إلى أين كانت تصحبه خلفها.

إلى أن وصلا إلى أحد الأماكن التي كانت تستخدم كمخزن سابقاً للملجأ، وفتحت الباب ودخلت، ومحسن خلفها، وهي لا تزال تمسك بيده.

قالت له: **"أنظر"**

تقدم محسن عدة خطوات إلى الداخل، وهو يتلفت من حوله ليرى كل تلك التجهيزات الموجودة بالقاعة.

طاولات طويلة، وعدد من الكراسي، وعدد من المنصات التي يستخدمها الرسامون لتثبيت اللوحات أثناء قيامهم بالرسم، وعدد كبير من الألوان وفراشي الرسم.

وقف هناك، وبدأ يعي بأن القاعة قد اكتملت بالفعل، وأنه بات قريباً جداً من الحلم الذي كان يشغل تفكيره منذ أن قام بتلك الرحلة إلى المتحف.

تأمل كل ذلك، ثم التفت نحو الآنسة هند، وملامح وجهه تطرح التساؤل الذي يدور في داخله.

ابتسمت هند، وأخبرته أنهم انتهوا من كل التجهيزات بالأمس فقط، وأن القاعة الآن باتت جاهزة للبدء في تقديم الدروس الفنية.

تقدمت هند بخطوات سريعة نحو أحد الخزائن الموجودة بالمكان، وأخرجت ورقة، وتقدمت نحوه وقالت: **"والآن.. ستكون أنت أول طالب في هذه المجموعة.. هيا أخبرني عن اسمك الكامل؟"**

فأخبرها باسمه كاملاً، ولكنها حين دونت اسمه في القائمة اكتفت بتدوين اسمه الأول والأخير، مسبوقا بصفة (الفنان محسن عبدالمجيد) ثم نظرت إليه وقالت: **"يوماً ما ستصبح أحد الفنانين الكبار في بلادنا.. ولكن لا تنسى أن تدعوني لحضور أول معرض تقيمه"**

قالت له تلك الكلمات وضحكت بطريقة مشاكسة.

ربما كانت الآنسة هند تدرك، أن كلماتها سيكون لها أثر كبير لتشجيع موهبة محسن.

وبالفعل، فقد زرعت كلماتها بداخل محسن البذرة الأولى لفنان،

والتي لا زالت تحتاج للرعاية والتطوير، خاصة أن من قال تلك الكلمات هي الآنسة هند، ولا أحد سواها.

توقفت سوسن عن قراءتها للمذكرات، وبدأت تدرك بان تلك المرحلة من حياة الأستاذ محسن كانت أحد المنعطفات المهمة.

والتي بدأت تشكله كفنان، دون أن تهمل مشاعره تجاه آنسته هند، والتي كانت ربما لا تخلو من الإعجاب والتعلق بها وهو مراهق، وفي عمر يجعله مندفعاً بعواطفه بشكل طبيعي تجاه أنثى بشخصية جميلة مثل هند.

وقد شعرت سوسن بدفء تلك الشخصية وجمالها، من خلال ما دونه محسن عنها في مذكراته، وتساءلت إلى متى استمرت تلك العلاقة التي تربطهما ببعض؟

وهل انتهت بمجرّد خروجه من الملجأ، أم كان لها دور مستمر في حياته؟

فهي لا تذكر أبداً أن الأستاذ محسن حدثها عن آنسته.

وكانت سوسن تتوق لمعرفة هذه التفاصيل في الصفحات المقبلة من المذكرات.

الفصل العاشر

في الصباح، توجهت سوسن إلى مكتبها، وبعد أن أنهت بعض الأعمال لديها، بدأت تفكر بأنه قد حان الوقت لتخاطب إدارة الصحيفة، بخصوص رغبتها في الحصول على زاوية أسبوعية، لتقوم بنشر قصة الأستاذ محسن.

وبالفعل، قامت بعدة اتصالات بهذا الخصوص، وتقدمت بطلب رسمي إلى إدارة الصحيفة، على أمل أن تتم الموافقة على طلبها في أقرب فرصة.

في هذه الأثناء، رن جرس هاتف سوسن، وكانت المتصلة هي صديقتها ليلى، والتي كانت تعاتبها لعدم تواصلها معها لعدة أيام، واعتذرت سوسن بشدة معللة ذلك بانشغالها في الصحيفة، وقراءة المذكرات، فردت ليلى بلهفة، واخبرتها بأنها راغبة بشدة في معرفة التفاصيل التي وجدتها في المذكرات.

فاتفقتا على أن تلتقيا هذه الليلة في أحد مقاهي البلدة.

وبالفعل، توجهت سوسن مساء تلك الليلة للقاء ليلى في المكان المحدد.

قضت سوسن بعضاً من الوقت بصحبة صديقتها ليلى، ثم عادت إلى منزلها لتستكمل قراءة المذكرات من حيث توقفت الليلة الماضية.

بدأت من حيث ذكر الأستاذ محسن في مذكراته كيف أن موهبته أخذت بالظهور والتحسن، خلال فترة قصيرة من بدئه بتلقي الدروس على يد الآنسة هند.

وبدورها، فقد أولت اهتماماً كبيراً تجاه موهبته، وبدأت تحس بشكل أكثر بهذه الموهبة.

كان يصف في مذكراته، كيف أن تلك الساعات التي كان يقضيها في قاعة الرسم مع الآنسة هند، بأنها كانت بمثابة الملاذ للطائر الذي حلق طويلاً حتى أرهقه السفر، ليجد أخيراً غصناً ليحط عليه.

وكيف كان يتلهف لحضور الدروس في قاعة الرسم.

وبدأ شغفه يزداد بهذا الفن؛ كلما تعلم مهارة جديدة، أو أتقن رسم لوحة جديدة.

وكانت كثيراً ما تدور بينه وبين آنسته أحاديث عن الفن، وعن أمور مختلفة في الحياة، والتي ساهمت بشكل كبير في تفتح بصيرته وزيادة وعيه كما ذكر.

وكيف أن أحد تلك العبارات التي سمعها من الآنسة هند ترسخت في ذاكرته، حين قالت: **"الكاميرا (الفوتوغرافية) آلة جامدة.. تلتقط الصورة التي أمامها كما هي.. ولكن الفنان قادر على تلمس الروح في أعماق كل شيء.. وهو قادر على رؤية الروح التي تسكن جسد الإنسان الذي يقوم برسمه"**

كأن محسن يتلقى بالفعل دراسة أكاديمية على يد هند، بحيث بات يلم بشكل كبير بتاريخ الفن ومدارسه، والأسماء الكبيرة المعروفة في هذا المجال.

وبات يفكر بشكل جدي بأن يجعل من الفن هدفه ورسالته

في الحياة، وألا يتوقف عند هذا الحد؛ بل أن يكمل دراسته الجامعية في كلية الفنون.

وفي أحد الأيام، دخل قاعة الرسم، بينما كانت الآنسة هند منهمكة برسم أحد اللوحات، ولم تلحظ دخوله.

كانت نوافذ القاعة مفتوحة بالكامل، وضوء النهار يملأ المكان بطيف من الانعكاسات، والنسيم البارد يتسلل من خلال تلك النوافذ، ويبعث الروح في بعض الأوراق المتناثرة هنا وهناك.

انغمس للحظات في الخيال، وهو يراها تجلس على المقعد المرتفع، وأمامها اللوحة التي تعمل على رسمها.

شعر أن كل الجمال الذي في العالم يمكن اختزاله في هذا الملاك، الذي يجلس بكل تلك الأناقة ويمارس الرسم.

كان تعلقه بها بدأ يفرض نفسه عليه بشكل أكثر وضوحاً، ويدرك مشاعره تجاهها، ولكنه كان يحافظ على تلك المشاعر صامته بداخله.

حينها، قرر محسن أن يخبر الآنسة هند عن طموحة في أن يصبح فناناً تشكيلياً في المستقبل، وأخذ في طرح الأسئلة عليها حول الجامعات التي يجدر به الانتساب لها لإكمال دراسته في الفن.

وكانت هند بدورها، ترد على كل أسألته بشكل مفصل، وتسرد له أسماء الجامعات المعروفة، ورشحت له أسم أحد الجامعات العريقة والتي تسمى (جامعة النخبة) ولكنها أخبرته بأن تكلفة الدراسة ستكون مرتفعة مقارنة ببقية الجامعات، وإدارة الملجأ لن تقبل بتغطية هذه التكاليف.

حيث أن الميزانيات المخصصة للدراسة الجامعية لكل طالب من طلاب الملجأ محدودة.

حينها، رد عليها محسن بأنه سيطالب أخاه الأكبر هشام بأن يمنحه نصيبه من ميراث والده، وبذلك سيتمكن من تجاوز هذا العائق.

نظرت إليه الآنسة هند بتعجب، وسألته: **"وهل لك عائلة يا محسن!"**

وأجابها بأن له عائلة، وبأن والدية توفوا في حادث سيارة، وبدأ يسرد لها تفاصيل حياته السابقة في منزل العائلة، وأنه كان طفلاً لعائلة ميسورة الحال، ولكن أخاه الأكبر هشام تخلّى عنه بعد وفاة والديه، وأن له الحق في الحصول على نصيبه من ذلك الإرث.

فردت عليه هند: **"إذاً المشكلة محلولة.. ولا ينبغي لك القلق تجاه تلك التكاليف"** كما تابعت قائلة: **" عليك أن تبدأ في حل إشكالية المطالبة بحقك.. بمجرّد بلوغك السن القانونية"**

توقفت سوسن عن متابعة القراءة، وبرأسها تدور مجموعة من التساؤلات.

فهي تعرف الأستاذ محسن عن قرب، وتعلم جيداً بأنه طوال السنوات الماضية التي عرفته فيها كان يعاني من ضيق الحال.

تساءلت.. هل تعرض للاحتيال من طرف أخيه الأكبر هشام، أم أنه بدد ثروته لاحقا!

وهذا ما كانت ستعرفه لاحقاً من خلال قراءتها للمذكرات، في الصفحات القليلة القادمة.

الفصل الحادي عشر

عودة الطائر

في مساء أحد الأيام، توجهت سوسن لزيارة السيدة وصال في منزلها.

فمنذ وفاة الأستاذ محسن منذ عدة أسابيع، لم تجد الفرصة للقيام بتلك الزيارة، وهي من اعتادت على رؤيتها بشكل مستمر سابقاً، حين كانت تقوم بزياراتها المعتادة للأستاذ محسن.

فرحت السيدة وصال بزيارة سوسن، وعبرت لها عن مدى شوقها إليها، وشعرت بالحنين إلى تلك الأمسيات التي كانت تجمع بين ثلاثتهم في منزل الأستاذ محسن.

تلك العلاقة التي جمعت بينهم، كانت أكبر من أن تصفها بضع كلمات.

فالمحبة بين قلوب البشر هي سر من أسرار الخالق، يزرعه

في القلوب الخصبة، القادرة على أن تحتضن المشاعر النقية، الخالية من كل الرغبات البشرية المادية.

فيبقى الحب يانعاً، زكي الرائحة، كزهور الياسمين التي تتسلق العرائش، وتلتف حول نفسها، وتنشر عبيرها في الحدائق التي ترعاها أيدي حانية، وتتألم حين تفقد أحد فروعها.

وكان ذلك هو الوصف الدقيق لما كانا يشعران به في هذه اللحظات.

فتلك الياسمينة، فقدت أحد فروعها منذ أسابيع قليلة، ولا زالت تشعر بالحنين إلى ذلك الفرع المبتور من جذعها.

دار بين الاثنين حوار طويل، يسترجعان فيه ذكريات تلك الأمسيات، وتلك التفاصيل الصغيرة التي كانت تشعرهم بالسعادة.

صمتت سوسن فجأة، وشعرت السيدة وصال بأن هناك ما يشغل تفكيرها، فبادرتها بالسؤال ما بها.

قالت سوسن: **"خطر ببالي لو أننا قضينا هذا الوقت في شقة الأستاذ محسن.. فأنا أشعر بالحنين إلى ذلك المكان.. وإلى**

من كان يسكنه.. وإلى كل التفاصيل التي يحتويها" ثم تنفست بعمق، وأكملت: **"ولكني لا أتحلى بالشجاعة الكافية لدخوله.. ولا يمكنني دخوله لأراه خالياً من كل الدفء والمشاعر الذي كانت تحيط به.. ولابد أن الغبار الآن يغطي كل شيء فيه"**

ابتسمت السيدة وصال وقالت**: "وهل تظنين يا سوسن بأنني كنت سأسمح لذلك بالحصول!.. منذ رحيل الأستاذ محسن قمت بتنظيف المنزل عدة مرات.. ليبقى جميلاً كما كان في السابق"**

نظرت سوسن في عيني السيدة وصال، وأمسكت بيدها وقبضتها بقوة، وبدأت عينها تدمع.

بادرتها السيدة وصال بالقول**: "لقد حاولت أن أجرب العزف على الناي الذي أهدتني إياه نغم.. ولكني خفت من أن يتقدم الجيران بشكوى ضدي بسبب إحداث إزعاج"**

ضحكت سوسن، وهي تدرك بأن السيدة وصال أرادت ممازحتها لتخرجها من مشاعر الحزن تلك.

ومن ثم سألتها سوسن: **"أدرك بأن بقاء شقة الأستاذ محسن بهذا الشكل قرار غير صائب.. فأنتِ من حقك أنت تبحثي عن مستأجر جديد للشقة.. فهل فكرتي في الأمر؟"**

ردت السيدة وصال بأنها لم تفكر بالموضوع أبداً، ولا يتوجب عليها القلق بهذا الشأن.

ثم عادت السيدة وصال للحديث: **"حقيقة.. لقد فكرت في مسألة أخرى.. وكانت تشغل بالي منذ أيام.. لمَ لا نفكر في تنظيم معرض للوحات الأستاذ محسن؟!.. فهو كان يقوم برسم الكثير من اللوحات.. وهناك العديد منها في شقته"**

هذا الاقتراح فاجأ سوسن كثيراً؛ بل أنها تحمست للفكرة، وبدءا في مناقشة المسألة فيما بينهم.

وكل واحدة منهم تضيف فكرة جديدة، وتفصيل آخر، حتى اكتملت ملامحها النهائية، وباتت قابلة للتنفيذ.

على أن تبدأ سوسن في البحث في الترتيبات اللازمة لتنظيم المعرض.

عادت سوسن في وقت متأخر من الليل إلى منزلها، وفكرة المعرض تشغل تفكيرها.

وكانت تلك فكرة لائقة جداً، للتعبير عن حجم التقدير والمحبة التي كانتا تحملانها للأستاذ محسن.

فالأستاذ محسن، لم يسبق له أن قام بتنظيم معرض خاص به طوال مشواره الفني، وذلك يعود لظروفه المادية التي كانت سوسن والسيدة وصال أفضل من يدركها.

وطوال سنوات ممارسته للرسم، لم يشارك سوى في بضعة معارض جماعية، بمشاركة فنانين آخرين.

وكانت مسألة تنظيم معرض يليق بفنان بحجم الأستاذ محسن؛ فكرة ضرورية، كنوع من التقدير لفن هذا الإنسان الراحل.

استلقت سوسن على فراشها، وتناولت المذكرات وبدأت في متابعة القراءة.

الفصل الثاني عشر

حلم.. وألم

بدأت سوسن في قراءة المذكرات تلك الليلة، وهي لا تدرك حقيقة أنها تقترب من بلوغ فصول مؤلمة من حياة الأستاذ محسن.

بدأت من حيث بدأ في الحديث عن أن نهاية العام الدراسي من ذلك العام، الذي سينهي فيه الصف الثاني ثانوي قد اقتربت.

حيث ذكر بأن الآنسة هند أخبرته في أحد الأيام، بأن هناك معرض فني تقيمه وزارة المعارف، في نهاية كل عام دراسي، لعرض لوحات لطلاب المدارس من كافة أنحاء البلاد.

وأنها راغبة بأن يشارك الملجأ في معرض هذا العام، وذلك نظراً لأنه وبعد أن قامت بتأسيس فصل تعليم الرسم؛ لاحظت بأن هناك عدد من اللوحات التي تتمتع بمستوى جيد، وكانت واضحة حين قالت: **"لن أبالغ في تقديري إذا قلت..**

بأن مجموعة اللوحات التي قمت أنت برسمها كانت الأفضل على الإطلاق.. ولذلك فأنا قررت بأن تكون أحد لوحاتك ضمن اللوحات التي سيشارك بها الملجأ في معرض هذا العام"

لم يتمكن محسن من تصديق ما كان يسمعه، فهذه إشادة من معلمته في الرسم، وها هو يقترب من تحقيق إنجاز يفخر به.

بدأ الحماس يتملك محسن والآنسة هند بشدة، وبدأ يدور بينهم حوار هزلي، لا يخلوا من السخافة والضحك على تفاصيل صغيرة وتافهة، عن ترتيبات المشاركة.

كانت الآنسة هند تتمتع بروح طفولية بجانب شخصيتها الرقيقة والهادئة، والتي كانت هي الأوضح.

ولكنها كانت تبرز هذا الجانب الطفولي من شخصيتها مع الأشخاص الذين تشعر معهم بارتياح أكبر.

وبالفعل، فقد بدأت الآنسة هند في الترتيب لهذه المشاركة، وحصلت على موافقة السيدة فريدة مديرة الملجأ بهذا الشأن.

واختارت أحد اللوحات التي قام محسن برسمها، إضافة لأربع لوحات أخرى لطلاب الملجأ.

وتحدد موعد المعرض والذي يقام في كل عام في العاصمة.

وذكر محسن، أنه في صباح أحد الأيام، دخل إلى مكتب الآنسة هند، وهي تجلس وتتصفح أحد الملفات بين يديها، ولم تلحظ دخوله عليها إلا حين أصبح محسن يقف أمامها، وحينها فقط انتبهت لوجوده، وبدأ عليها الارتباك.

فما كان منها إلا أن طوت الملف بسرعة، ووضعته جانباً والتفتت نحو محسن.

ولكن محسن لمح الاسم المدون على الملف من الخارج، وكان ذلك هو ملفه الخاص بالملجأ، فتعجب محسن وسألها: **"هل هذا ملفي!"**

فأجابته الآنسة هند بتجاهل، وكأنها منشغلة، وتقوم ترتيب مكتبها: **"نعم"**

فسألها محسن: **"لمَ كنتِ تقومين بتصفح ملفي!.. هل بإمكاني أن أراه؟"**

أجابت الآنسة هند: **"لا تهتم للأمر يا محسن.. ودعنا الآن من موضوع هذا الملف وأخبرني.. هل أنت مستعد**

لامتحانات نهاية العام الدراسي؟"

فأجاب محسن: **"إنني أبذل جهدي في ذلك"**

هزت الآنسة هند برأسها، ودار بعدها بينهم حديث طويل عن ترتيبات المشاركة في المعرض، ولكن كانت هند شاردة طوال الحوار، وكأن هناك ما يشغل تفكيرها.

بينما كان لدى محسن بعض من التفاصيل التي يرغب في الاستفهام عنها بخصوص هذه المشاركة.

وأثناء ما كان الحديث يدور بينهم بشكل طبيعي، قاطعته الآنسة هند بشكل مفاجئ، وغيرت مسار الحديث باتجاه آخر.

بدأت بالحديث بشكل مختلف، لم يتمكن محسن خلاله من فهم ما كانت الآنسة هند ترمي إليه، فقد بدأت بالحديث عن النجاح، وتقبل الفشل والخيبات.

فحاول محسن مجاراتها في الموضوع، وقال: **"أنا أتفهم ما تودين قولة آنسة هند.. أنتِ تحاولين تهيئتي لتقبل إمكانية عدم الفوز بمراكز متقدمة في المعرض"**

ردت هند ببعض التحفظ: **"نعم يا محسن.. لا ليس بالتحديد.. ولكن أنا أود الحديث بشكل أكثر شمولية.. وأتمنى أن تتحلى بالقوة دائماً في حياتك.. وتكون لديك القدرة على تقبل الكثير من الصدمات والخذلان الذي قد تواجهه في الحياة.. فالحياة يا محسن مكان قاسٍ وكثيراً ما يفاجئنا بوقائع لم تكن لتخطر في بال أحدنا.. وخسارتك في مسابقة قد تكون ضئيلة.. أمام خسارات أخرى أكثر ألماً.. ولكن إيماننا بلله دائماً ما يمنحنا القوة.. والقدرة على تقبل قسوة هذه الحياة"**

أنهت الآنسة هند حديثها، وأوضحت بأن لديها ما تقوم به الآن، وهي مضطرة للتوجه لمكتب السيدة فريدة لمناقشة بعض التفاصيل معها، وحملت الملف وخرجت.

ذكر الأستاذ محسن في المذكرات، بأنه لم يتمكن من استيعاب كلام الآنسة هند بشكل كبير، ولم يخفي استغرابه حينها من الطريقة التي كانت تتحدث بها.

وتابع كلامه، بأنه لم يكن يدرك حينها بأن الإجابة على هذه الحيرة التي تملكته تجاه كلام الآنسة هند؛ ستتضح له قريباً، وهي التي ستكون الحقيقة التي سترافقه طوال حياته.

وهنا توقفت سوسن عن القراءة، وبدأت تتأمل في تلك الخفايا التي يمكن أن تكتشفها في حياة الأستاذ محسن.

فالطريقة التي وصف بها الارتباك الذي كان بادياً على الآنسة هند، كان غريباً وغير مبرر، على الاقل حتى الآن، وتيقنت سوسن بأن هناك أكثر مما كانت تتوقعه في حياة الأستاذ.

الفصل الثالث عشر

صباح اليوم التالي، بدأت سوسن في الاتصال على من تعرفهم من الفنانين التشكلين في مدينتها.

لم تكن تعرف كيف، ومن أين عليها أن تبدأ في موضوع الترتيب للمعرض الفني! الذي تناقشت فيه مع السيدة وصال في الليلة الماضية.

بدأت بالبحث في قائمة الفنانين الذين تعرفهم، وأجرت عدة اتصالات بهذا الخصوص، وحصلت على بعض المعلومات التي قد تساعدها في ذلك.

وكان الترتيب الذي اتفقت عليه هي والسيدة وصال، هو أن يتم تنظيم المعرض في العاصمة، ليجد اهتمام أكبر في الوسط الفني، ومن الجهات الإعلامية.

فالبلدة التي تسكن فيها سوسن تعتبر بلدة صغيرة، ولا يوجد بها عدد كبير من الفنانين، ولا تتوفر بها صالات عرض مناسبة.

حصلت من خلال من اتصلت بهم، على عدد من أسماء صالات العرض بالعاصمة، والتي يمكنها أن تبدأ خطوتها الأولى في هذا السبيل من هذه النقطة.

وعلى الفور، بدأت بالبحث عن عناوين هذه الصالات ووسيلة الاتصال بهم، وحصلت على بعض أرقام الهواتف.

ولكن كالعادة، فقد كان لديها ما عليها القيام به من أعمال، وحضور بعض الفعاليات في المدينة، للقيام بالتغطية الصحفية.

كان الطقس بدأ في التبدل، وفصل الخريف بدأت رياحه الباردة بالهبوب.

ارتدت معطفها وخرجت من المكتب، بينما كانت السماء ملبدة بالغيوم في ذلك اليوم، وما أن خرجت سوسن من المكتب؛ حتى بدأت تمطر بالفعل، واستمر المطر بالهطول حتى وقت متأخر من ذلك المساء.

أنهت سوسن جميع أعمالها وعادت إلى المنزل، أشعلت الموقد، وجلست بجواره لتشعر ببعض الدفء.

رن جرس الهاتف، وكان المتصل هي السيدة وصال، والتي كانت تسأل سوسن عن أي جديد بخصوص تنظيم المعرض، وقد اخبرتها سوسن عن الاتصالات التي أجرتها صباح اليوم بهذا الخصوص.

أنهت سوسن مكالمتها مع السيدة وصال، وتناولت وجبة العشاء، وبدأت بقراءة المذكرات.

كان محسن قد انتهى من أداء الامتحان النهائي لهذا العام، وبانتظار الاعلان عن النتائج.

وذكر بأنه وبمجرّد حصوله على نتيجة الامتحانات؛ ركض مسرعاً للبحث عن الآنسة هند في كل مكان، إلى أن وجدها وهي تمشي في أحد الممرات بالملجأ.

توقف أمامها وهو يبتسم، فنظرت إليه وسألته بطريقة مشاكسة: **"لا تخبرني بأنك قد ارتكبت حماقة.. وأن وهناك من يلحق بك ليوسعك ضربا؟.. ما بك تركض كالمجانين!"**

أخبرها محسن بأنه كان يبحث عنها في كل مكان.

وضعت الآنسة هند يدها على خصرها، وأصبع السبابة بيدها الأخرى على فمها، وهي تتصنع بأنها تحاول التخمين، محاولة إغاضة محسن، وقالت: **"دعني أخمن ما الأمر!.. ربما تود إخباري بأنك حصلت على نتيجة الامتحان.. صحيح؟"**

فابتسم محسن، وقام بهز راسه بحركة سريعة، تنم عن أن تخمينها في محله.

فردت هند باستهزاء: **"أخبارك قديمة.. لقد تأكدت من نتيجتك منذ قليل بنفسي.. مبروك يا محسن"** ثم تابعت: **"ها أنت تقترب من حلمك أكثر.. لم يتبقى لك سوى عام واحد وتنهي دراستك الثانوية.. وتلتحق بكلية الفنون.. لتصبح الفنان محسن عبدالمجيد.. يجدر بك أن تفخر بكل إنجاز في حياتك يا محسن.. مهما كان صغيراً"**

فرد محسن: **"لقد كان لك دور كبير آنسة هند في كل شيء.. فلأول مرة أحصل على درجة الامتياز في الامتحان النهائي.. وأنا ممتن لك بالكثير"**

ردت هند: **"أنا كنت بالنسبة إليك مجرَد محفز.. والمحفزّات لا يمكن لها أن تحدث فينا أي تغيير مهما امتلكت من قوة.. مالم تكن بداخلنا رغبة حقيقية للنجاح.. وأنت امتلكت تلك الرغبة.. دعك من هذا الكلام الآن.. واستمع إلى ما سأقوله لك.. سأقوم اليوم بتوصيل اللوحات التي سنشارك بها في المعرض السنوي إلى الموقع المحدد لإقامة المعرض.. فلم يتبقى على موعد الافتتاح سوى خمسة أيام"**

هم محسن بالسؤال، ولكن الآنسة هند قاطعته وأمسكت برأسها وهي تتأفف وتقول: **"لا مزيد من الأسئلة يا محسن.. منذ أسابيع وأنت لا تكف عن أسئلتك.. ستعلم بكل شيء حين نصل إلى هناك.. لدي الكثير لأنجزه الآن"**

نظرت هند إلى محسن وهو يقف بصمت، وكأنها شعرت بأن طريقتها بالكلام قد تسبب له بالإزعاج، فبادرته بالسؤال: **"أعتذر.. إن كان كلامي قد أشعرك بالحرج..**

كانت مجرّد مزحة"

ابتسم محسن، ورد عليها: **"لم يسبق وأن وجدت من أحدهم معاملة بهذا اللطف الذي كنت ألقاه منك آنستي.. لا يمكن أن يصدر منكِ أبداً أي كلام يمكنه أنه يزعج الآخرين.. وأنا على الأخص"**

أكمل الأستاذ محسن كلامه بعد ذلك، وكيف كان يتشوق إلى ذلك اليوم، وحضور المعرض الذي سيشارك فيه بلوحة لأول مرة، حتى حان صباح اليوم المحدد للافتتاح.

في صباح يوم الافتتاح، استقل محسن الباص، وترافقه الآنسة هند، والسيدة فريدة، وعدد من طلاب الملجأ.

كان صباحاً جميلاً، ومناسباً جداً ليكون صباح ليوم مميز بهذا الشكل.

فهذه تعتبر من أحد المرّات النادرة، التي يغادر فيها محسن الملجأ، ليشاهد العالم في الخارج، وهو ذاهب لحضور فعالية استثنائية.

ولكن ما كان يزعجه طوال الرحلة، هو أن السيدة فريدة جلست بالمقعد المجاور للآنسة هند، وكانا منشغلين بالحديث سوياً طوال الطريق، بينما كان هو يجلس في المقعد خلفهم مباشرة، دون أن يتمكن من الحديث مع هند، واكتفى باستراق السمع لمَا كان يدور بينهم من أحاديث.

وصل الباص إلى حيث يتم تنظيم المعرض، وكان الزحام كبيراً في المكان، فهي فعالية تشارك فيها كل المدارس على مختلف مراحلها في عموم البلاد.

وكان المكان عبارة عن قصر يتميز بطابعه التراثي، وتعود ملكيته إلى أحد الرموز الأدبية الراحلة.

وتكريماً لذكرى الأديب، فقد تم تخليد اسمه بتحويل قصره إلى مركز ثقافي، يخدم الأنشطة والفعاليات الثقافية قي البلاد، وذلك كعادة الكثير من الشعوب والدول التي تحتفي برموزها الثقافية والعلمية.

لم يمضي وقت طويل حتى وصل معالي وزير المعارف، وبدأت فعاليات حفل الافتتاح، والذي قدمت فيه بعض الفرق

مجموعة من اللوحات الفنية والغنائية، وبمشاركة من طلاب بعض المدارس.

طوال فترة الحفل، كان محسن يحرص على البقاء بالقرب من الآنسة هند، وتدور بينهم بعض الأحاديث المتقطعة حول العروض المقدمة.

استمر الحفل لم يقرب الساعتين، وبعدها توجه الجميع لحضور افتتاح معرض اللوحات الفنية.

انبهر محسن من كمية وأعداد اللوحات المعروضة، وشعر بقشعريرة ناعمة تسري في جسده، كردة فعل على السعادة التي كانت تتملكه.

فهو اليوم أحد الفنانين المشاركين في المعرض، وقد يكون أحد الفائزين بالمراكز الأولى، ويتم ترشيح لوحته من طرف لجنة التحكيم، والتي تتكون من مجموعة من الفنانين المعروفين والمختصين في المجال الفني.

قضى محسن اليوم الأول من المعرض بالتجول في الأجنحة المختلفة، ومشاهدة اللوحات المشاركة بصحبة الآنسة هند.

وما أسعده، هو أن الآنسة هند كانت تؤكد له بين الحين والآخر، أنه سيفوز بالتأكيد بأحد المراتب الأولى في المسابقة، بالنظر إلى مستوى اللوحات المشاركة، ومقارنتها بلوحة محسن.

كان محسن يتوق للحظة التي سيتم فيها الإعلان عن اللوحة الفائزة، ولم يخفي في مذكراته؛ أن جزء منه كان يرغب في ذلك الفوز، كنوع من رد المعروف للآنسة هند، التي كان لها الدور الأكبر في تعليمه الفن، وفوزه يعتبر تتويج لجهودها في الملجأ.

وانقضى اليوم الأول من المعرض، والذي كان سيستمر لمدة ثلاثة أيام، وسيتم الإعلان عن النتائج في ختام اليوم الثالث.

أما بالنسبة لليوم الثاني، فلم تكن هناك الكثير من الأحداث المهمة، وبدوره لم يكلف محسن نفسه عناء الحديث عنه كثيراً، سوى بعض من الملاحظات البسيطة التي أوردها، لينتقل بحديثة مباشرة للحديث عن اليوم الثالث والأخير من المعرض.

الفصل الرابع عشر

ألاعيب القدر

استيقظ محسن باكراً في صباح اليوم الأخير، وارتدا ملابسه واستعد لموعد المغادرة.

كان في حالة توتر، فهذا هو اليوم الثالث للمعرض، وهو اليوم الذي سيتم فيه الإعلان عن اللوحات الفائزة بالمراكز الثلاثة الاولى على مستوى البلاد.

جلس ينتظر حضور الآنسة هند، وقد تأخرت عن الحضور هذا الصباح على غير عادتها.

ولكنه حين سأل عنها، علم من أحد المعلمات بأن الآنسة هند ستتوجه مباشرة إلى موقع المعرض، وستكون بانتظارهم هناك.

غادر الباص، وكان محسن طوال الطريق يحلم بتلك اللحظة التي سيتم فيها الإعلان عن أسماء الفائزين، ويعيش في خياله لحظة الإعلان عن اسمه.

لم يشعر بالمسافة التي قطعها الباص، في طريقه من الملجأ وحتى بلغ مكان المعرض.

وفور نزوله من الباص؛ بدأ بالبحث في المكان عن الآنسة هند، إلى أن وجدها تجلس في المقهى الموجود في المكان، وتحتسي كوب قهوتها الصباحية.

توجه إليها مسرعاً، والقى عليها تحية الصباح، وردت هي عليه التحية بابتسامتها اللطيفة، ودعته للجلوس دون أن تضيع فرصة مشاغبته قليلاً.

جلس محسن صامتاً للحظات، فبادرته الآنسة هند بالسؤال: **"هل تشعر ببعض التوتر؟"**

أجابها محسن بأن ذلك ما يشعر به بالفعل.

ابتسمت هند، واقتربت منه قليلاً وأمسكت بيده، وتفاجأت وهي تقول: **"ما هذا يا محسن.. يدك باردة جداً.. أ لهذا الحد تشعر بالتوتر!"**

اكتفى محسن بالنظر إليها ولم يرد.

ولكنها بادرته بالقول: **"أصغي إلي جيداً.. في هذه الحياة لا تربط سعادتك أبداً بأحد أو بحدث.. اسعى نحو كل ما أنت راغب في تحقيقه والحصول عليه.. ولكن.. استمتع بكل تجربة تعيشها.. واجعلها هي مصدر سعادتك بغض النظر عن النتيجة التي ستحققها من وراء تلك التجربة.. قد تفوز اليوم بأحد المراكز.. ولكنك قد تخسر المنافسة.. وهذا لا يعني أبداً أنك قد فشلت.. ولكن يعني بأنك لا زلت بحاجة للمزيد من المحاولة"**

كان محسن يستمع لكل كلمة تتفوه بها الآنسة هند بكثير من الاهتمام، وكأنه يقوم بتدوين كل تلك الكلمات في دفتر في ذاكرته، ويمنحها صفة القدسية.

بينما هو يتأمل في كلامها، بادرته بسؤال مشاغب كعادتها: **"والآن يا حضرة الفنان.. هل تسمح لي بأن أقدم لك فنجان قهوة على حسابي الخاص؟"**

ابتسم محسن، وغادرت الآنسة هند مقعدها، وغابت لدقائق وعادت وهي تحمل في يدها كوب القهوة، ووضعته أمام محسن، وابتسمت وقالت: **"لا عليك.. سيكون كل شيء على ما يرام.. دع عنك هذا القلق والتوتر.. واستمتع بالتجربة"**

أنقضى بعض الوقت وهم يجلسون بالمقهى، بعدها نظرت هند إلى ساعة يدها، وكانت الساعة تقترب من الحادية عشر صباحاً.

حينها نهضت وأمسكت بيد محسن، وسألته: **"هل أنت مستعد؟.. حان موعد إعلان النتائج"**

أجاب محسن: **"نعم آنستي.. أنا مستعد"**

فقالت هند**: "إذاً هيا بنا.. لنحجز لنا مقعداً في الصفوف الأمامية في القاعة التي سيتم فيها الإعلان عن النتائج.. وتكريم الفائزين"**

انطلقا سوياً.. ومحسن يشعر بقلبه يخفق من الحماس لسماع النتيجة.

دخلا القاعة، وتمكنا بالفعل من الحصول على مقعدين متجاورين، وجلسا بانتظار دخول اللجنة.

مرّ الوقت بطيئاً مملاً بانتظار الموعد، ومحسن لا يكف عن

سؤال الآنسة هند عن الساعة، وهي في كل مرّة تنظر إلى ساعة يدها وتخبره بالوقت.

إلى أن بدأ أعضاء اللجنة بالدخول، والجلوس في المنصة المواجهة للحضور.

بدأ رئيس اللجنة بألقاء كلمة بهذه المناسبة، وتقييم الأعمال المشاركة بصفة عامة، وكانت كلمة طويلة نسبياً، مما أشعر محسن بالضجر، وبدأ بالتململ.

شعرت هند بذلك، وبدأت بمشاغبته مجدداً وهي تقول له: **"استمتع باللحظة"**

إلى أن حان موعد الإعلان عن النتيجة، وكما هو متبع، فقد كان يتم البدء بالإعلان عن الفائزين عن المدارس الابتدائية، ثم مدارس المرحلة المتوسطة، واخيراً المدارس الثانوية، وابتداء من اسم الفائز بالمرتبة الثالثة، ثم عن الفائز بالمرتبة الثانية، وأخيراً الفائز بالمركز الأول.

ومع كل إعلان، كان التوتر يزداد لدى محسن، بينما الآنسة هند تمسك بيده وتشد عليها.

إلى أن حان وقت الإعلان عن الفائزين بالمرحلة الثانوية، وكانت الفائزة بالمركز الثالث لهذا العام، طالبة من أحد مدارس العاصمة.

وبعدها مباشرة تم الإعلام عن الفائز بالمركز الثاني، وكان الطلب محسن عبدالمجيد.

وبمجرّد سماع محسن لأسمه؛ قفز من فوق مقعده وهو في حالة ذهول.

وقامت هند من مقعدها، وهي تقول له: **"هيا يا محسن أسرع.. وأصعد على المنصة لاستلام جائزتك"**

ولكن محسن أمسك بيد آنسته هند، وقال لها: **"لن أصعد على تلك المنصة بمفردي آنستي.. أنتِ من يستحق هذا التكريم"**

شعرت هند بقليل من الحرج، ولكنها لم تمانع.

وتوجه محسن نحو المنصة وهند ترافقه، وصعد تلك الدرجات القليلة وكأنه يحلق فوقها، لم يكن يصدق ما يحصل حين استلم الشهادة، ودرع التكريم.

وكالعادة التقطت بعض الصور التذكارية له في المنصة، ونزل عنها وهو يمسك بيد الآنسة هند.

وخرجا راكضين إلى خارج القاعة، وهما يضحكان بشكل طفولي، ولم يهتما حتى إلى سماع اسم الفائز بالمركز الأول لذلك العام.

ولحق به زملائه بالملجأ إلى خارج القاعة، واجتمعوا جميعاً في أحد الباحات الخارجية.

كان محسن يمسك بالدرع ويضمه الى صدره، وكـأنه طفل يحتضن لعبته التي يخشى عليها من الفقد.

نظرت إليه هند، وبدأت بمشاغباتها، وقالت: **"لا تخف على الدرع لن يخطفه أحدهم منك.. فاسمك مدون عليه يا استاذ محسن"**

كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة والنصف، وهناك حفل شاي صغير أعدته إدارة المعرض للضيوف المشاركين.

وكالعادة، حين تفتح صالونات الضيافة؛ يندفع الجميع نحو الداخل، ويحصل ازدحام وتدافع عند بوابة الدخول.

وافترق محسن عن الآنسة هند وسط ذلك الزحام، وحاول البحث عنها لينظم إليها مجدداً، ويحظى بلحظات أخرى معها أثناء تناول المشروبات، ولكنه لم يتمكن من ذلك.

اقترب من طاولة الشاي، وأخذ فنجانه وتوجه نحو أحد الطاولات وجلس وهو يتلفت، علّه يرى آنسته.

ومرّ بعض الوقت دون أن يتمكن من مشاهدتها وسط ذلك الزحام.

إلى أن انتهى بعض الحضور من احتساء الشاي، وبدأوا بمغادرة المكان.

وهنا، انتبه محسن إلى الآنسة هند وهي تقف بعيداً برفقة شاب لا يعرفه.

توقع محسن أنه قد يكون أحد الفنانين الذين حضروا حفل إعلان الفائزين.

وعلى الفور أمسك بشهادته، وحمل الدرع بين يديه، وتوجه مسرعاً نحو الآنسة هند.

بدا على الآنسة هند أنها كانت مستمتعة بالحديث مع هذا الشاب، ويدور بينهم حوار يثير ضحكهما.

اقترب محسن منهم بهدوء، فانتبهت هند لحضوره، وعلى الفور رحبت به، ثم التفتت نحو الشاب الذي كانت تقف معه وقالت له: **"ماهر.. هذا هو محسن الذي حدثتك عنه مراراً"**

تعجب محسن من كلامهما، وتساءل في نفسه من قد يكون هذا الشاب الأسمر الوسيم، الذي حدثته هند عنه**!**

التفت ماهر نحو محسن، ومد يده نحوه لمصافحته، وبادره بالقول**: "سمعت عنك الكثير من هند.. وكنت أتلهف للقائك.. وكان اليوم مناسباً جداً لألتقيك وأهنئك بالفوز.. لقد أخبرتني هند بذلك بمجرّد وصولي"**

التفتت الآنسة هند نحو محسن، وقالت**: "محسن.. هذا المهندس ماهر.. خطيبي"**

كانت صدمة محسن لا توصف، حين سمعها وهي تنطق بكلمة: **"خطيبي"**

فللمرّة الأولى، يعلم بأن آنسته مخطوبة لأحدهم، ولكنه رد على الفور أنه سعيد بالتعرف إليه.

صمت بعدها محسن صمتاً طويلاً، ولم يتفوه بكلمة واحدة، واكتفى بمتابعة الحوار الذي كان يدور بين هند وماهر تارة، والالتفات إلى الحضور تارة أخرى، وكان يعترف الأستاذ محسن في مذاكرته، أن محاولته للانشغال بمتابعة الحضور؛ لم تكن سوى محاولة للهروب من الموقف الصادم الذي يواجهه في هذه اللحظة، ومحاولة حتى لا تلتقي عينه بعين الآنسة هند مباشرة.

مرّ بعض الوقت، بعدها بادرت هند بالقول لخطيبها ماهر: **"ما رأيك أن تصطحب محسن إلى الفناء الخارجي.. بينما أذهب أنا لإحضار الشاي لنا جميعاً.. لنشربه في الخارج"**

نظر ماهر إلى محسن، وسأله: **"ما رأيك يا محسن.. هل ترافقني للخارج؟"**

اكتفى محسن بهز راسه، وبدأ بمرافقة ماهر نحو الفناء الخارجي.

سار ماهر ببطء، ومحسن يمشي بجانبه، حتى وصلا إلى ظل شجرة، والتي توجد تحتها مقاعد حجرية أنيقة.

تقدم ماهر نحوها وجلس، ودعا محسن للجلوس بالقرب منه، فاقترب محسن وجلس.

مرّت بضع دقائق من الصمت، كان خلالها ماهر يتأمل تلك الحديقة الجميلة الموجودة بالفناء.

بينما محسن يمسك بالشهادة والدرع بين يديه، ويجلس بانحنائه بسيطة نحو الأسفل، ويحدق في الارض، وكأنه يتأمل تلك النقوش التافهة الموجودة في بلاط أرضية الحديقة، بينما هو غارق في شعور عميق بالحزن.

قام ماهر بتعديل جلسته قليلاً، وأسند ظهره إلى ظهر المقعد الحجري، ووضع ذراعه خلف كتف محسن، وقال**: "أتدري يا محسن.. لم تبالغ هند في وصفها لك.. أنت بالفعل شاب رائع"**

ودون أن ينظر نحوه محسن، شكره على هذه المجاملة وعاد لصمته.

قام ماهر بتعديل جلسته مجدداً، وانحنى هو الآخر بجسده نحو الأسفل قليلاً، والتفت نحو محسن وعاد للقول: **"عائلتي أنا وهند كانا جيراناً منذ طفولتنا.. فأنا أعرف هند منذ أن كانت صغيرة.. كانت دائماً مختلفة عن كل بنات الحي.. وكانت تلفت نظري بهدوئها ورقتها منذ ذلك الوقت.. أعلم أنها إنسانة مميزة ولطيفة جداً.. وهي تتعامل مع كل من تقابلهم في حياتها بذلك اللطف.. حتى الذين تلتقيهم للمرّة الأولى"**

ثم بادر ماهر بسؤال محسن سؤالا مشاغباً، وهو يبتسم ابتسامة ماكرة: **"ألا تظن أنها كذلك.. أم أن لك رأي آخر؟!"**

رد محسن بسرعة: **"بل هي كذلك بالتأكيد"**

صمت ماهر للحظات، ثم قال: **"أعلم يا محسن مدى تعلقك بهند.. وأنك تحمل لها في قلبك الكثير من الاحترام والتقدير.. وهذا ما كانت تخبرني به هند على الدوام.. وربما علمها بهذا الأمر منعها من أن تخبرك ببعض التفاصيل التي كان عليك أن تعرفها منذ وقت"**

ما سمعه محسن من ماهر تسبب له ببعض الارتباك والحيرة، وبادر بسؤال ماهر: **"عن أي تفاصيل تتحدث! هل هناك تفاصيل أخرى يجدر بي معرفتها؟"**

رد ماهر: **"في الحقيقة نعم يا محسن.. فأنا منذ تخرجي من الجامعة حصلت على وظيفة في مدينة أخرى خارج العاصمة.. ومن الطبيعي أن تنتقل هند للعيش معي إلى هناك بعد زفافنا هذا الصيف"**

أحس محسن حين سمع ذلك وكأن قلبه يوشك أن يتوقف، فهذا يعني بأن الآنسة هند لن تستمر في العمل بالملجأ، ولن تتواجد في العام المقبل، وذلك كان أكبر من قدرته على الاحتمال، ولم يتمكن من السيطرة على مشاعرة، فانهمرت بضع دمعات من عينه في صمت.

مد ماهر يده في جيبه، وأخرج منديلاً وناوله لمحسن، وتناول محسن المنديل، وحاول تجييف تلك الدموع.

ثم تابع ماهر كلامه: **"هند كانت تعلم بأن ذلك سيكون قاسياً عليك.. ولم تجد طريقة لتخبرك بها.. و.. طلبت مني أن أهتم أنا بالأمر.. لقد رحلت هند يا محسن.. وطلبت مني**

أن أبلغك تحياتها.. وأمنياتها لك بحياة سعيدة"

كلما كان ماهر ينطق بكلمة؛ كانت دقات قلب محسن تتسارع، وما أن سمع بأن الآنسة هند قد غادرت المكان، قفز من مقعدة، وبدأ بالركض في أرجاء المكان للبحث عنها.

بحث بين الحشود، وفي الصالات الداخلية، خرج ثانية إلى الحديقة، وهو لا يزال يركض ويتلفت في كل الاتجاهات، علّه يتمكن من العثور عليها.

ولكن يبدوا أن الآنسة هند قد غادرت بالفعل.

وهنا، بحث محسن عن مكان بعيد في الحديقة، وأسند ظهره على الجدار، وانزلق ساقطا نحو الأرض.

جلس وهو يمسك بشهادته، ووضع الدرع بجانبه، وأسند رأسه على ركبتيه، وأجهش بالبكاء.

لقد كانت التوقيت بالنسبة إلية غريباً، بأن تغادر الآنسة هند في يوم فوزه بالجائزة.

كان يبكي، ويتسأل كيف لها أن ترحل وتتركه، هو بحاجة إليها.

كيف له أن يعيش بعد أن فقد من كانت بجواره وملهمته، ويفقد من كانت تمنحه كل تلك المشاعر الدافئة.

لقد انهار عالمه مرّة أخرى من جديد.

ضل على تلك الحال لمدة غير قصيرة، وهو يسترجع كل تلك الذكريات مع الآنسة هند.

منذ أول مرّة رآها فيها في ذلك الصباح وسحرته، وأول مرّة تمكن فيها من الاقتراب منها عند الباص، وزيارتهم للمتحف، وكل تلك الساعات التي قضاها بقربها في مرسم الملجأ، والأحاديث التي كانت تدور بينهم، واللحظات الطفولية التي كانا يعيشانها سويا.

كان يحاول السيطرة على ألمه، ولكن الدموع كانت تتفجر من عيونه كالبركان الثائر الخارج عن السيطرة.

شعر بوقع أقدام أحدهم تقترب منه وتتوقف دون أن يتكلم، ولكنه لم يجرؤ على النظر، وإظهار وجهه الذي سيبدو عليه بوضوح؛ بأنه كان يبكي.

وكيف لرجل أن يبكي!

لحظات، وسمع أحدهم ينطق باسمه: **"محسن"**

ياله من صوت يألفه، ويسري برقة في أنحاء روحه، لم يصدق أنه يسمع ذلك الصوت، إنه صوت الآنسة هند، لابد أنه كان يتوهم.

رفع رأسه والتفت بسرعة، ليجد الآنسة هند تقف هناك وتنظر إليه.

اقتربت منه بضع خطوات أخرى، ونزلت على ركبتيها.

أمسكت بالدرع الذي كان بجانبه وتأملته للحظات، ثم قالت: **"كان الجميع يبحث عنك منذ وقت.. لقد أنتهى المعرض.. وبدأ جميع الضيوف بالمغادرة.. ولم يتمكن باص الملجأ من المغادرة والعودة بدونك"**

لم يرد عليها محسن، وعاد لإخفاء وجهه وأسند رأسه إلى ركبتيه.

ولكنه شعر بأن هذه ربما تكون هي اللحظات الأخيرة التي

قد يتمكن فيها من تأمل وجهها الملائكي، وعليه ألا يخسر تلك اللحظات.

وسرعان ما رفع رأسه مجدداً، ونظر إلى الآنسة هند بصمت.

بادرت هند بالحديث: **"ليس بمقدوري قول شيء يا محسن.. أعلم بكل ما تشعر به.. ولكن هذه الحياة دائماً ما يكون لها رأي آخر يختلف عما نأمله منها.. عليك دائماً تقبل بعض الأمور التي تكره حصولها.. دون أن تفقد الأمل بأن الحياة نفسها قد تفاجئنا بأمور أجمل مما كنا نتوقع حصولها"**

أمسكت الآنسة هند بيد محسن، وطلبت منه النهوض كي لا يتأخر الجميع أكثر من ذلك.

نهض محسن، وسار بالقرب من الآنسة هند، وهي ممسكة بيده.

كان محسن يشعر بأن كل لحظة تمرّ الآن هي لحظات لا يمكن تعويضها.

وكل لحظة تمرّ تجعله أقرب إلى لحظة الفراق الحتمية، التي ستحرمه من وجود الآنسة هند في حياته.

وأن الغد سيكون مختلفاً عن اليوم، وكأن الشمس الآخذة في الميل نحو الغروب، لن تشرق في سماءه صباح الغد.

ستنقضي هذه اللحظات، وسينتهي هذا اليوم، وبعدها لن يكون للآنسة هند وجود فعلي في حياته.

صعد محسن إلى الباص وجلس بجوار النافذة، والآنسة هند تقف بالخارج وتبتسم له ابتسامتها الهادئة، وهو ينظر إليها، وكأنه يريد بأن لا يخسر أي لحظة، قبل أن يفقدها إلى الأبد.

بدأ الباص بالتحرك ببطء، ورفعت هند يدها ولوحت له مودعة.

وكانت تلك بالفعل، هي آخر مرّة تقع فيها عينه على الأنسة هند.

فقد دون الاستاذ محسن في مذكراته بعد ذلك؛ بأنه لم يتمكن من مقابلة الآنسة هند مجدداً، رغم أنه حاول مراراً الحصول على عنوانها، أو أية وسيلة اتصال بها، ولكنه لم يفلح.

سقطت بضع قطرات من الدموع من عين سوسن على صفحة المذكرات، وحينها فقط انتبهت أنها تفاعلت بعمق مع ما كانت تقرأه.

وكيف كان بمقدور الأستاذ محسن كتابة كل تلك المشاعر التي شعر فيها في لحظات الوداع، بكل هذا الصدق والعمق، حتى بعد مرور كل تلك السنوات منذ أن ودع الآنسة هند، وحتى بدأ في كتابة مذكراته بعد مرور سنوات طويلة.

الفصل الخامس عشر

مرّت عدة أسابيع منذ أن تقدمت سوسن بطلب إلى إدارة الصحيفة لتخصيص مساحة لنشر السلسلة الخاصة بحياة الأستاذ محسن، دون أن تتلقى رداً على طلبها.

كما أنها حتى الآن، لم تتمكن من تحقيق أي تقدم في موضوع الترتيب لتنظيم معرض للوحات الأستاذ محسن، كما اتفقت مع السيدة وصال.

كانت تتوق للبدء بنشر القصة، فقد قرأت جزءاً كبيراً من المذكرات، وعملت على صياغة كل ما قراته بشكل أدبي قابل للنشر.

خطر ببالها أن تسافر إلى العاصمة لمتابعة الموضوع مع إدارة الصحيفة بشكل مباشر، وتنتهز فرصة وجودها بالعاصمة؛ للبحث عن صالة مناسبة لتنظيم المعرض.

وبينما هي تجلس بمكتبها، رن جرس هاتفها، نظرت إلى هاتفها وكان المتصل هي نغم.

ردت سوسن بسرعة ولهفة على الاتصال: **"مرحبا يا نغم.. لقد اشتقت لك كثيراً"**

نغم: **"صباح الخير يا جميلة"** قالتها بشكل مشاغب.

دار بعدها بينهم حديث مطول، وكانت نغم تتصل بسوسن لتسأل عن موعد نشر قصة والدها.

أخبرتها سوسن بتلك التفاصيل، وبأنها كانت للتو تفكر في الموضوع، وتخطط لزيارة العاصمة لنفس السبب.

وعبّرت نغم عن سعادتها بالأمر، وقالت وبأنها ستكون بانتظار وصولها.

راجعت سوسن جدول أعمالها، ومواعيدها للأسبوع القادم، ووجدت أن لديها بعض من الارتباطات، ولكن تمكنت من إقناع زميلها رامي بالمكتب بأن يقوم هو بإتمام تلك التغطيات الصحيفة.

وبذلك بات بمقدورها الآن، أن تسافر للعاصمة لعدة أيام لإتمام هذه الاعمال.

وابتداء من ذلك المساء، بدأت سوسن في ترتيب جميع فصول القصة التي كتبتها ومراجعتها، لتقوم بعرضها على إدارة الصحيفة الأسبوع القادم.

الفصل السادس عشر

رحلة إلى العاصمة

صباح يوم الأحد التالي، استقلت سوسن قطار الساعة ٩ المغادر للعاصمة.

لم تحمل معها الكثير من الأمتعة، بالرغم من أنها تخطط للإقامة هناك حتى نهاية الأسبوع.

باستثناء حقيبة متوسطة الحجم، تحتوي على بعض متعلقاتها الشخصية الضرورية، وملف يتضمن فصول القصة التي كتبتها.

كان القطار يستغرق ساعتين لبلوغ محطة العاصمة، وجلست سوسن بجوار نافذة القطار تتأمل تلك الحقول والقرى المتناثرة على امتداد الطريق.

تذكرت كيف كان الأستاذ محسن يعشق الطبيعة وبساطتها،

ويستمتع كثيراً بالقيام برحلات متقطعة للبرية للتأمل، واستلهام أفكار للوحاته.

وكيف كان لتلك الساعات القليلة التي يقضيها هناك، تأثير في إحداث تغيير إيجابي على مزاجه.

غفت سوسن قليلاً بينما هي جالسة على مقعدها، ولم تستيقظ حتى شعرت بالقطار يتوقف في محطته النهائية.

وصل القطار إلى العاصمة الساعة ١١:٢٠، وعلى الفور نزلت سوسن من القطار، واستقلت سيارة أجرة، للذهاب لإدارة الصحيفة.

وصلت إلى مبنى الإدارة بعد ٢٠ دقيقة تقريباً، وتوجهت لمكتب الأستاذ سليمان، وهو المدير المسئول الذي تود الاجتماع به، من أجل تخصيص مساحة أسبوعية لها بالصحيفة.

لم تكن سوسن تشعر بالكثير من الارتياح تجاه الأستاذ سليمان،

فهو شخص متعجرف إلى حد ما، ولم تكن تستلطف أسلوبه الجاف والمتعالي في الكلام.

ولكنها كانت مضطرة للتعامل معه بشكل مباشر في هذه المرّة، فهو صاحب القرار في هذه المسألة، ولا يمكنها التراجع عن قرارها في النشر.

انتظرت سوسن لبعض الوقت في مكتب سكرتير الأستاذ سليمان، لحين خروج الضيوف الذين كان يستقبلهم في مكتبه.

دخلت سوسن وألقت عليه تحية الصباح، فرد عليها بأسلوبه المتعجرف، وطلب منها الجلوس، ثم التفت إليها وتعجب من زيارتها المفاجئة.

كانت سوسن تشعر بالتوتر قليلاً، مخافة ألا تحظى القصة بقبول الأستاذ سليمان للنشر، وكانت قد عاهدت نفسها على أن تحاول بكل قوتها لتحصل على الموافقة.

فردت عليه سوسن بأنها هنا من أجل لقائه خصيصاً، وتابعت قائلة: **"كان بإمكاني مناقشة المسألة معك عبر الهاتف.. ولكنني وجدت أنه من غير اللائق التواصل معك هاتفياً.. تقديراً لمكانتك الكبيرة بالصحيفة"**

وما أن سمع الأستاذ سليمان ذلك؛ قام بالتعديل من جلسته قليلاً وهو يشعر بالانتشاء، وسألها ما الأمر الذي تريد الاجتماع به من أجله؟

شعرت سوسن بحسها، بأنها استرعت انتباهه بهذا الأسلوب المتملق، والذي كانت تعي بأن الأستاذ سليمان من هذه الشخصيات التي يروقها المديح والإطراء، فتابعت كلامها: **"سبق وأن تقدمت بطلب عبر البريد الإلكتروني لقسمكم.. بخصوص رغبتي في نشر سلسلة قصصية عن حياة الفنان الراحل محسن عبدالمجيد.. كان ذلك منذ عدة أسابيع.. ولم أتلقى الرد على طلبي.. كما كانت هناك مكالمة هاتفية مطولة بيني وبين رئيس التحرير منذ أيام لمناقشة بعض المسائل.. وكنت على وشك أن أتحدث معه في الأمر.. ولكني تراجعت عن ذلك.. حين شعرت بأنك الأقدر على التعاطي مع هذه المسألة"**

فرد الأستاذ سليمان بأنه لم يطلع على الطلب المقدم من طرفها، وأنه موافق من حيث المبدأ، بشرط أن تكون القصة تستحق النشر.

فردت عليه سوسن: **"أنا أدرك تماما متطلبات النشر.. وكنت حريصة على أن أقوم بصياغة القصة بما بتوافق مع ما أعرفه عنك أستاذ سليمان.. من حرصك على تقديم مواضيع ذات قيمة.. وأنا واثقة تماماً بأنني كنت موفقة في ذلك"**

دام اللقاء بين سوسن والأستاذ سليمان لمدة ثلاثين دقيقة، وطلب منها الأستاذ سليمان بأن تعيره المسودة ليقوم بدوره بالاطلاع عليها وقراءتها، ووعدها بأن يقوم بالرد عليها خلال يومين.

خرجت سوسن من الصحيفة، وتوجهت فوراً لتناول الغداء، ومن ثم إلى الفندق الذي ستقيم فيه لعدة أيام.

وما أن دخلت غرفتها؛ حتى قامت بالاتصال بنغم لتخبرها بأنها موجودة في العاصمة، وأنها تشتاق للقائها.

جرى بينهم حديث سريع، واتفق الاثنان على أن يلتقيا مساء ذلك اليوم في أحد المقاهي.

قررت سوسن بعدها الحصول على قسط من الراحة.

وعادت لتستيقظ في الساعة السابعة مساءً، وخرجت للقاء نغم.

وصلت سوسن إلى المقهى، ووجدت نغم بانتظارها في المكان، وكان واضحاً مدى اشتياقها للقاء سوسن.

ودارت بينهم أحاديث طويلة، ولكن نغم كانت تتوق لسؤال سوسن عن التفاصيل التي قراءتها في مذكرات والدها، فبادرتها بالسؤال: **"منذ أن وصلتي آنسة سوسن.. وأنا أتلهف لسماع التفاصيل منك"**

سوسن: **"أي تفاصيل تقصدين!"**

نغم: **"عن تلك التفاصيل التي قرأتها عن حياة أبي في مذكراته"**

ابتسمت سوسن بطريقة مشاغبة، تهدف من وراءها لإثارة فضول نغم، ثم ردت: **"ستعرفين كل ذلك قريباً"**

شعرت نغم بالغيض، وردت: **"هيا كفي عن ممارسة ألاعيب التشويق هذه التي تمارسينها علي آنسة سوسن.. وأخبريني بسرعة"**

صمتت سوسن قليلاً، ثم ردت: **"حسناً يا نغم.. لن أخبرك بالتفاصيل الآن.. ولكن عمّا قريب إن شاء الله ستعرفين كل تلك التفاصيل.. من خلال السلسة القصصية التي ستنشر في الصحيفة"**

شعرت نغم بحماس شديد وسعادة لما سمعته، وسألتها عن موعد النشر.

سوسن: **"لا يمكنني إعطاءك موعد محدد لذلك.. ولكني كنت اليوم في اجتماع مع إدارة الصحيفة لمناقشة هذه الترتيبات.. ولن يطول الأمر.. أطمئنِ"**

شعرت نغم بالغيظ مجدداً، وردت عليها: **"كم أنتِ عنيدة.. ولكن حسناً.. حتى أنا لديَ ما سترغبين في معرفته.. ولكني سأحتفظ به لنفسي.. ولن أخبرك"**

شعرت سوسن بلهفة وهي تسأل: **"حقاً!.. وما هو ذلك الأمر؟"**

نغم: **"لن أخبرك"**

سوسن: **"هيّا يا نغم.. كفي عن ذلك.. وأخبريني فوراً ما الأمر الذي تحاولين إخفاءه عني؟"**

نغم: **"حسنا.. لقد التحقت بدورة لتعليم الرسم"**

أحست سوسن بسعادة كبيرة فور سماعها بذلك، وشجعتها على الاستمرار في التطوير من موهبتها، لتكون مستقبلاً فنانة تشكيلية، تتمتع بمهارات والدها.

انتهى اللقاء بينهم في وقت متأخر، وعادت سوسن إلى الفندق وهي تفكر من أين ستبدأ مشوار بحثها عن صالات العرض غداً صباحاً.

فهي قد أعدت قائمة مسبقاً، تتضمن أسماء وعناوين صالات العرض، وكانت تنوي زيارتها خلال هذا الأسبوع الذي ستتواجد فيه في العاصمة.

ولكن، كانت هناك مسألة أخرى تشغل تفكيرها، بعد أن لمست لهفة نغم لمعرفة تفاصيل حياة والدها.

فهي لم تنتهي بعد من قراءة كامل المذكرات، ولا تدري

ما الذي قد تخبئه الصفحات القادمة من مفاجئات، وما قد تكون عليه نوعية هذه المفاجئات.

وهل يجدر بنغم معرفة بعض تلك التفاصيل!

وبينما هي سارحة في تلك الأفكار غطت في نوم عميق.

الفصل السابع عشر

خطوات متعثرة

استيقظت سوسن صباح اليوم التالي، وتناولت فطورها سريعاً، واستقلت سيارة أجرة، وبدأت مشوار البحث عن صالة عرض مناسبة؛ لإقامة المعرض الذي ناقشت تفاصيله مع السيدة وصال منذ أسابيع.

كانت القائمة التي أعدتها، تتضمن مجموعة من الأسماء والعناوين والتي قررت زيارتها.

تنقلت سوسن من عنوان لآخر، واجتمعت بالمسئول عن كل صالة، لمعرفة الأسعار، والتفاصيل الأخرى المتعلقة بذلك.

وبعد كل لقاء، كانت تشعر بالإحباط، جرّاء الأسعار المرتفعة التي تفاجأت بها، ولم تكن تتوقعها.

ولكنها كانت تحصل على معلومات وتفاصيل جديدة

عن الميزات الإضافية، والعروض التي يمكنها الحصول عليها، لتستخدمها في لقاءاتها التالية.

عادت سوسن إلى الفندق مساء ذلك اليوم، وهي تعترف أنها تشعر بالإحباط جرّاء عدم تمكنها من إحراز أي تقدم، وشعرت بأن المسألة أصعب مما كانت تتوقعه، بسبب ارتفاع أسعار الصالات.

ولكنها كانت مصممة على البحث أكثر، وتمنّي نفسها بأنها ستتمكن من العثور على مكان مناسب لإقامة المعرض، وفي الحصول على أسعار تكون في متناولها.

واستمرت سوسن لعدة أيام في البحث، ومقابلة المسئولين في تلك الصالات، دون أن تتمكن من إحراز أي تقدم.

ورحلتها كانت توشك على الانتهاء، وينبغي عليها العودة إلى البلدة.

مضت خمسة أيام على وصولها إلى العاصمة، وهي لا تكف عن البحث، وقد اجتمعت خلالها بنغم عدة مرات، دون أن

تنقل إليها شعورها اليائس، وكانت تطمئنها بأن الأمور تسير بشكل جيد.

كان آخر لقاء لها مع مسئول أحد الصالات ظهيرة يوم الخميس، وهو اليوم المحدد لعودتها، ولكنّها مجدداً تفاجأت بالأسعار المرتفعة، ولم تتمكن من تحقيق أي نتيجة.

أنهت اجتماعها مع المسئول بالصالة، وخرجت لتتوجه لإدارة الصحيفة؛ لمقابلة الأستاذ سليمان مجدداً، فهو سبق وأن وعدها بالرد عليها خلال يومين، وها قد مضت خمسة أيام دون أن تتلقى منه رداً.

وصلت سوسن لإدارة الصحيفة، وتوجهت إلى مكتب الأستاذ سليمان، ولكنها تفاجأت بأن الأستاذ سليمان قد سافر في رحلة عمل لعدة أيام، ولن تتمكن من لقائه.

توجهت سوسن إلى المحطة، واستقلت القطار العائد إلى البلدة.

كانت سوسن تشعر باليأس والإحباط من كل تلك التفاصيل التي حصلت، وعدم تمكنها من إنجاز أي شيء في رحلتها، والتي كانت تصفها بينها وبين نفسها بالرحلة الفاشلة.

ضلت طوال الطريق، تراقب من خلال نافذة القطار كل تلك المشاهد التي تمرّ بها، وتذكرت رحلة الأستاذ محسن في طفولته، في طريقه إلى الملجأ برفقة هشام، حين حاول كسر الملل بمراقبة الشمس وهي تختبئ منه خلف الأشجار.

بدأت سوسن بالبكاء، فقد كانت تشعر بأنها توشك على خذلان الأستاذ محسن، جرّاء عدم تمكنها من تحقيق أي شيء يذكر من أجله، وبينما هي تبكي كانت تهمس بصوت مرتجف: **"سامحني"** وتكررها.

رن جرس هاتف سوسن، تناولت هاتفها ونظرت إليه، فكان المتصل هي السيدة وصال، والتي كانت تحاول الاطمئنان عليها.

أجابت سوسن على الاتصال وصوتها يرتجف، ولم تتمكن من السيطرة على مشاعرها، مما أفزع السيدة وصال، وتوقعت أن هناك سوء قد أصاب سوسن.

ولكن سوسن ردت عليها وهي تحاول طمأنتها: **"لا تقلقي علي سيدة وصال.. أنا بخير"**

وصال: **"إذاً ما الأمر.. لم تبكين آنسة سوسن!"**

سوسن: **"أرجوك لا تقلقي سيدة وصال.. ولكن هل يمكنني زيارتك في المنزل بمجرّد وصولي إلى البلدة؟.. أشعر بحاجتي للحديث معك.. ولا أحد سواكِ"**

وصال: **"بالطبع عزيزتي.. سأكون بانتظارك"**

أنهت سوسن الاتصال، وأسندت مؤخرة رأسها إلى المقعد وأغمضت عينها، وشعرت بأنها تسابق القطار لتصل بسرعة، وترتمي بين ذراعي السيدة وصال؛ لتشعر ببعض الراحة.

الفصل الثامن عشر

جلست السيدة وصال وهي تنتظر بقلق وصول الانسة سوسن إليها.

لم تصدق كلام سوسن أنها بخير، وكانت تشك بأنها تكذب؛ لمجرّد طمأنتها لا أكثر.

سمعت السيدة وصال صوت جرس الباب، فنهضت مسرعة، وهي واثقة بأن الآنسة سوسن هي من يقرع الجرس.

فتحت الباب، وكانت سوسن بالفعل من يقف أمامها.

نظرت السيدة وصال في عيني سوسن، وكان يبدو عليهما أثر البكاء بشكل واضح.

طلبت منها السيدة وصال الدخول بسرعة، وبمجرّد دخولها؛ قامت سوسن باحتضان السيدة وصال وبدأت بالبكاء، مما زاد

من قلق السيدة وصال، ولم تتوقف عن سؤالها عن سبب كل هذا البكاء.

طلبت منها سوسن أن تمهلها لحظات فقط لتستريح؛ ومن ثم ستقوم بشرح كل شيء.

تركت السيدة وصال سوسن لتستريح قليلاً، وتوجهت إلى المطبخ لإعداد مشروب ساخن، علّه يساعد سوسن على الاسترخاء قليلاً.

عادت وقدمت إليها المشروب، وجلست بجوارها، دون أن تسألها عن شيء، ومضى بعض الوقت في صمت، والسيدة وصال تنتظر بقلق أن تبدأ سوسن بالحديث.

ولكن صمت سوسن طال قليلاً، فلم تتمكن السيدة وصال من السيطرة على قلقها، فصرخت في سوسن قائلة**: "هيّا تحدثي.. إلى متى سأنتظر أن تبدأي الكلام.. وتتركيني أنتظر في قلق"**

صرخة السيدة وصال أفزعت سوسن، وأخرجتها من حالة الصمت والوجوم تلك، وانفجرت بعدها ضاحكة من الطريقة التي كانت تنظر بها السيدة وصال إليها.

تعجبت السيدة وصال من ضحكة سوسن، ولكنها شعرت ببعض الارتياح حين رأتها تضحك بتلك الطريقة، وتأكدت بأن الأمر ليس بذلك السوء، وإنما هي أحد نوبات سوء المزاج الذي كانت تمرّ بها سوسن بين الحين والآخر، والتي بدورها كانت تعرفها جيداً، وعايشتها مراراً.

فبادرتها بالقول: **"الآن بدأتي بالضحك!.. نعم اضحكي.. فما أجمل ملامحك وأنت تضحكين يا آنسة سوسن"**

سوسن: **"أعلم أني تسببت لك ببعض الانزعاج والقلق.. وربما لم يكن الأمر يستحق ذلك.. وأعتذر عما تسببت به لك"**

بدأت سوسن في الحديث، وسرد كل تلك التفاصيل والمواقف المحبطة التي واجهتها خلال رحلتها إلى العاصمة.

والسيدة وصال تستمع إليها دون أن ترد بأي كلمة.

وحين انتهت سوسن من حديثها، نظرت إليها السيدة وصال وابتسمت ابتسامة هادئة ورقيقة، وأمسكت بيد سوسن وقالت لها: **"لقد اتفقنا أنا وأنت منذ أسابيع على كل ذلك.. وأنا واثقة بأنكِ كنتِ صادقة في رغبتك في القيام بأي شيء..**

يمكن من خلاله أن نعبّر عن حبنا.. ومدى تقديرنا للأستاذ محسن.. ومتى كنا صادقين في أمنياتنا.. سنكون قادرين على تحقيقها.. أطلب منك أن تكوني مطمئنة"

سوسن: **"كيف لي أن أطمئن!.. والموضوع يواجه عائق المال، والمبالغ التي تطلبها تلك الصالات ليست بالمبالغ التي يمكننا تأمينها بسهولة.. فالمبالغ المطلوبة لن يقل عن خمسة عشر ألف دينار"**

وصال: **"إذاً.. علينا أن نبذل المزيد من الجهد، ونجري المزيد من البحث"**

الفصل التاسع عشر

عودة للانكماش على الذات

صباح اليوم التالي، وبينما كانت سوسن تنهي بعض الأعمال في مكتبها، رن جرس هاتفها، وكان المتصل هو الأستاذ سليمان.

قامت سوسن بالرد على الأستاذ سليمان على الفور، وهي تنتظر أن تسمع قراره.

وبالفعل، فقد أخبرها بأنه موافق على نشر السلسلة القصصية في الصحيفة، وذلك بعد أن اعتذر لها عن تأخره بالرد عليها؛ بسبب انشغاله.

كما ناقش معها التفاصيل الأخرى، والمتعلقة بتحديد الموعد المناسب للبدء بالنشر، واتفقا على أن يكون في بداية الشهر المقبل.

أقفلت سوسن الخط وهي تشعر بسعادة كبيرة، وعلى الفور اتصلت بنغم، ثم السيدة وصال، لتخبرهم عن الامر.

عادت سوسن مساء ذلك اليوم إلى المنزل، وهي تشعر بحماس أكبر لمواصلة قراءة المذكرات، وإعادة صياغتها لتكون مناسبة للنشر بالصحيفة.

كانت سوسن قد توقفت منذ أيام، عند قصة الفقد التي مرّ بها الأستاذ محسن، ومغادرة الآنسة هند، وبدأت بتصفح الصفحات التالية.

كان الأستاذ محسن في هذه المرحلة يشعر بالحزن الشديد؛ جرّاء فقده لمعلمته الآنسة هند، والتي كان لها الفضل الأكبر في إلهامه ودعم موهبته.

ولكن، ما كان يشعره بمزيد من الألم؛ هوه فقده لها شخصياً، وقد أعترف للمرة الأولى بينه وبين نفسه، بأنها لم تكن بالنسبة إلية مجرّد معلمة أو داعمة، فقد قالها أخيراً بأنه كان مغرماً

بهذه الإنسانة، بالرغم من أنه كان يرفض الاعتراف بتلك الحقيقة منذ أن رآها للمرة الأولى.

واصل الأستاذ محسن حديثة عن مشاعرة التي تلت تلك الفترة، والتي وصلت به إلى حد الاكتئاب، والابتعاد عن أي شي، وكل شيء، حتى عن هواية الرسم التي عشقها من خلال الآنسة هند.

ويواصل حديثه بالقول: أنه كان يحاول العودة لممارسة الرسم لعدة مرّات، ولكنه كان غير قادر على إنجاز أي لوحة تشعره بالرضا.

وبدأ يلاحظ، كيف أن كل اللوحات التي حاول رسمها في تلك المرحلة، كانت تفضح بشكل صارخ مشاعرة، ومدى إحساسه بالاكتئاب.

واستمر على هذه الحال لعدة أشهر، حتى انقضت الإجازة الصيفية، وبدأ العام الدراسي الجديد، والذي كان يعتبر العام الأخير لمحسن في المرحلة الثانوية.

وبدأ محسن يتذكر أول يوم دراسي في العام الماضي، والذي كانت البداية التي جمعته بالآنسة هند، وذلك الصباح الذي أشرق بالنسبة إليه عن أجمل وجه كان قد رآه.

بدأ اليوم الدراسي بالنسبة إليه، كأي يوم آخر، خالي من أي شيء قد يشعره بالسعادة، وانتهى اليوم كما بدأ.

صباح اليوم التالي، استدعت السيدة فريدة مديرة الملجأ محسن إلى مكتبها، وكان يجلس بالمكتب رجل لا يعرفه، ولكن سبق وأن رآه أثناء طابور الصباح.

فأدرك بأنه قد يكون أحد المعلمين الذين تم نقلهم للعمل في الملجأ حديثاً.

وطلبت السيدة فريدة من محسن الجلوس، وقدمت إليه الرجل الذي يجلس على المقعد الآخر، وكان بالفعل كما توقع محسن، فقد كان معلم مادة الرسم الجديد، الذي سيحل محل الآنسة هند.

وكان سبب استدعاء السيدة فريدة لمحسن، ليتعرف إليه الأستاذ عمر، كون محسن أكثر الطلاب تميزاً في الملجأ بموهبته الفنية، ونظراً لأنه الوحيد الذي حقق مركزاً متقدماً،

وفاز بجائزة وزارة المعارف العام الماضي.

كان الأستاذ عمر شاباً في نهاية العقد الثالث من عمره، طويل القامة، ويتحدث بأسلوب مهذب وراقِ.

وبادر بالترحيب بمحسن، وطلب منه أن يطلعه على اللوحات التي أنجزها طوال فترة الاجازة.

هز محسن رأسه بالموافقة، ولكنه لم يكن يكترث للأمر، لأنه في الحقيقة كان قد فقد الشغف بالرسم، وربما بكل شيء، بعد شعور الفقد الذي عاناه طوال الفترة الماضية.

باتت الأيام تمر ثقيلة وباهتة، ولا تحمل أي جديد يسترعي انتباه محسن، وكأن شعور اللامبالاة هو ما يسيطر عليه بشكل عام، حتى بدأ مستواه الدراسي بالتأثر بشكل واضح وملحوظ.

فبعد النتائج الرائعة التي حققها العام الماضي على المستوى الدراسي والفني، تحول محسن إلى شخص قليل التركيز، ومشتت الذهن.

الأمر الذي لاحظه الجميع، وتطلب تدخل السيدة فريدة، وطلبت حضوره الى مكتبها لعدة مرات؛ لتستفهم منه عن السبب.

ولكنه دائماً ما كان يجاريها في الكلام، ويقدم لها الوعود بأنه سيحاول التحسين من مستواه الدراسي.

في أحد الأيام، كان محسن يسير في أحد الممرات، وقابل الأستاذ عمر صدفة.

استوقفه الأستاذ عمر للحديث معه قليلاً وسؤاله، فقد مرّت عدة أسابيع على طلبه بأن يرى لوحاته الفنية التي أنجزها طوال فترة الإجازة، ولكن محسن لم يعرض عليه أي شيء من تلك الأعمال حتى الآن.

رد محسن بارتباك، محاولاً تجنب الإحراج الذي وقع فيه، وأجاب بانه سيفعل ذلك بالتأكيد.

فسأله عمر إن كان بالإمكان أن يفعل ذلك الآن؟

وحينها، لم يتمكن محسن من اختلاق أي عذر، واضطر لاصطحاب الأستاذ عمر إلى غرفته.

كانت غرفة نوم محسن بسيطة كبقية غرف الطلاب من نزلاء الملجأ، باستثناء وجود الركن الخاص بالرسم، والذي يحتوي منصة رسم كبيرة، وطاولة عليها مجموعة الألوان والفراشي.

دخل الأستاذ عمر الغرفة، وبدأ في فتح تلك اللفافات الموضوعة في أحد الزوايا.

وما أن انتهى من مشاهدتها جميعاً؛ التفت نحو محسن، وملامحة تنم عن بعض الحيرة.

فتوجه إلى محسن متسائلاً: **"سبق لي وأن ألقيت نظرة على العديد من لوحاتك الموجودة في قاعة الرسم بالملجأ.. تلك اللوحات التي أظن أنك قمت برسمها العام الماضي.. ولكني الآن استعجب من هذه اللوحات الجديدة.. فهي سوداوية وكئيبة إلى حد بعيد.. بعكس لوحاتك السابقة.. والتي كانت تتمتع بروح مشرقة.. هل من تفسير لذلك!"**

صمت محسن ولم يتحدث.

عاد عمر للقول: **"محسن.. الجميع يتحدث عن التغيير المفاجئ الذي طرأ عليك.. فالجميع يلحظ أنك بت أكثر انطوائية**

مما سبق.. كما أن تحصيلك الدراسي بات في أدنى مستوى.. وكنت أتطلع لأن تزورني في قاعة الرسم منذ أن انتقلت إلى هنا.. ولكنك لم تفعل.. وكنت أتوقع أن نكون أصدقاء.. بما أننا نحمل نفس الشغف تجاه الفن"

رد محسن: **"لم أعد أهتم لهذا الأمر الآن"**

عمر: **"إنني أشك في مدى صدقك في هذه المسألة.. فالفنان لا يمكنه أن يفقد الاهتمام كلية فيما يحبه.. نعم.. قد يفقد الشغف لفترة مؤقته.. ولكن لا يمكن أن يحصل ذلك إلى الابد"** ثم تابع: **"هل يمكننا تسمية هذا باستراحة المحارب؟"**

محسن: **"الأمر ليس بالصورة التي تتحدث عنها.. ولكني فعلياً لم أعد أهتم"**

التفت عمر نحو الركن الخاص بالرسم في غرفة محسن، فلفت انتباهه وجود لوحة ملفوفة خلف الطاولة، وربما الطريقة التي وضعت بها هناك؛ كانت تدل على أن محسن يتعمد إخفائها عن أنظار أي متطفل.

توجه عمر نحوها وانتزعها من مكانها، والتفت باتجاه محسن

وسأله بلطف: **"هل يمكنني فتحها وإلقاء نظرة عليها؟"**

التزم محسن حينها بالصمت، وقام الأستاذ عمر بفتحها ورؤيتها.

كانت اللوحة تحتوي على صورة لامرأة جميلة، فتساءل عمر من تكون تلك الفتاة؟

صمت محسن للحظات، ثم أجاب بتثاقل بأنها صورة الآنسة هند.

حاول عمر أن يخمن من قد تكون هند، ولكنه تنبه للأمر بسرعة، وسأله إن كان يقصد الآنسة هند معلمة الرسم التي سبقت نقله إلى الملجأ.

فاكتفى محسن بهز رأسه بأنها هي بالفعل.

تقدم عمر نحو الكرسي الوحيد بالغرفة، وجلس عليه وهو يمسك باللوحة بيديه، وأخذ يتأملها، ثم سأل محسن: **"هل كانت الآنسة هند بهذا الجمال فعلاً.. أم تُراك بالغت برسمها بهذه الملامح الملائكية يا محسن!"**

محسن: **"لا.. لقد كانت كذلك بالفعل"**

بدأ عمر بلف اللوحة مجدداً، وأعادها إلى مكانها مرّة أخرى، ومن ثم اقترب من محسن، ووضع يده على كتفه وقال: **"سأنتظر قدومك إليَ غداً في قاعة الرسم يا محسن"** ثم سأله: **"ستفعل اليس كذلك؟"**

أجاب محسن: **" حسنا يا أستاذ عمر.. سأفعل"**

عمر: **"أ تعدني بأن تفعل؟"**

محسن: **"نعم أعدك"**

خرج الأستاذ عمر من الغرفة، وتوجه محسن نحو سريرة واستلقى عليه، وبدأ بتذكر تلك اللحظات التي كان يقضيها بصحبة الآنسة هند، وكل ذلك الشغف الذي كان يملأ قلبه تجاه الرسم، وكيف تحول كل ذلك إلى مجرّد ذكرى من الماضي، وباتت تلك الألوان والفراشي أشبه ما يكون بكومة من النفايات التي تزحم المكان، ويجب التخلص منها دون تردد.

في اليوم التالي توجه محسن إلى قاعة الرسم، ودخل بهدوء كعادته، ليجد الأستاذ عمر منهمك في أنجاز أحد لوحاته.

وحين اقترب منه، تفاجأ محسن بالصورة التي كان يقوم برسمها الأستاذ عمر، وهي صورة لشخصية نسائية، تحمل الكثير من ملامح الشبه بالأنسة هند.

انتبه الأستاذ عمر لدخول محسن، فالتفت إليه وخاطبه بسعادة: **"وأخيراً يا محسن.. أنت هنا!"**

واصل محسن تحديقه باللوحة التي يعمل عليها عمر.

التفت الأستاذ عمر نحو اللوحة، وقال: **"أعلم بأنك لاحظت الشبه.. حقيقة الآنسة هند كانت تملك ملامح جذابة للغاية وملائكية.. وقد ألهمتني ملامحها كثيراً.. وقررت أن أرسمها"** ثم نظر نحو محسن وسأله: **"هل سيزعجك ذلك يا محسن؟"**

رد محسن بالنفي.

نظر الأستاذ عمر نحو لوحته وتأملها قليلاً، ثم عاد للحديث: **"أتدري يا محسن.. لا يملك الرجل منا القوة الكافية ليصمد أمام مثل هذا الجمال.. هل توافقني الرأي؟"**

صمت محسن ولم يرد.

تابع عمر حديثه: **"هناك رجال محكومون بغرائزهم الفطرية.. ولكن الفنان ينظر لجمال المرأة بشكل أكثر عمقاً.. ولذلك قد يكون هو الأضعف في مقاومته"** ثم صمت للحظة، وعاد ليوجه كلامه لمحسن وهو ينشغل بإكمال الرسم: **"وأنا أدرك جيداً.. بأنك فنان"**

كان عمر يقصد كل كلمة يتفوه بها، لأنه أدرك بأن التعاسة التي تعتري محسن، لم تكن إلا بسبب فقده لمعلمته الانسة هند.

واراد من خلال كلامه، أن يوصل رسالة محددة إلى محسن؛ تخبره بأنه بات يتفهم مشاعره.

بعد ذلك، بدأ عمر يحاول الانتقال بالحديث باتجاه آخر، يسعى من خلاله لإعادة ذلك الشغف المفقود لدى محسن، ويحاول أن يجتاز به هذه المرحلة، فبادر بسؤاله: **"ماهي خططك لمَ بعد اجتيازك العام الدراسي.. والذي هو الأخير بالنسبة لك؟"**

رد محسن بأنه لا يملك أي خطط.

عمر: **"حسناً.. ولكني كنت أتوقع أنك تطمح لدارسة الفن.. فهذا سيكون مناسباً جداً لشخص مثلك.. يملك هذا القلب**

الرقيق.. وأنا أثق تماماً بأنك ستحقق النجاح في هذا المجال.. كما أنني أثق بأنك لن تتمكن من تحقيق أي نجاح في أي مجال آخر.. أتمنى أن تفكر في كلامي جيداً يا محسن"

رد محسن بأنه سيفعل، وهم بالمغادرة، ولكن عمر استوقفه للحظه، وسأله: **"هل ساراك غداً؟"**

أجاب محسن بأنه سيأتي غداً.

كان حديث عمر الودي، قادراً على أن يجعل محسن يعيد التفكير في كل شيء من جديد، مما دفعه للتردد مرة أخرى على قاعة الرسم بالملجأ بشكل منتظم.

وفي كل مرّة، كان عمر يحاول تشجيع محسن، وإحياء ذلك الشغف الذي خمد فيه.

وبالفعل، فقد عاد محسن لممارسة الرسم، وفي كل مرة كان عمر يعلمه شيءً جديداً، ويحاول التطوير من موهبته الفنية باستمرار.

الفصل العشرون

الحقيقة

أنتهى العام الدراسي، وأعلنت النتائج النهائية، وقد تمكن محسن من إنهاء دراسته، وإن لم يتمكن من الحصول على نتائج متقدمة، إلا أنها كانت كافية لأن ينتسب لكلية الفنون في أي جامعة.

وبدأت إدارة الملجأ في توزيع النماذج على الطلاب المتخرجين؛ لاستطلاع رغباتهم وميولهم الدراسية؛ لتتمكن إدارة الملجأ بدورها من البحث لهم عن القبول في أحد الجامعات، المتوفرة بالعاصمة.

وقد شعر محسن، بأنه قد حان الوقت لأن يخاطب أخاه هشام بخصوص حقه في إرث والدهم، لكي يتمكن من الانتساب لجامعة النخبة التي أخبرته عنها الآنسة هند، وقالت له بأن الدراسة في هذه الجامعة ستكون مكلفة.

وفي أحد الأيام، توجه محسن إلى مكتب السيدة فريدة، والقى عليها التحية، وجلس على المقعد أمام مكتبها.

ردت السيدة فريدة عليه التحية، وسألته عن سبب قدومه؟

أجاب محسن: **"أنني أرغب سيدتي في الحصول على عنوان أخي هشام.. أو أي وسيلة اتصال ممكنه معه.. فهل ذلك ممكن؟"**

ردت السيدة فريدة: **"نعم قد يكون ذلك ممكناً.. سأبحث في ملفك الشخصي الموجود لدينا بالملجأ.. وقد أعثر على ما تريد.. ولكني أتساءل لم قد ترغب في ذلك؟"**

رد محسن بأنه يرغب في مكالمته ولقائه؛ ليخبره بأنه قد أنهى دراسته، وقد تخرج من الثانوية.

استأذنت السيدة فريدة من محسن للحظات، ومن ثم عادت وهي تحمل في يدها ورقة صغيرة، مدون عليها رقم هاتف، وعنوان منزل والد محسن.

فعندما ترك محسن منزل العائلة منذ ما يقارب الـ ١٠ أعوام، كان في سن التاسعة، ولم يكن بإمكانه في تلك السن التعرف على العناوين جيداً.

تناول محسن الورقة من السيدة فريدة، واستأذنها في إجراء المكالمة، وبدورها سمحت له بذلك، وبادرته بالقول: **"لا يمكنني الجزم بأن الرقم لا يزال يخص نفس العنوان.. فقد مرّ زمن على تلك البيانات المتوفرة لدينا في الملف.. ولكن أتمنى أن يكون لايزال الرقم يخص هشام"**

ولكي يتمكن محسن من الحديث دون حرج، استأذنت السيدة فريدة بالخروج من المكتب، ريثما ينهي مكالمته.

اتصل محسن بالرقم الموجود على الورقة، وماهي سوى لحظات، حتى أجابت سيدة على الاتصال.

القى محسن عليها التحية، وأخبرها بأنه يرغب في التحدث مع هشام.

طلبت منه السيدة أن يمهلها للحظات لكي تستدعي السيد هشام.

وبذلك اطمئن محسن بأن الرقم لا يزال يخص هشام بالفعل، وبدأ ينتظر قدومه.

لحظات، وتناول هشام الهاتف، وأجاب بـ **"نعم"**

القى محسن عليه التحية، وسأله عن أحواله، ورد عليه هشام التحية، وسأله من يكون؟

محسن: **"لقد مرت سنوات طويلة يا هشام.. أنا أخوك محسن"**

صمت هشام للحظة، وكأنه متفاجئ باتصال محسن.

دار بعد ذلك بينهم حديث سريع، وطلب محسن خلاله تحديد موعد، لأنه يرغب في لقائه، وتم تحديد الموعد يوم غد، بعد تردد هشام في الأمر.

انتهت المكالمة بشكل يفتقد لأي مشاعر من الممكن أن تكون بين أخوين يتحدثان لبعضهم، بعد كل تلك السنوات الطويلة من الفراق.

أنهى محسن المكالمة، وجلس على المقعد بانتظار عودة السيدة فريدة.

مرّت عدة دقائق، وعادت السيدة فريدة، وجلست خلف مكتبها.

هنا، بادرها محسن بالسؤال، إن كان بإمكانه الحصول على الإذن يوم غد، للخروج من الملجأ، والتوجه لزيارة هشام.

وكانت أنظمة الملجأ، تسمح للطلاب الذين أنهو المرحلة الثانوية بالخروج بحرية وبمفردهم خارج الملجأ.

قضى محسن تلك الليلة، وهو يحاول ترتيب أفكاره لهذا اللقاء، الذي قد يكون مزيجاً ما بين المشاعر الباردة والحادة، نظراً للموضوع الذي ينوي محسن مناقشته مع هشام.

فلم يكن محسن يتصور بأن هشام سيرحب به كثيراً، خاصة بعد أن يعرف مبتغى محسن من وراء هذه الزيارة.

في مساء اليوم التالي، خرج محسن للقاء هشام في المنزل، ذلك المنزل الذي عاش فيه طفولته، والتي كانت أجمل سنوات عمره.

استقل محسن سيارة أجرة، وتوجه نحو العنوان الذي حصل عليه، وهو يشعر بكثير من التوتر والقلق.

واسترجع تلك اللحظات التي مشى فيها في نفس هذا الطريق، في رحلته نحو الملجأ منذ سنوات، وتلك اللعبة الساذجة التي مارسها بينه وبين نفسه مع الشمس، التي تخيل أنها كانت تختبئ منه خلف الأشجار.

وما أن وصلت المركبة بمحسن إلى باب المنزل، حتى عادت إليه كل تلك الذكريات عن طفولته.

بدأ يخطو خطواته نحو البوابة، واجتازها، وبدأ بالسير في الحديقة التي اعتاد اللعب فيها في طفولته.

لم يكن قد طرأ عليها الكثير من التغيير، باستثناء بعض التفاصيل الصغيرة التي ليس بمقدورها أن تغير من ملامح المكان بالكامل.

توجه محسن نحو الباب الرئيسي للمنزل، وقرع جرس الباب، ووقف ينتظر إلى أن سمع صوت نفس السيدة التي أجابت على اتصاله بالأمس، والتي تبين له لاحقا أنها الخادمة التي تعمل هنا.

فتحت له الباب، وطلبت منه الدخول، وأجلسته بمكتب السيد هشام.

دخل محسن وهو يتأمل في أنحاء المنزل، ومن ثم جلس على أحد المقاعد بالمكتب.

وكم كان يحلم بالصعود إلى الطابق الثاني؛ لرؤية غرفة نومه، وغرفة نوم والديه.

دقائق، وعادت الخادمة وهي تحمل فنان القهوة وكوب الماء، وقدمتهم إلى محسن.

وجلس محسن ينتظر قدوم هشام، ويفكر فيما سيكون عليه شكل اللقاء الأول بينهم، بعد كل هذه السنوات.

مضى بعض الوقت، وسمع بعدها محسن صوت خطوات رجل تقترب من المكتب، وعلم أنه بلا شك أخوه هشام.

وبالفعل، دخل هشام إلى المكتب، وتوقف للحظة عند الباب وهو يحدق في محسن.

نهض محسن على قدميه، وهو بدوره ينظر نحو هشام، وتبادل كل واحد منهم النظرات مع الآخر للحظات.

لقد تغيير الاثنان كثيراً بعد هذه السنوات، فهشام بات رجلاً في بداية الثلاثين من عمره، ومحسن الآن شاب يقارب العشرين من العمر، ولم تتبقى فيه الكثير من ملامح الطفولة التي يعرفها هشام.

تقدم هشام بخطوات ثقيلة باتجاه محسن، ومد يده باتجاهه لمصافحته، وطلب من محسن التفضل بالجلوس.

جلس محسن، وساد صمت ثقيل بين الاثنين للحظات، لم يبادر أي طرف منهم بالحديث إلى الآخر.

فبادر محسن بسؤاله عن أحواله، وبدوره أجاب هشام بشكل مختصر أنه بخير.

وبدأ محسن بالحديث عن ذكرياته في هذا المنزل، وأنه لا يزال يتذكر الكثير من تفاصيله.

وتابع بأنه لايزال يتذكر جلوس والدهم في هذه الغرفة خلف مكتبه، بالرغم من أن المكتب الموجود الآن في المكان هو مكتب جديد.

وبينما كان محسن يستمر بالحديث، سمع صوت أطفال

آتي من خارج الغرفة، فبادر بسؤال هشام إن كان أولئك الأطفال هم ابناءه؟ فأجابه هشام أنهم بالفعل كذلك.

فسأل محسن: **"ألن تدعوهم للسلام علي!"**

وكأن هشام شعر ببعض الحرج من ذلك، ولكنه نهض وتوجه باتجاه باب المكتب، واستدعى الطفلين للقدوم بسرعة.

دخل الطفلان إلى حجرة المكتب، وطلب منهم هشام بالتقدم والقاء التحية على محسن.

ونظر محسن نحو هشام وسأله بنبرة لا تخلو من العتب: **"ألن تخبرهم من أكون بالنسبة إليهم!"**

تصنع هشام بأنه لم ينتبه لكلام محسن، وطلب من الطفلين بالخروج من الغرفة بعد القاء التحية.

وجلس مرّة أخرى في مواجهة محسن، وفي هذه المرّة بادر هشام بالسؤال: **"أخبرني يا محسن.. إلى أين وصلت في دراستك؟"**

فأجاب محسن، بأنه قد أنهى تعليمه الثانوي، وبأنه ينوي الانتساب للجامعة، والى كلية الفنون بالتحديد.

رد هشام: **"كلية الفنون.. جميل يا محسن.. وأتمنى لك التوفيق فيما تطمح إليه"**

محسن: **"شكراً لك يا هشام.. وهذا الأمر الذي جاء بي اليك"**

هشام: **"وما الذي تحتاجه مني في موضوع يتعلق بدارستك الجامعية!"**

محسن: **"هشام تعلم بأنني قد تجاوزت الثامنة عشرة من عمري الآن.. وبات من حقي الحصول على نصيبي من إرث والدنا.. وأنا بحاجة إلى هذا المبلغ لكي أتمكن من مواصلة دراستي في الجامعة التي أرغب في الانتساب إليها"**

لم تبدو على ملامح هشام أي ردة فعل واضحة، واكتفى بالصمت للحظات.

نهض هشام، وتوجه نحو باب المكتب وقام بإغلاقه، وعاد للجلوس في مكانه مرّة أخرى، ومحسن ينظر إليه، وينتظر رده على ما قاله.

أسند هشام مرفقيه على مسند الكرسي، وشبّك أصابع كفية، وبدأ بتحريكهما بشكل فيه شيء من التوتر، ثم هم بالقول:

"محسن.. أعلم أن الأمر لا يمكن قوله بأي شكل لطيف.. مهما اجتهدت في جعل كلماتي لطيفة.. وحقيقة أنك فاجئتني بقدومك أولاً.. وبطلبك بشكل أكبر.. وكنت أظن أن إدارة الملجأ لابد وأن تكون قد تكفلت بهذا الأمر.. ولكني أستغرب أن ذلك لم يحصل حتى الآن!"

تعجب محسن من كلام هشام، ولكنه كان يخمن أن تلك لم تكن سوى مناورة متوقعه من طرفة، للتمهيد لخدعة ما، ينوي هشام نسجها، ليجد وسيلة للتملص من هذا الاستحقاق، ورد محسن بالسؤال: **"وما هو ذلك الأمر!"**

تلفت هشام نحو مكتبه، وكأنه يبحث عن طريقة مناسبة للحديث، ووقعت عيناه على اللوحة الموضوعة على المكتب، والتي تحمل اسمه.

تناولها، ومدها نحو محسن.

تعجب محسن، وسأل هشام ما الذي يقصده من وراء ذلك!

طلب منه هشام النظر إلى اللوحة، وقراءة الاسم المكتوب عليها.

نظر إليها محسن، وقرأ الاسم **(هشام صادق)**

وبادرة هشام بالسؤال: **"ما هو اسمك يا محسن؟"**

فرد محسن بأن اسمه: **"محسن عبدالمجيد"** وعاد للتساؤل: **"ولكن.. ما الذي يعنيه ذلك!"**

كانت ملامح الحرج بادية بشكل واضح على وجه هشام، وكأنه غير قادر فعلاً على تفسير الأمر.

فأعاد محسن سؤاله: **"ما لذي يعنيه ذلك يا هشام؟.. أخبرني دون كل هذه المقدمات التي تسوقها إلي"**

وهنا، بدأ هشام بالكلام، والذي سيكون وقعه كالصاعقة على مسامع محسن.

هشام: **"في حقيقة الأمر يا محسن.. كان يجدر بإدارة الملجأ إخبارك بكل هذه التفاصيل.. التي أتعجب أنك لازلت تجهلها.. دون أن أوضع أنا في هذا الحرج.. في الحقيقة يا محسن أننا لسنا أشقاء"**

محسن: **"ما لذي تعنيه بقولك هذا.. هل يعني ذلك أنك**

أبن لزوج سابق لوالدتنا!"

هشام: **"لا يا محسن.. الحقيقة أننا لسنا إخوة البتة.. حتى من جانب والدتنا"**

كانت الصدمة تفعل فعلها بعقل محسن، وهو يتلهف لسماع الحقيقة كاملة، بينما هشام يتلكأ في الإجابة على اسئلته بشكل مباشر.

فصرخ محسن في وجه هشام، وهو يطلب منه إخباره الحقيقة، وقول ما يود قوله دون اللجوء إلى كل تلك الإجابات الملتوية.

طلب هشام منه الهدوء، وأخبره بأنه سيسرد له الحقيقة كاملة، ودون مزيد من التمهيد.

بدأ هشام بالقول: **"حسناً يا محسن.. بعد أن أنجبتني والدتي بعدة سنوات.. واجهت ظهور ورم خبيث في رحمها.. مما تطلب ازلته بالكامل.. الأمر الذي كان يعني أنها لن تتمكن من الانجاب مرّة أخرى مستقبلاً.. وضلت والدتي لسنوات تعاني من آثار تلك الجراحة.. ونفسها تتوق للحصول على طفل ثاني.. وهي تلح على والدي لكي يوافق على تبني طفل آخر..**

بينما استمر والدي بالرفض لمدة طويلة.. ولكن حين لاحظ رغبة والدتي الشديدة في ذلك.. وافق على طلبها.. وبالفعل فقد توجه والدي الى الملجأ للحصول على طفل.. بشرط أن يكون لا يزال رضيعاً.. لأنهم في واقع الأمر.. لم يكونا يرغبان في أن يشعر ذلك الطفل بأي نوع من التمييز.. وأرادا له أن ينشا في كنف عائلتنا وكأنه فرد منها.. وقد وقع اختيارهم عليك.. حيث لم يكن عمرك قد تجاوز الأسبوع حينها.. اعتنيا بك جيداً.. وكنت أشهد ذلك بنفسي.. فقد كانت والدتي تحبك محبة أم لطفلها دون أي تمييز تجاهك.. نشأت في منزلنا طوال تسع سنوات.. وكأنك بالفعل فرد من العائلة.. ولكن بعد ذلك الحادث المشئوم الذي وقع لوالدي رحمهم الله.. لم يكن بمقدوري الاعتناء بك.. وكان من الطبيعي أن أعيدك إلى نفس الملجأ الذي جئنا بك منه"

كانت الصدمة شديدة على محسن، للدرجة التي لم يتمكن فيها من التفوه باي كلمة.

امسك راسه بكلتا يديه، وهوى بها بين فخذيه، واستمر لدقائق على هذه الحال، ثم رفع رأسه ونظر نحو هشام وهو يسأله: **"ومن يكون والدي!"**

رد هشام: **"حقيقة لا أملك أي معلومة عن هذا الأمر.. ولكني أعتقد أن ليس هناك والدان يمكنهم التخلي عن طفلهم بسهولة.. فربما يكونا متوفين.. أو"** وصمت ولم يكمل كلامه.

فبادره محسن بالقول: **" أو أن يكون طفلاً جاء نتيجة خطيئة رجل وامرأة.. هذا ما تقصده بالتحديد اليس كذلك؟"**

أشاح هشام بوجهه باتجاه آخر، لأنه لم يكن ينوي الرد على هذا التساؤل.

الفصل الحادي والعشرين

خرج محسن من المنزل، وهو لا يكاد يقوى على الوقف على قدميه.

سار باتجاه الطريق العام، واستوقف أحد مركبات الأجرة ليعود إلى الملجأ.

كان عالم محسن صغيراً وضيقاً للغاية، ولا يشبه عالم الناس الذين يعيشون خارج أسوار الملجأ.

كان يشعر بالاختناق، ويتوق للهروب والابتعاد عن أي أحد، وعدم العودة إلى الملجأ.

ولكن إلى أين سيذهب! وهو لا يكاد يعرف أي مكان في مدينته، ولا يملك في هذا العالم مكاناً سوى هذا الملجأ.

جملة من الأفكار كانت تدور في رأسه، منها إمكانية أن يكون

هشام قد أختلق هذه القصة لمجرّد خداعة، ولكنه عاد واستبعد هذه الاحتمالية، بعد أن تذكر اختلاف أسمائهم.

فكر في أن الملجأ قد تكون لديه إجابة مختلفة على تساؤلاته.

وصل إلى الملجأ، وكان الوقت يشير إلى الساعة التاسعة والنصف مساءً، وفي مثل هذا الوقت لن يكون أحد من إدارة الملجأ متواجداً، ليتمكن من الحصول على إجابة على تساؤلاته الملحة، باستثناء حارس البوابة الذي لا يملك المعرفة بمثل هذه التفاصيل.

قضى ليلته وهو يسترجع كل تلك الكلمات التي سمعها من هشام، وينتظر بفارغ الصبر بزوغ الصبح، ليتمكن من الحديث مع السيدة فريدة.

لم يتمكن محسن من النوم تلك الليلة، وهو يشعر بالصدمة من الحقيقة التي عرفها أخيراً.

ظل محسن مستيقظا حتى الصباح، وحتى موعد حضور السيدة فريدة.

خرج من غرفته، وتوجه نحو باب مكتب السيدة فريدة، وظل واقفاً هناك ينتظرها، حتى حضرت.

وبمجرّد رؤيتها له، القت عليه تحية الصباح، وأدركت من ملامحه أن هناك أمر ينوي محسن الحديث عنه معها بالتأكيد، فطلبت منه الدخول والانتظار في مكتبها، ريثما تعود إليه.

دخل محسن وجلس على المقعد، وهو ينظر عودة السيدة فريدة.

وما هي إلا دقائق، حتى عادت السيدة فريدة وهي تحمل معها كوبين من القهوة في يدها.

ناولت إحداها لمحسن، واستدارت وجلست خلف مكتبها.

وبمجرّد جلوسها، بادرها محسن بالسؤال: **"عليكِ أن تخبريني الآن.. من أنا.. ومن أكون.. ومن هم والداي؟"**

فريدة: **"أنت محسن عبدالمجيد"**

محسن: **"أدرك هذا الجانب من حقيقتي.. ولكني أتطلع**

لمعرفة الجزء المفقود من هذه الحقيقة.. لقد عشت طفولتي في منزل عائلة.. كنت أظنها حتى الأمس عائلتي الحقيقية.. حتى تفاجأت بعكس كل ما كنت أتوقعه عن نفسي.. أرجوك أخبريني من أكون؟"

فريدة: **"للأسف.. أن الحقيقة الوحيدة التي أنا متأكدة منها.. هي أن اسمك محسن"**

رد محسن: **"محسن.. محسن فقط!.. أليس لي اسم غير ذلك! وما لذي يجعلك متأكدة من أن اسمي محسن حقاً"**

فريدة: **"في صباح أحد الأيام يا محسن.. حضر أفراد من الشرطة إلينا في الملجأ كعادتهم.. وهم يحملونك بين أيديهم.. إجراء معتاد عليه حين يجدون طفلاً مجهول الأبوين.. وكما أتذكر حسب ما تم تحريره في محضر الاستلام.. بأن أحدم وجدك بجوار أحد الجوامع عند صلاة الفجر.. وأبلغ الشرطة.. والتي تقوم بدورها هي الأخرى بتسليم هؤلاء الأطفال إلينا بالملجأ.. وأذكر أن من تركك بجوار الجامع.. ترك معك رسالة.. تخبر فيها من يجدك.. عن يوم ميلادك.. واسمك فقط"**

هنا صرخ محسن: **"وأين تلك الرسالة؟.. أرغب في رؤيتها"**

طلبت منه السيدة فريدة الهدوء، واستأذنته لدقائق، ثم عادت وهي تحمل بيدها ملف محسن بالملجأ.

فتحت الملف، وبحثت بين الأوراق التي يحتويها، ومن ثم أخرجت له ورقة صغير مكتوبة بخط اليد.

تناول محسن الورقة منها بسرعة، واطلع عليها، ولم يكن مكتوب فيها سوى:

"وضعت طفلي مساء يوم الخميس، واسميته محسن.

أرجوكم اطلبوا منه أن يسامحني، وليغفر لي الله خطيئتي في حقه وحق نفسي

توقيع.. أماني"

الفصل الثاني والعشرين

تلك الليلة لم تتمكن سوسن من التوقف عن القراءة، وكانت تقلب صفحة المذكرات بلهفة، لتقرأ المزيد عن تلك الحقيقة المرّة، ولم تلحظ أن الساعة كانت تشير إلى الرابعة صبحاً.

كانت مصدومة مما قرأته للتو، فهي لم تتوقع أن تصل لهذه الحقيقة في حياة الأستاذ محسن، والتي كانت تجهلها عنه بالكامل.

وكم نجهل مرارة الحقائق التي نبحث عنها أحياناً، ونود لو أننا لم نتوصل إليها.

طوت المذكرات، وتوجهت سوسن لفراشها، وجملة من الأفكار تدور في رأسها، وكلها كانت تدور حول القصة التي تم ترتيب مسألة نشرها بالصحيفة، وتلك الحقيقة بالتأكيد غير ملائمة

للنشر، والمسألة الثانية التي أرقتها هي نغم، وكيف سيكون تأثير هذه الحقيقة عليها.

تلك الليلة لم تتمكن سوسن سوى من الحصول على قسط بسيط من النوم.

وفي الصباح، توجهت إلى مكتبها، ولا تزال الأفكار تصطدم ببعضها في رأسها.

وبمجرّد وصولها إلى المكتب، قررت مهاتفة السيدة وصال، للتحدث معها عن هذه المسألة.

جرت بين الاثنين مكالمة سريعة، واتفقتا على أن يلتقيا في منزل السيدة وصال مساء ذلك اليوم.

بعد أن أنهت أعمالها، توجهت سوسن على الفور إلى منزل السيدة وصال.

وكعادتها، استقبلتها وصال بابتسامتها وترحيبها الدافئ،

وهي على ثقة بأن هناك ما تود سوسن قولة، وأن هذه ليست مجرّد زيارة عادية.

دخلت سوسن وجلست على الأريكة، وتوجهت السيدة وصال إلى المطبخ لإعداد شيء لتشرباه سوياً.

عادت وصال، ووضعت الصينية وعليها فنجانان من القهوة، وجلست على الأريكة المجاورة وهي تنظر إلى سوسن، والتي كانت قد أسندت مؤخرة رأسها على مسند الأريكة، وأغمضت عينها، وكأنها تحاول النوم قليلاً.

جلست وصال دون أن تحدث أي صوت، ولكن سوسن تنبهت، وفتحت عينيها، فرأت السيدة وصال تحدق بها.

فأدركت سوسن ما الذي تعنيه تلك النظرات، وقالت لها مشاكسة: **"أرجوكِ لا تصرخي في وجهي.. سأتحدث الآن.. أعلم أنكِ تنتظرين سماع ما أود قوله"**

فردت وصال: **"حسناً تفعلين.. لأنني أنتظر هنا منذ عشرة دقائق.. وأنتِ مستغرقة في النوم.. وقد أنهيت فنجاني.. بينما بردت قهوتك"**

سوسن: **"أوه.. اعذريني سيدة وصال.. لا يهم سأشربها باردة"**

احتست سوسن أول رشفة من فنجانها، ثم التفتت إلى السيدة وصال، وبدأت بالكلام: **"حسناً سيدة وصال.. هناك ما يشغل بالي حقيقة.. والأمر له علاقة بمذكرات الأستاذ محسن.. فقد قرأت جزءاً كبيراً منها.. وقد توصلت إلى حقيقة لا يمكن لها أن تكون حقيقة قابلة للنشر على المستوى الصحفي.. أو حتى الشخصي.. وأنتِ تدركين أن نغم تتوق لمعرفة كل التفاصيل المتعلقة بحياة والدها"**

وحين همت سوسن بالحديث والبوح بحقيقة ما قرأت، أسكتتها السيدة وصال عن مواصلة الكلام، وهي تقول: **"لا يجدر بكِ الحديث لأي أحد عن تلك الحقيقة يا سوسن.. ولو كنت أنا"**

سوسن: **"ولكن أنتِ تشاركيني حب الأستاذ محسن.. وقد لجأت إليكِ للحصول على مشورتك فيما يتوجب علي فعلة.. وكيفية التصرف.. وكيف لكِ أن تخبريني بكل ذلك.. دون أن تعرفي تفاصيل القصة!"**

وصال: **"لا يهم أن أعرف تفاصيلها.. وأكتفي بأني قد عرفت**

بأن هناك أمور في حياة الأستاذ محسن لا يجدر بأحد معرفتها.. وأفضّل أن تبقى حبيسة دفتر المذكرات.. وألا يعلم بها أحد"

صمتت السيدة وصال للحظة، وتنهدت ومن ثم واصلت حديثها لسوسن: **"لقد عاش الأستاذ محٍسن بيننا لسنوات.. ورحل عنا تاركاً لنا من ورائه صورة جميلة عنه.. فلنترك تلك الصورة كما كانت حين رحيله"**

سوسن: **"ولكن كيف لي أن أتصرف؟"**

وصال: **"ليس بالضرورة أن تتضمن السير الذاتية لكل المبدعين على الحقائق كاملة عن حياتهم.. قد يمكننا تجاوز بعض الأجزاء منها.. أو ربما ترك ذلك لخيال كاتب السيرة ليتعامل معها بطريقته.. فعادة يا سوسن ما يتحول أولئك الرموز إلى مصدر إلهام لغيرهم.. فلنترك البقع المظلمة في حياتهم.. ونحترم خصوصية من رحلوا عنا"**

سوسن: **"فهمت ما تنوين قولة سيدة وصال.. ولكن نغم ترغب في استعادة هذه المذكرات بعد انتهائي من نشرها في الصحيفة؟!"**

وصال: **" حين تحين تلك اللحظة يا سوسن.. اتركي لي مسئولية التعامل مع هذا الأمر"**

الفصل الثالث والعشرين

ما بعد الحقيقة

عادت سوسن إلى منزلها وبدأت في قراءة المذكرات من جديد، ووجدت أن محسن قد دخل في حالة اكتئاب جديدة بسبب تلك الصدمة التي تلقاها.

وذكر أنه ضل حبيس حجرته لعدة أيام، ويرفض الخروج منها، أو الحديث مع أي أحد.

كان يتأمل في كل ما حصل له، وكل تلك الخيبات التي واجهها.

تذكر المرأة التي كان يظنها أمه الفعلية لسنوات، ويشتاق لحبها وحنانها الذي غمرته به لتسع سنوات، دون أن يشعر بأنه طفلها بالتبني.

بدأ ينظر إليها بشكل أكثر محبة وتقديراً، فامرأة مثلها تستحق التقدير.

وبينما هو يتذكرها؛ كان اسم أماني أمه الحقيقة يتداخل مع بقية الأفكار، ويتساءل من تكون؟ وأين هي الآن؟ ومن هو والده الحقيقي؟

عذّبته فكرة التخلي عنه بهذه السهولة، ولكن كان يعود ليقول: ربما كانت الظروف أقوى منها، وأجبرتها لتلقي بطفلها إلى المجهول، ويعود مجدداً لرفض تلك المبررات، ولا يجد لها أي عذر لما فعلت.

ثم يتذكر حلمه الذي كان ينسجه منذ عام ليلتحق بجامعة النخبة، وكيف تبخّر ذلك الحلم في لحظات! وكيف أن الحلم لم يتمكن من الصمود أمام الواقع البائس!

شعر بحاجة شديدة بان يلقي بنفسه بين أحضان شخص؛ وينفجر باكيا دون تردد، ولم يكن ذلك الشخص سوى الآنسة هند.

وتذكر حين دخل عليها في مكتبها، بينما كانت هي تتصفح ملفه الشخصي، وتذكر كل تلك الكلمات التي تفوهت بها حينها، والتي لم يتمكن من استيعاب ما كانت تقوله بين السطور.

ولكنه فهم كل ذلك الآن، فهي كانت قد علمت بالحقيقة،

ولكنها لم تملك الجرأة الكافية لتنقلها إليه، واكتفت بمحاولة تهيئته للحظة الحقيقة التي سيدركها في وقت ما بلا شك.

وضل محسن يدور بأفكاره داخل هذه الأعاصير من الأسئلة، والإجابات، والتناقضات، والمشاعر.

وبعد مرور عدة أيام؛ طرق أحدهم باب غرفته، وكان القادم هو الأستاذ عمر، والذي طلب من محسن أن يفتح له الباب.

نهض محسن من مكانه وفتح الباب، ودخل الأستاذ عمر وهو يحمل في يده ورقة، وجلس على السرير، بينما جلس محسن بجواره دون أن يتفوه بكلمة.

صمت عمر للحظات، ثم سأل محسن: **"هل أنجزت أي لوحة جديدة يا محسن خلال الأيام الماضية؟"**

وأجاب محسن بالنفي.

وهنا تحدث عمر مشاكسا: **"كنت أظن أن خلف هذا الانعزال الذي تمارسه منذ أيام عمل فني جديد.. ولكن خاب ظني!"** ثم أكمل عمر حديثه بشكل أكثر جدية هذه المرة:

"أنا أجهل السبب خلف ما تمرّ به منذ أيام.. وربما لا يجدر بي سؤالك عن ذلك.. ولكن يا صديقي.. المواقف القاسية في الحياة.. تشبه إلى حد كبير المبراة التي نستخدمها في بري أقلام الرصاص.. فهي لا تعمل على إصلاح الجزء المكسور من القلم.. ولكنها تعمل على كشط القلم طبقة.. طبقة.. حتى تصل وتكشف عن الجزء السليم.. وكذلك تعمل فينا التجارب القاسية.. فهي تزيل عنا أي ضعف.. لتكشف عن الجزء القوي منا.. وكل هذه الصدمات.. تعمل على إعدادنا بشكل أو آخر لنتمكن من مواجهة الحياة"

نهض عمر وهم بالخروج، ولكن توقف للحظة، ثم مشى نحو الطاولة بضع خطوات، ووضع الورقة التي كان يمسك بها بين يديه، والتفت إلى محسن وقال له: **"وضعت لك ورقة هنا.. وأنت تملك كامل الحرية في التوقيع عليها.. أو تركها في مكانها يعبث بها الغبار.. ويتراكم عليها.. كأي ورقة بالية لا تملك أي قيمة.. أنت تملك كامل الحرية يا محسن.. في أن تحول حياتك القادمة إلى مجرّد عبث.. أو شيء مهم"** وخرج عمر، وأغلق الباب من خلفه.

مرّت بضع دقائق، قام بعدها محسن بالتوجه نحو الورقة

التي وضعها الأستاذ عمر على الطاولة، واطلع عليها.

كانت الورقة عبارة عن نموذج طلب الانتساب لجامعة، والذي قامت إدارة الملجأ بتوزيعها على الطلاب المتخرجين منذ أيام، ولم يهتم محسن بتعبئتها.

كان الأستاذ عمر قد قام بنفسه بتعبئة كافة الحقول والبيانات الخاصة، بما في ذلك اسم الجامعة والكلية، ولم يتبقى سوى أن يوقع عليها محسن.

صباح اليوم التالي، نهض محسن وارتدى ملابسه، ونزل للقاء السيدة فريدة، وقدم لها النموذج بعد أن قام بالتوقيع عليه، وهم بالخروج.

ولكن السيدة فريدة استوقفته، وقالت له: **"ألا تفكر في الخروج إلى خارج الملجأ والتنزه قليلاً يا بني!.. كافة زملائك لم يكفوا عن الخروج منذ أن أنهو سنتهم الأخيرة معك"**

محسن: **"ولكن إلى أين سأذهب سيدتي؟.. فأنا لا أعرف أي شيء في الخارج"**

هنا دخل الأستاذ عمر، وسمع جانباً من حديث محسن، فألقى التحية عليهم، وأبلغ محسن بأنه ينوي اصطحابه في نزهة مساء اليوم، بعد انتهاء الدوام الرسمي.

وافق محسن على عرض الأستاذ عمر تحت الحاح الأخير، والسيدة فريدة.

وهنا، يذكر الأستاذ محسن في مذكراته، بأنه بعد تلك الفترة؛ شعر بأن حياته تستعد للانتقال لمرحلة جديدة مختلفة، خارج حدود عالمه الذي عاش حبيسه منذ سنوات، ولاحظ أن بخارج الملجأ حياة أخرى مختلفة، وبشر مختلفون، لهم حياة مغايرة للحياة التي يعرفها.

ولم يخفي خوفه من مواجهة هذه الحياة التي لا يزال يجهل قوانينها، وكيفية التعامل معها.

الفصل الرابع والعشرين

حياة جديدة

التحق محسن بالجامعة، وبدأ العام الدراسي الأول له، وانتقل للسكن في سكن طلاب الجامعة.

كانت غرفته عبارة عن غرفة صغيرة، لا تختلف كثيراً عما اعتاد عليه سابقاً في الملجأ.

فهي غرفة تحتوي على الأساسيات التي يحتاجها أي إنسان في مسكنه، دون وجود مساحة كبيرة من الرفاهية التي قد يتطلبها الآخرون، وترقى لتطلعاتهم.

ولكن علاقة محسن ضلت مستمرة بإدارة الملجأ، وكان عليها أن تستمر لسنوات قادمة.

فهو لا يزال يرتبط بها، في كل ما يتعلق بأموره المادية، من المصاريف التي تخص دراسته الجامعية، أو مصروفه الخاص.

وكعادته، لم يبادر محسن بكسر الحواجز بسرعة بينه وبين زملائه، وكان يبحث عن الانعزال مع نفسه في أغلب الأوقات، ويفضل الجلوس وحيداً.

وقد حاول إخفاء الحقيقة القاسية عن حياته، وحقيقة أنه تربى في ملجأ، كونه طفل لأبوين مجهولين.

ونسج لنفسه قصة، تمكّنه من التظاهر بأنه يملك عائلة وأقارب.

وبدأ محسن يكرّس كل وقته لهوايته التي يعشقها، والتي هي الآن ستشكل مستقبله في الحياة.

كانت الجامعة تقيم معارض فنية بشكل مستمر لطلاب كلية الفنون، وحرص محسن على تقديم وعرض أعمال عادة ما كانت تنال إعجاب هيئة التدريس، والزوار على حد سواء.

ومع مرور الأيام، تمكن محسن من تكوين بعض الصداقات مع زملائه بالجامعة، والاحتفاظ بعلاقات ودية مع الجميع.

بينما يقوم أحياناً بزيارات لإدارة الملجأ في أوقات فراغه، ومتى سمحت له الظروف بذلك، فهذا هو منزله الذي قضى فيه أعواماً من حياته، خلف أسواره العالية.

وكان الأستاذ عمر يقدم له كل النصح والإرشاد الذي يحتاجه في المسائل الفنية.

في أحد الأمسيات، شعر محسن بحاجة للخروج والتنزه وحده لبعض الوقت.

وقادته أقدامه نحو الرصيف الموازي للنهر الذي يمر بالعاصمة، والذي هو المتنفس العام لسكان المدينة.

وهناك، وجد أحد العازفين المتجولين، يقف ويقوم بالعزف على آلة الناي، بينما يحيط به الناس للاستماع إلى تلك الأنغام الحزينة التي يبعثها، ومن ثم يلقون إليه ببضع قطع نقديه، في الصندوق الذي يضعه أمامه.

توقف محسن، واتكأ بذراعه على السور الحجري الذي ينتصب ويمتد على طول الرصيف، وبدأ يستمع إلى تلك الأنغام.

وبالرغم من أن المكان كان مزدحماً بالناس، وأصوات الأطفال يتردد في الأرجاء، ويتخللها أصوات الباعة المتجولين، الذين يروجون لبضاعتهم من خلال العبارات المنغمة التي يرددونها

لجذب الانتباه، إلا أنه انسجم مع أنغام الناي بكل حواسه، وانفصل عن كل ذلك الضجيج المحيط به، وكأنه غير موجود أصلاً.

مضى بعض الوقت وهو على تلك الحال.

اكتفى العازف بما توفر له من النقود في الصندوق، فتوقف عن العزف، أو أنه كان ينوي الانتقال لمكان آخر ليبدأ العزف من جديد، وبدأ في جمع أغراضه، وهم بالرحيل.

ولكن محسن تقدم نحوه ببضع خطوات واستوقفه، والقى عليه التحية.

كان العازف رجلاً في منتصف العقد الثالث من عمره تقريباً، يرتدي سروال الجينز، وجاكيت خفيف، ويلف حول صدره وشاح من صوف الكشمير الأنيق، وكأنه كان يحاول تدفئة صدره، لتخرج أنغام الناي أكثر دفئاً من خلال قصبته.

بادره محسن بالقول: **"لقد استمعت لعزفك بدهشة كبيرة يا سيدي"**

رد عازف الناي: **"أسعدني أنها تمكنت من كسب اهتمامك"**

محسن: **"هل يصعب تعلم العزف على هذه الآلة؟"**

عازف الناي: **"لا يوجد شيء سهل في هذه الحياة.. ولكن لا يوجد شيء مستحيل"**

محسن: **"وكيف لي أن أبدأ في تعلم العزف عليها يا سيدي؟"**

عازف الناي: **"يتوجب عليك شراء إحداها أولاً.. ومن ثم الحصول على دروس في العزف"**

صمت محسن للحظات، وكأنه تردد في طرح السؤال، ثم قال: **"وهل سيكون ذلك امرأ مكلفاً؟"**

ضحك عازف الناي ضحكة استهزاء مكتومة قليلاً، وهو لا يزال منشغلاً بجمع أغراضه، وقال: **"إن كنت تسال عن التكلفة المادية.. فلن تكون مكلفة.. ولكنها مكلفة على سبيل استنزاف الروح"**

رد محسن بأنه لم يكن يفهم ما يعنيه بكلامه؟

ورد عليه عازف الناي، وطلب منه بأن لا يهتم لم كان يقوله.

وبدأ بالمشي مبتعداً عن المكان، ولكن محسن ضل يرافقه

بالمشي بجواره، وهو لا يتوقف عن الحديث وطرح الأسئلة عليه.

كانت ملامح عازف الناي تبدو جدية للغاية، ولكن يبدو لطيفاً في تعاطيه مع محسن، ولم يكن يتردد عن الضحك والابتسام مقابل الكلمات التي يتفوه بها محسن.

توقف عازف الناي في ساحة أخرى، وكأنه ينوي العودة للعزف مجدداً.

وبالفعل، بدأ بفتح حقيبته التي يحملها على ظهره، وأخرج صندوق النقود ووضعه أمامه، وأخرج الناي وعاد للعزف مجدداً، وبدأ المارة بالتوقف والإحاطة به من حوله، والاستماع لتلك الأنغام التي يبعث بها الناي.

وتنحى محسن جنباً، وعاد يستمع هو الآخر للعزف.

كان بالجوار رجل مسن، ينصب كانونه الحديدي الكبير، ويقوم بأعداد الشاي ليبيعه على المتجولين.

وكانت رائحة الحطب المشتعل تنتشر بالمكان، وتمنح محسن شعوراً ساحراً بالأجواء.

فأغراه ذلك للتوجه نحو البائع، وطلب منه أن يعد له كوبين من الشاي.

وبينما ينتظر محسن إعداد الشاي، توقف العزف فجأة، وبدأ عازف الناي بالسعال بشدة، وبشكل لا يمكنه السيطرة فيه على نفسه.

وبدأ المستمعون بالتفرق من حوله، بعد أن قام بعضهم بوضع عدد من العملات المعدنية بالصندوق.

تناول محسن أكواب الشاي، وأسرع نحو العازف، والذي كان قد وضع ركبتيه على الأرض، ويضع يده على صدره وهو لايزال يسعل بشدة.

اقترب محسن منه، ووضع أكواب الشاي جانباً على الأرض، ووضع يده على ظهر العازف وسأله: **"هل أنت بخير يا سيدي؟"**

أومأ عازف الناي برأسه بأنه بخير، وهو لا يزال يضع يده على صدره ويستمر بالسعال.

محسن: **"لقد أحضرت لك كوباً من الشاي الساخن يا سيدي..**

تفضل باحتسائه.. ربما سيشعرك ذلك بقليل من التحسن.. ويخفف من نوبة السعال هذه التي تعتريك"

نهض عازف الناي وتقدم نحو أحد المقاعد الحجرية الموجدة على الرصيف، والمعدة لاستراحة المتنزهين.

بدأ محسن بجمع أغراض العازف، ووضعها في حقيبته كما شاهده يفعل بنفسه سابقاً.

حملها ووضعها بجواره على الكرسي، ومن ثم عاد وناوله كوب الشاي.

بدأ عازف الناي باحتساء الشاي، وكان يبدو عليه أنه لا يزال يشعر بعدم الارتياح، جرّاء نوبة السعال تلك التي اعترته.

ولكن، بعد أن ارتشف بضع رشفات من الشاي الدافئ؛ بدأت تهدأ نوبة السعال، وبدأت ملامحه توحي بالارتياح.

بعدها شكر محسن بلطف، ونهض ليرحل.

فبادره محسن بالسؤال: **"كيف يمكنني أن التقيك مجدداً يا سيدي!"**

رد عليه عازف الناي وهو يدير ظهره ويبتعد، دون أن يلتفت نحو محسن، وأخبره بأنه يتواجد عادة هنا على الرصف كل مساء.

مضت عدة أيام، ومحسن يتردد على الرصيف للبحث، ولقاء العازف، والاستمتاع بألحانه، ولكن دون أن يجد له أثر.

وفي الليلة الرابعة، عاد محسن إلى الرصيف؛ ليجد عازف الناي واقفاً في أحد الساحات، ويعزف على الناي، والناس تحيط به، وتقف للاستماع إلى العزف.

استغرق الامر بضع دقائق، حتى توقف عن العزف، وهم بجمع أغراضه، وبدأ الناس بالتفرق من حوله.

اقترب منه محسن، والقى عليه التحية وهو يقول: **"كنت أتردد منذ أيام على الرصيف لألتقيك يا سيدي، ولكني لم أجدك!"**

رد عازف الناي التحية، واعتذر له وأخبره أنه بالفعل لم يتمكن من الحضور في الأيام الماضية.

بدأ عازف الناي بالسير والبحث عن مكان أخر، يمكن أن يجد فيه عدداً كبيراً من الناس، ليتمكن من تقديم معزوفة أخرى.

ومحسن يسير بجواره، ولا يكف عن الكلام، فقد أسره صوت الناي، واسترعى اهتمامه بشدة، وكانت لديه رغبة حقيقية في معرفة المزيد عن آلة الناي.

وبالرغم من أن هيئة عازف الناي كانت جدية للغاية، ولكنه كان يتحدث بلطف إلى محسن، وهذا ما أشعره بالارتياح لمواصلة الحديث.

استمر عازف الناي بالسير والتوقف هنا وهناك للعزف.

وبعد عدة ساعات من ذلك؛ بدا التعب على عازف الناي؛ بعد أن قدم عرضه السابق، وتقدم نحو أحد الكراسي الحجرية الموجودة بالمكان، وجلس عليها ليستريح قليلاً.

استأذنه محسن للذهاب وإحضار كوبين من الشاي، وعاد بعد عدة دقائق، بينما كان عازف الناي، قد أخرج جميع النقود التي توفرت له بالصندوق، وبدأ بعدها.

ناوله محسن كوب الشاي، وجلس بجواره يراقبه بصمت.

ابتسم عازف الناي ابتسامة بسيطة، تنم عن قليل من الرضا مما جناه من عزفه الليلة، ثم أطرق فيها للحظة، وتحدث دون أن يلتفت إلى محسن: **"حسنا.. ستكون كافية ليقوم شخصان بتناول طعام العشاء"** ضحك قليلاً والتفت الى محسن وسأله: **"ما رأيك في أن نتناول طعام العشاء سوياً.. سبق وأن قدمت لي كوب شاي.. وها أنت تفعل ذلك مجدداً.. وعلي أن أرد لك هذه الملاطفة من طرفي"**

ابتسم محسن وأجاب بالموافقة.

نهضا سوياً للتوجه لأحد الباعة المنتشرين في المكان، لطلب شيء من المأكولات التي يقومون بإعدادها وبيعها على المتنزهين.

ولكن عازف الناي توقف فجأة، ونظر نحو محسن بتعجب، وكأنه يستغرب الأمر، وهو يقول: **"ألم تلحظ أن كلاً منا لا يزال يجهل اسم الآخر!"**

فضحك محسن ورد: **"صحيح"** ثم تابع: **"أنا اسمي محسن.. وأدرس بجامعة العاصمة.. بكلية الفنون الجميلة"**

وكأن عازف الناي استحسن الأمر، ورد: **"كلية الفنون الجميلة.. هذا يعني بأني كنت أجهل كذلك بأن رفيقي فنان!.. حسناً أنا نضال"**

جلس الاثنان على أحد المقاعد وتناولا عشاءهم، وبعد أن فرغا من ذلك؛ بدأ نضال يعبث في حقيبته قليلاً، وأخرج ناي آخر، وقدمه إلى محسن.

نظر إليه محسن وتناوله من يده، وبدأ يتلمسه ويمرر أصابعه عليه، وكأنه يحاول التعرف على هذه الآلة عن قرب، وتجربة الإحساس بملمسها الذي ينتمي إلى الطبيعة.

فبادر نضال بالقول: **"هو لك.. في الحقيقة لدي العديد منها"**

شعر محسن بسعادة شديدة، ولم يصدق الأمر، وشكره بحرارة.

ووعد نضال محسن، بأنه سيعلمه طريقة العزف، متى ما التقيا على الرصيف.

عاد محسن إلى غرفته بسكن الجامعة، وبدأ محاولاته الأولى في التدريب على العزف.

كان محسن بعد تعلقه بهذه الآلة؛ يشغل فكره في ثمنها، وكيف له أن يوفر من مصروفه الشخصي مبلغاً يمكّنه من شراء إحداها، والحصول على دروس في تعلمها.

ولكن ها هو الآن يحصل على إحداها مجاناً، دون أن يتكلف فلساً واحداً.

وتحولت تلك العلاقة السطحية بين محسن ونضال إلى علاقة صداقة دافئة.

فكلاهما يحمل في داخله روح الفنان الحساسة، والتي تنجذب بشكل كبير لمن يمنحها الهدوء والسكينة التي تبحث عنها دائماً، وتتوق إليها، ولا نجدها لدى الكثير من الشخصيات الفضة، والغليظة، والملتوية.

الفصل الخامس والعشرين

موقف مزعج

استيقظت سوسن من نومها صباح ذلك اليوم وهي تشعر بحماس شديد.

فاليوم هو موعد نشر الحلقة الأولى من سلسلة سيرة الأستاذ محسن، ومنذ أيام وهي تتابع مسائل التحرير والنشر مع إدارة الصحيفة بالعاصمة.

توجهت مسرعة إلى مكتبها، وبمجرّد وصولها؛ بحثت عن طبعة اليوم، والتي عادة ما يبدأ وصولها الى البلدة بعد الساعة الثامنة صباحاً.

تناولت الصحيفة، وبدأت بتقليب الصفحات بشكل سريع، إلى أن وصلت إلى الصفحة التي تم نشر الحلقة الأولى بها.

كانت تقرأ بسرعة وتبتسم من السعادة.

وفور أن انتهت من القراءة؛ أمسكت بهاتفها وقامت بالاتصال على نغم؛ لتنقل إليها الأخبار السارة.

لم تتأخر نغم بالرد على الاتصال، وردت بنبرات صوتها التي تعكس إشراقة وجهها البريء، وتفضح سعادتها باتصال سوسن.

نغم: **"آنسة سوسن مرحباً.. صباح الخير"**

سوسن: **"صباح النور نغم.. لقت اشتقت إلى صوتك الجميل"**

نغم: **"وأنا اشتقت للقائك"**

سوسن: **"لدي أخبار جميلة"** قالتها بطريقتها المشاكسة.

ردت نغم بلهفة وهي تسأل: **"ما الأمر هيا أخبريني؟"**

فأرادت سوسن أن تغيظها قليلاً، وقالت: **"المسألة ليست بهذه البساطة.. ينبغي عليكِ أن تعديني بهدية مقابل هذه الأخبار"**

ردت نغم بنبرة استياء: **"لا.. ليس مجدداً.. هيا كفي عن ممارسة ألاعيبك هذ معي.. وأخبريني فوراً عن الأمر"**

سوسن: **"حسنا.. أود إخبارك بأن الحلقة الأولى من القصة تم نشرها اليوم.. وها هي الصحيفة أمامي"**

صاحت نغم بسعادة وبصوت مرتفع، وهي تقول بأنها ستتوجه على الفور لشراء نسختها من الصحيفة.

انتهت المكالمة بينهم، ومن ثم اتصلت سوسن بالسيدة وصال وأخبرتها بالأمر كذلك، ولم تقل سعادة وصال بالأمر عن سعادة نغم، وبدورها أخبرتها بأنها ستتوجه فوراً لشراء النسخة.

بعد تلك المكالمة؛ خرجت نغم مسرعة لشراء نسخة من الصحيفة، وعادت إلى المنزل وهي متلهفة لقراءة القصة، ومعرفة التفاصيل التي تجهلها عن حياة والدها.

عادت وجلست على الأريكة، وبدأت بالتصفح وقراءة القصة.

كانت السيدة فاتن قد استيقظت للتو من النوم، ورأت نغم تجلس على الأريكة وتقرأ صحيفة.

فتعجبت من ذلك وسألتها: **"منذ متى تتصفحين الجرائد!.. هل هناك ما هو مهم؟"**

ردت نغم بحماس، وأخبرتها بأن الصحيفة بدأت بنشر سلسلة سيرة حياة والدها.

سألت فاتن بتعجب: **"لم يسبق لكَ أن أخبرتني عن هذا الأمر!"**

نغم: **"لم أعتقد أن المسالة تهمك كثيراً.. ولكن الآنسة سوسن منذ عدة أشهر وهي تقوم بالإعداد لذلك.. وها هي الحلقة الأولى يتم نشرها اليوم"**

بعد مرور يومين على الأمر، وبينما سوسن تجلس في منزلها في المساء، رن جرس هاتفها، وكان المتصل شخص لا تعرفه، فردت على الاتصال وتفاجأت بأن المتصل هي السيدة فاتن.

وبعد أن تبادلا التحية بينهما، بادرت فاتن بالقول بأن لديها ما تود مناقشته معها، وبدورها رحبت سوسن بالأمر.

فاتن: **"بداية أظن أنكَ لا تملكين الحق في نشر سيرة حياة محسن.. فأنتِ لا تملكين موافقة بذلك من طرف**

من يملكون الحق بالموافقة أو الرفض.. وأعني بكلامي نغم"

سوسن: **"ولكن نغم لا تمانع في نشر القصة.. ولم يسبق لها أن أبدت لي رفضها.. أو حتى انزعاجها من هذا الأمر!"**

وهنا توقعت سوسن بأن أسلوبها في سرد القصة ربما لم ترق لنغم ووالدتها السيدة فاتن.

ولكن السيدة فاتن تابعت كلامها قائلة: **"نغم لا تزال مراهقة.. ولا يمكنها تفهم تبعات كل الأمور"**

سوسن: **"عن أي تبعات تتحدثين سيدة فاتن.. المسألة لا تنطوي على أي تبعات قد تكون مزعجة!"**

فاتن: **"هذه مذكرات خاصة.. تعود لحياة شخص غادر الحياة.. ويجب أن نحترم خصوصيات الآخرين"**

وكأن سوسن استوعبت ما كانت تعنية السيدة فاتن، وأنها قلقة بشأن حقيقة كون الأستاذ محسن ابن لأبوين مجهولين، وأن الأمر قد يشكل إزعاجاً لنغم.

والسيدة فاتن كانت زوجة الأستاذ محسن، ومن البديهي أن تكون على دراية بهذه الحقيقة.

فحاولت سوسن تهدئتها، والتخفيف من قلقها، من هذه الناحية وهي تقول: **"لا تقلقي سيدة فاتن.. فأنا أعي تلك التفاصيل التي تتحدثين عنها.. وأنا لست بهذه السذاجة لأظهر الجوانب التي لا ينبغي لأحد الاطلاع عليها من حياة الأستاذ محسن"**

فاتن: **"حسناً تفعلين.. والأفضل هو أن يتوقف هذا الأمر بالكامل"**

وردت سوسن بنبرة جادة: **"ذلك أمر غير ممكن الآن سيدتي"**

صمتت فاتن للحظات، ثم عادت لتسأل: **"هل يمكنني معرفة إلى أين وصلتِ بقراءتك للمذكرات؟"**

سوسن: **"حسنا.. الجزء الخاص بمرحلة دراسته الجامعية"**

بدأت فاتن بتغيير أسلوبها، والتلطيف قليلاً من نبرة صوتها، وبطريقة أقرب إلى الرجاء والاستعطاف: **"آنسة سوسن.. هل هناك وسيلة للتوقف عن هذا الأمر.. وتسليمي تلك المذكرات؟"**

سوسن: **"طلبت منكِ سيدة فاتن ألا تقلقي تجاه هذه الأمور.. فأنا سأحسن التعامل معها.. ولن يكون من المعقول**

أن أقوم بنشر كل ما سأقرأه في المذكرات كما هي.. فأنا سأقوم بإعادة كتابة كل شيء بأسلوب أدبي.. وبرؤية تأليفيه يمكنني من خلالها تحوير بعض الأحداث بشكل يكون أنسب للنشر"

انتهت المكالمة بشكل لا تبدو فيه أن الأمور سارت بشكل ودي بين الاثنين.

وكان واضحاً بان السيدة فاتن كانت منزعجة جداً، بينما تحاول المحافظة على هدوءها مع سوسن، والابتعاد عن الصدام.

في حين كانت سوسن جادة وحازمة في موقفها، بأنها لن تتوقف، ولن تتراجع عن مواصلة نشر بقية القصة.

الفصل السادس والعشرين

وضع مقلق

عادت سوسن لاستكمال قراءة المذكرات، وكانت كالعادة تقرأ وتقوم بإعادة صياغة الأجزاء التي انتهت منها بشكل مباشر، حتى تتمكن من الاحتفاظ بأجزاء جاهزة للنشر؛ تحسباً لأي أمر قد يمنعها من القراءة وتجهيز الحلقات المقبلة.

كان الأستاذ محسن يذكر أنه تأقلم مع حياته الجديدة بالجامعة، وخاصة بعد أن أصبح لدية عدد من الصداقات التي يرتاح إليها داخل وخارج الجامعة.

وتحول عازف الناي نضال إلى أقرب الأصدقاء الذين يحب محسن قضاء الوقت معهم.

وكثيراً ما كان يتوجه إلى الرصيف في المساء ليلتقي بنضال أثناء ممارسته للعزف، والذي كان يكسب معيشته من خلال هذه المهنة.

وبالرغم من أنها لم تكن تدر عليه الكثير من الدخل؛ إلا أنها كانت تكفيه ليعيش بها حياته، وتوفر له الأساسيات التي يتطلبها ليستمر بالحياة.

وكان محسن يزور نضال في منزله في بعض الأيام، وينتهز هذه الفرصة للحصول على توجيهات وتدريبات في عزف الناي، والذي بدأ يحسن العزف عليه بشكل مقبول.

حياة نضال البائسة لم تكن تروق لمحسن كثيراً، وسكنه في هذا المنزل المتداعِ والفوضوي.

ولكن، كان يحب شخصية نضال الطيبة والكريمة كثيراً، وقد كان نضال بدوره يبادله مشاعر المحبة والصداقة تلك.

مع مرور الوقت؛ لاحظ محسن بأن نوبات السعال العنيفة تلك تزداد عنفاً، وباتت تتكرر بشكل أكثر من السابق، وفي كل مرّة تنتابه فيها نوبة السعال؛ يشعر نضال بعدها بالتعب لعدة أيام، للحد الذي تجعله غير قادر على مغادرة المنزل، والتوجه إلى الرصيف ليمارس العمل، وذلك الانقطاع عن العمل كان يزيد من سوء الأوضاع المادية لنضال.

ولم يخفي محسن قلقه من الأمر، ولكن كلما كان يسأل نضال عن سبب هذه السعال؛ كان يرد عليه بكلمات بسيطة ومختصرة، وكأنه يحاول تجنب الخوض في المسالة لأكثر من ذلك.

وبالرغم من صداقاتهم المتينة؛ إلا أن كليهما كان يجهل عن الآخر الكثير من تفاصيل حياته الخاصة، وكأن كليهما قد اتفق على ألا يسأل الآخر عن حياته وأسرارها.

ومرّت السنوات، ومحسن يتقدم في مراحله الجامعية ويتطور في مجاله الفني.

ويستمر بالمشاركة في المعارض التي تنظمها الجامعة، ويحقق بعض النتائج، والمراكز في التصفيات النهائية.

ربما تمكن محسن من تجاوز تلك الصدمات التي واجهها ومرّ بها، ولكن ذلك لم يكن يعني بالضرورة أنه تمكن من نسيانها بالكامل.

فقد كانت صورة الآنسة هند لا تفارق خياله أبداً، وكم كان يحلم بأن يلتقي بها مجدداً.

ومن ناحية أخرى، فقد كان يفكر في حقيقة كونه شخصاً مجهول الأبوين، ويتجنب الأحاديث التي تدور بين الأصدقاء عن عائلاتهم وأخوتهم، حتى لا يضطر للكذب في كل مرة.

بعد انقطاع لعدة أسابيع، توجه محسن لزيارة نضال في منزله كالعادة، ولكنه تفاجأ بأن نضال يرقد في فراشه منذ أيام، ويعاني من الإعياء الشديد.

فعرض عليه محسن بأن يقله إلى المستشفى، مبيناً له بأن وضعه الصحي آخذ في التدهور، وبأن حالات الإعياء تلك باتت تتكرر عليه بكثرة، ولا ينبغي له السكوت على الأمر.

ولكن نضال بدوره رفض ذلك، وطلب من محسن أن يعد له بعض الطعام مما هو متوفر لديه في المنزل، والذي لم يكن به سوى بعض الخبز، والقليل من الأطعمة المعلبة.

وجلس نضال يتناول ذلك الطعام بشراهة، وكأنه لم يتناول الطعام لأيام.

خرج محسن من بيت نضال، وتوجه إلى الأستاذ عمر ليحكي له عن حالة صديقه نضال، وأنه لا يعرف كيف له أن يتصرف، وخاصة أن نضال إنسان مفلس، ويعتاش من دخله اليومي الذي يجنيه من العزف متجولاً على رصيف النهر، والذي بدأ يمارسه بشكل متقطع متى ما سمحت له حالته الصحية بذلك.

كما أن محسن بدوره لا يزال طالباً يحصل على مصروفه الشخصي من الملجأ.

طلب الأستاذ عمر من محسن الهدوء، وأخبره بأن أحد أقربائه طبيب، وبأنه سيهاتفه على الفور.

وبعد ساعة، توجه محسن برفقة الأستاذ عمر إلى منزل نضال، على أن يلحق بهم الطبيب إلى نفس العنوان.

وبالفعل، وصل الطبيب في الوقت المحدد، وبدأ بفحص نضال بشكل سريع، وطرح عليه بعض الأسئلة ليتمكن من الوصول لتشخيص مبدأي لحالته الصحية.

وبدأ محسن يلاحظ الارتباك على ملامح الطبيب، وهو يستمع إلى نضال أثناء حديثه عن الأعراض التي كان يشعر بها.

كان الطبيب يعمل في أحد المستشفيات التابعة للدولة، فطلب من عمر ومحسن الانتظار في منزل نضال، ريثما يرتب هو موضوع تامين سرير له بنفس المستشفى الذي يعمل فيه.

وبالرغم من محاولات محسن لمعرفة ما كان يشكو منه نضال؛ إلا أن الطبيب امتنع عن إعطائهم أي معلومة مفيدة.

مرّت ثلاثة ساعات على خروج الطبيب؛ ليعود مجدداً ويطلب من نضال بأن يستعد لنقله إلى المستشفى.

وبالفعل، فقد تم نقل نضال في وقت متأخر، على أن تتم إجراء فحوصات أكثر له غداً صباحاً.

وودع محسن صديقه نضال تلك الليلة، ووعده بأنه سيزوره مجدداً غداً مساءً في المستشفى للاطمئنان عليه، وعاد محسن إلى السكن.

واستمر محسن طوال طريق عودته يفكر في الوضع الصحي لصديقه نضال.

ومما زاد من قلقه، هي علامات عدم الارتياح التي كانت بادية على وجه الطبيب، وحرصه على التصرف بسرعة، والعمل على نقله إلى المستشفى.

وفي اليوم التالي، أنهى محسن محاضراته الدراسية وتوجه في المساء لزيارة نضال في المستشفى.

الفصل السابع والعشرين

بكاء الناي

بعد أيام، خرج نضال من المستشفى، ولكن بعد أن تأكدت إصابته بمرض خطير في الرئة.

وبدأت حالته الصحية بالتدهور سريعاً، وانقطع بالكامل عن الخروج إلى الرصيف لممارسة العزف.

ولكن عشقه للناي لم يكن يمنعه من بعض المحاولات بين الحين والآخر للعزف، والتي لم تكن تتجاوز عدة دقائق؛ حتى تعاوده نوبة السعال العنيفة، والتي تمنعه من مواصلة العزف.

وفي أحد المرّات، كان محسن في زيارة لنضال في منزله، فأبدى نضال رغبته في العزف قليلاً على الناي لأنه يشتاق لذلك.

فناوله محسن الناي، وبدأ نضال بعزف أحد المقطوعات التي كان تفيض بالمشاعر، وكأن تلك الأنغام تبكي أنفاس نضال

المتعبة والمتقطعة، وتحاول مواساته، فتنبعث بقوة من أعماق قصبة الناي؛ لتنتشر في محيط الغرفة.

وكالعادة، لم يتمكن نضال من مواصلة العزف، وانتابته نوبة سعال جديدة.

فقام محسن بأخذ الناي من بين يديه، وساعد نضال للاستلقاء على الفراش، وأعد له الوسائد بحيث يتمكن نضال من الجلوس مسنداً ظهره عليها.

جلس نضال صامتاً لفترة بعد أن هدأ السعال، وهو يتأمل إلى خارج المنزل من خلال نافذته الصغيرة.

ومحسن يجلس بجواره صامتاً هو الآخر.

عاد نضال والتفت نحو محسن، وكأنه يريد أن يقول له شيئاً.

مد محسن يده ووضعها على كتف نضال، وطلب منه أن يتكلم بما يدور في خاطره.

بدأ نضال بالحديث: **"من مفارقات القدر أن أصاب بمرض يتسبب في حرماني من مزاولة أكثر ما أحببت القيام به**

في حياتي.. وهو العزف على هذه الآلة" ثم صمت للحظات، وعاد ليقول: **"أ تعلم يا محسن.. بالرغم من بساطة هذه الالة وهيئتها التي لا تمنحك الكثير من الشعور بالجمال -كالبيانو على سبيل المثال- إلا أنها أكثر آلة يمكنها أن تحول إحساسك إلى نغم.. فهي تستمد روحها من آهاتك التي تنبعث من أعماقك"**

اقترح محسن على صديقه أن يقوم بإعداد كوبين من الشاي لهما، فهز نضال رأسه مبدياً موافقته.

نهض محسن وتوجه لإعداد الشاي، وبينمها هو مشغول، كان نضال لا يكف عن الكلام واستمر يقول: **"طالما اشتكى الناس من الأصدقاء الذين يجتمعون حولهم في لحظات سعادتهم.. بينما يتخلّى الجميع عنك في لحظات بؤسك وشقائك.. ولكن هذا الناي لا يمكنه أن يكون بجوارك إلا في أشد لحظاتك تعاسة.. فهو لا يحسن عزف ألحان الفرح.. وإن أجبرته على ذلك.. سينصاع لرغبتك.. ولكن لا يمكنه إخفاء تلك النبرة الحزينة في صوته أبداً"**

عاد محسن بكوبي الشاي، وجلس بجوار نضال، وناوله أحد الكوبين.

وعاد نضال للحديث مجدداً: **"عندما يتواجد الناي في وسط (اوركيسترا) كبيرة من الآلات وتقوم بعزف مقطوعة موسيقية سعيدة.. يضطر الناي لمجاراة بقية الآلات.. تماماً كما نفعل نحن البشر.. حين نضطر للتواجد في مناسبة سعيدة لأحد أحبتنا.. وفي محيط عام يشعر كله بالفرح.. فإننا نلجأ إلى تلك المجاملة ومحاولة الانسجام مع الأجواء السعيدة.. ولكن ابتسامتنا الباهتة.. ونظراتنا الكسيرة.. وصوتنا المرتجف.. لا يمكنه إخفاء حزننا.. كذلك هو الناي.. فإن صوته يخرج حزيناً بائساً بين حشود تلك الآلات التي تعزف.. وترسل أنغامها السعيدة"**

ابتسم محسن وهو يستمع إلى كلام صديقه نضال، ولم يرد أو يعلق بكلمة على ما قال.

ولكن بالتأكيد كانت كلمات نضال تدعو كل من يستمع إليها إلى التأمل في تلك الفلسفة البسيطة التي كان يتفوه بها، والتي كانت تترجم مدى حبه وتعلقه بالناي.

ومع تطور حالة نضال إلى الأسوأ في الأيام التالية؛ اضطر محسن للبقاء بجواره لفترات أطول من السابق.

وبالرغم من أن نضال بدأ في تلقي العلاج؛ إلا أن حالته لم تكن تستجيب بشكل جيد، وكانت تسوء يوماً بعد آخر.

وفي أحد الليالي، كان نضال يشعر بإعياء شديد، فطلب من محسن قضاء الليلة بجواره.

ولم يكن بإمكان محسن رفض طلب صديقه، وهو يراه على هذه الحال.

شكر نضال محسن لموافقته على البقاء بجواره لهذه الليلة، وقال له: **"لقد كنت وحدي لسنوات طويلة يا محسن.. ولكني أخيراً ها أنا ذا أحظى بصديق مثلك.. يجلس بجانبي في لحظات البؤس التي أمرّ بها"**

دمعت عينا نضال قليلاً، ثم تابع كلامه: **"لقد جرّدني هذا المرض من قدرتي على العزف على الناي.. والذي كان رفيقي الوحيد لسنوات طويلة.. ولكنه أبدلني بصديق آخر.. هو أنت.. وأنا اليوم لم أعد وحيداً أبداً"**

ثم تأمل قليلاً في وجه محسن، وسأله: **"أليس كذلك يا محسن؟.. قل لي بأني لم أعد وحيداً"**

نهض محسن من الكرسي الذي كان يجلس عليه، واقترب من سرير نضال، وجلس بجانبه، وطلب منه بلطف وهو يقول: **"إنك ترهق نفسك بالكلام كثيراً يا نضال.. هل لك أن ترتاح قليلاً؟"**

ابتسم نضال وهز رأسه، ولكن علق بطريقة مشاغبة على كلام محسن: **"سأتوقف عن الكلام بشرط أن تجلس بجواري هنا.. وتعزف لي أحد المقطوعات على الناي.. فأنت الآن بت تجيد العزف"**

نهض محسن من مكانه، وتوجه نحو الناي الموضوع فوق الطاولة، وعاد للجلوس بجوار نضال، وبدأ بالعزف.

عزف محسن بعض الألحان، وكان خلالها لا يغفل نضال عن إبداء بعض التلميحات الضرورية للتحسين من أداء محسن.

وبدوره، كان محسن يقوم بتطبيقها على الفور.

بعدها يبتسم نضال ابتسامة رقيقة، تنم عن الرضا، بما قام محسن بأدائه.

ضل محسن يعزف اللحن تلو الآخر، ونضال يستمع إليه بصمت وهو مبتسم.

كان نضال يجلس مسنداً ظهره على السرير، فمال برأسه على جانبه الأيمن، وأسنده على الوسادة التي كانت خلفه.

ظن محسن بأن نضال يرغب في النوم، وتوقف عن العزف.

ولكن نضال وضع كفه على ركبة محسن، وأشار إليه بيده بإشارة صغيرة، تطلب من محسن الاستمرار.

غفى نضال بهدوء على صوت تلك الأنغام، وكأن روحه قد هدأت الآن، ولم يعد يشعر بالتعب.

توقف محسن عن العزف، بعد أن اطمئن بأن نضال غارق في النوم، ولن يلحظ توقف العزف الآن.

حاول محسن أن يمد جسده قليلاً باتجاه الطاولة، ليضع الناي عليها، ولكنه خاف أن تنزلق يد نضال فجأة من على ركبته؛ فيستيقظ فزعاً مجدداً.

فامسك بيد نضال بهدوء ليحركها، ويضعها على الفراش، ولكنّه تفاجأ بيد نضال باردة مثل قطعة من الثلج.

فانتفض واقفاً وهو غير قادر على التفكير، وما الذي ينبغي عليه القيام به.

خرج من شقة نضال راكضاً، وقام بقرع أبواب الشقق المحيطة، وخرج الناس واندفعوا بسرعة نحو غرفة نضال، ولكن تبين لهم أن الأمر كان قد أنتهى.

الفصل الثامن والعشرين

وها هي قصة الفقد تعود لتعانق محسن مجدداً، وكأن الفقد سمة قد التصقت بأقداره.

وكان حزن محسن عميقاً بسبب فقده لصديقه نضال، والذي لم يكن صديقاً فقط؛ بل ومعلمه الذي علمه كيف يعزف على آلة الناي.

رحل نضال حاملاً معه أسرار حياته التي كان محسن يجهلها بشكل كامل تقريباً، فلم يسبق وأن تحدث معه نضال عن حياته بأي شيء.

بعد أيام، عاد محسن إلى منزل نضال، وكان على أحدهم أن يقوم بإفراغ المنزل من محتوياته؛ لتسليمه إلى المالك.

وبدأ محسن في التدقيق والتفتيش بين متعلقات نضال.

كان أغلب الأثاث المتوفر بالمنزل بالياً وقديماً، ولا يمكن الاستفادة منه، باستثناء بعض القطع التي يمكن الاستفادة منها، والتي قام محسن بتوزيعها على بعض جيران نضال بالمبنى.

جلسن بعدها محسن يدقق في الأوراق التي كانت متناثرة في كل مكان، وبين بعض الكتب والدفاتر التي تخص نضال.

وبين كومة الأوراق تلك؛ كان هناك ظرف مليء بالكثير منها.

قام محسن بفتحه وإفراغ محتواه، وبدأ بتصفحها ليصاب بالصدمة.

فقد كان الظرف يحتوي على الأوراق والوثائق الخاصة بنضال، والصادرة أغلبها من ملجا الايتام بالعاصمة.

أمسك محسن رأسه، وأصيب بحالة من الذهول وهو يشاهد تلك الأوراق.

لقد استوعب الآن حقيقة نضال، وأدرك بأن نضال لم يكن يملك ما يقوله عن عائلته، وربما كان هو الآخر يتجنب إثارة مثل هذه الأحاديث، حتى لا يضطر لإفشاء السر، كونه أحد الأطفال

الذين تربو في الملجأ، والذي يعني ضمناً بأنه قد يكون أبناً لأبوين مجهولين.

تلك صدمة، أثارت الكثير من المشاعر السيئة في نفس محسن.

فبجانب حزنه على فقد نضال؛ إلا أنه شعر بشعور سيء حيال ذلك الأمر.

عاد محسن إلى سكنه بالجامعة تلك الليلة، وهو في حالة من الإحباط والتعاسة.

لقد بدأ يتأمل محسن في الكيفية التي كانت تسير بها حياة نضال، وعالمة الوحيد والمدَمر، وكل تلك العزلة التي يعيشها في منزل بائس، دون أمل ملموس يمكن أن يظهره لأحد من المحيطين به.

بدأ محسن بالتساؤل بينه وبين نفسه؛ هل حياة من هذا النوع هي مسألة حتمية على أشباهنا؟

هل قدر كل إنسان تربى في ملجأ للإيتام؛ أن يعيش حياة بائسة ومحطمة؟

هل قدر كل من تربى في ملجأ الأيتام؛ أن يموت وحيداً وبائسا؟

هل سيكون مصيري أن أحيا حياة مشابهة لحياة نضال؟

عاصفة من التساؤلات دارت في محيط عقله الذي لم يكن يوماً يتسم بفصول من الهدوء.

وهنا، قرر محسن ألا يسمح للحياة بأن تدمره، وتجعل منه شخصاً بائساً مهمَلاً، يعيش على هامش الحياة، وألا يسمح لها بأن تلفظه خارجها.

لن يعيش ليتسول على أطرافها، دون أن يتمكن من اقتحامها، وخوض تجاربها، والقبول بتحدياتها.

قرر أنه لن يبقى وحيداً، وأنه سينعم في حياته بعائلة، تمنحه الحب والدفء الذي كان يحتاج للكثير منه ليشعر بالأمان.

الفصل التاسع والعشرين

حياة ستحمل الكثير

انقضت سنوات محسن بالجامعة، وتخرج منها أخيراً.

إنه الآن يخرج لمواجهة هذه الحياة بصدر عارٍ؛ ولكن مسلحاً بطموحاته وأحلامه الكثيرة.

يرسم لنفسه طريقاً ينوي السير فيه؛ ليحقق لنفسه الحياة التي يحلم بأن يعيشها.

وبمجرّد حصوله على عمل؛ ستنتهي تلك العلاقة التي كانت تربطه لسنوات بالملجأ، وسيغدو مطالباً بالاعتماد على نفسه؛ ليتمكن من العيش.

وبالفعل، فبمجرّد تخرجه؛ بدأ بالبحث لنفسه عن عمل، وانقضت عدة أشهر حتى تمكن من الحصول على وظيفة مدرب رسم، بأحد المعاهد بالعاصمة.

وبدأ بعد ذلك بالبحث لنفسه عن سكن مناسب، حتى حصل على شقة صغيرة في حي قريب من مكان عمله.

كانت الشقة عبارة عن غرفة معيشة، وغرفة نوم بمساحة معقولة، ومناسبة لإقامة شخص واحد.

ولكن أكثر ما عزز رغبته في السكن في هذه الشقة؛ هي تلك الإطلالة التي كانت تتمتع بها واجهة المبنى، والمطلة على حديقة واسعة، ومن خلفها الرصيف النهري.

هذه الإطالة منحته شعوراً رائعاً بالجمال، وهو الشيء الذي كان يتوق إليه في حياته.

ومع مرور الأشهر، تمكن من تأثيثها بأثاث مناسب، واختار أحد الزوايا في المنزل لتكون مرسمه الخاص، الذي يمارس فيه حبه وشغفه بالرسم.

كان محسن يحصل على راتب معقول نظير الدورات التي يقدمها في المعهد، بجانب ما كان يجنبه من بيع اللوحات التي يرسمها، وبدأ وضعه المادي بالاستقرار بشكل مقبول.

رحلة استمرت لمدة ثمانية عشر عاماً؛ منذ دخوله إلى الملجأ

في التاسعة من عمره، وحتى تخرجه من الجامعة، وممارسته لعمل يحبه في مجال الفن، ليبلغ الآن السادسة والعشرين.

سنوات من الحنين، ومن الألم، ومن الأحلام، والأمل، ومن التساؤلات والحيرة، وأخيراً روح مفعمة بالطموحات؛ تسعى بكل قوتها نحو بلوغ غايتها.

الفصل الثلاثون

نبضات جديدة

بدأت أحد الدورات الجديدة التي كان يقدمها محسن بالمعهد.

ومع مرور الوقت، كان محسن قد كون عدد كبير من علاقات الصداقة في الوسط الفني، ومع طلابه الذين اعتادوا على التسجيل في تلك الدورات بشكل متكرر.

ولكن في هذه الدورة، كان هناك وجهاً جديداً لم يسبق له أن رآه.

فالدورة التي كان يقدمها كانت تخص المبتدأين في الرسم، ولا بد أنها أحدهم.

كانت رحاب فتاة شابة في الثالثة والعشرين من عمرها، بيضاء البشرة، ذات شعر طويل وناعم، يتدلى حتى أسفل ظهرها، كشلال من الماء المتدفق.

لم يخفي الأستاذ محسن في مذكراته اهتمامه بها، وأنها تمكنت من لفت انتباهه منذ أن وقعت عينه عليها.

واعترف بأنه شعر بجاذبية مختلفة نحوها.

كما أنه بدوره شعر من طرفها بشيء مشابه.

وكان يلحظ بأنها تطرح عليه الكثير من الأسئلة، وفي الأغلب كان يحصل ذلك بعد انتهاء وقت المحاضرة، وكأنها كانت تتعمد ذلك.

ولا ينكر أنها كانت تتقدم نحوه أحياناً، وتقوم بطرح بعض الأسئلة البلهاء، وكأنها تختلق الفرص للحديث معه، وهي غير مدركة بأن أسلوبها كان مكشوفاً بالنسبة إلى محسن.

وتكررت تلك المحاولات من طرفها، كما تكرر انضمامها لكل الدورات التي تلتها بشكل منتظم.

وبدأ محسن يشعر بنوع من العاطفة تجاه رحاب.

تلك العواطف التي سبق وأن اختبرها حين كان في الثانوية وتجاه الآنسة هند بالتحديد.

ولكن، لم يتمكن الاثنان من تجاوز وكسر الحاجز الذي لا يزال يرتفع واقفاً بين الاثنين، بالرغم من مرور بعض الوقت على أول لقاء بينهم.

فعلاقات الحب أحياناً تطلب بعض من الجرأة؛ ليتمكن أحد الطرفين من كسر حالة الجمود التي تسود في البدايات، دون أن يجد أحدهما وسيلة للتصريح، وتخطي مرحلة التلميح الخجول.

إنها العلاقة الأجمل التي يختبرها الإنسان، متى كان الصدق والإخلاص هي سمة فطرية لديهما.

ويالها من لذّة يشعر بها الطرفان، حين يراقب كل منهما الآخر في صمت، وكل منهما يجهل بأن تلميحاته وألاعيبه باتت مكشوفة للطرف الآخر.

وكانت تلك الحالة التي بلغتها علاقتهما، فكل منهما بدأ يدرك اهتمام الآخر تجاهه، وأن كلاً منهم يسعى بلؤم لخلق الفرص لتبادل الأحاديث.

وفي أحد الأيام، كان محسن يسير بمفرده في أحد شوارع المدينة، وتنبه لصوت يناديه باسمه من البعيد.

تلفت حوله وهو يبحث عن مصدر ذلك الصوت، حتى اتجه بنظره إلى الرصيف في الجهة المقابلة، والذي كان يضم أحد المقاهي، التي كانت تبسط بعضاً من مقاعدها وطاولاتها على الرصيف في الخارج.

ووجد رحاب تجلس في المقهى برفقة فتاة أخرى، وتلوح بيدها من بعيد للفت انتباهه.

قطع محسن الشارع، وتوجه للقاء رحاب، والتي لم تتمكن من إخفاء سعادتها بلقائه.

وطلبت منه رحاب بأن ينضم إليهم، وتناول فنجان من القهوة برفقتهم.

بالطبع، لم يتمكن محسن من رفض الدعوة، والتي تعني له بدورها فرصة كذلك، ليقضي بعض الوقت بصحبة رحاب، وبالقرب منها.

دار بينهم حديث طويل وودي لأول مرة، بخلاف حواراتهم السابقة، التي عادة ما كانت ضمن إطار العلاقة التي قد تكون بين المعلم وطالبته، وإن كان يحصل بينهم كسر لتلك القاعدة

أحياناً تحت الحاح الشعور المتبادل، ولا يتمكن فيها أحدهم من منع نفسه من التلميح بعبارة غزل بريء.

كانت الفتاة التي تجلس معهم هي منى صديقة رحاب، والتي لاحظت ذلك التناغم في الأحاديث التي كانت تدور بين الاثنين، والتي كانت تفضح مشاعرهم.

فما كان منها إلا أن اعتذرت بلطف، وتحججت بأن لديها موعداً كانت قد نسيته، وطلبت منهم السماح لها بالمغادرة.

ويدون محسن في مذكراته؛ بأن ردة فعله هو ورحاب كانت عفوية وسريعة على طلب منى السماح لها بالمغادرة، حيث رد كلاهما بسرعة ودون تردد؛ أن بإمكانها الانصراف.

وذكر بأن ردة فعل منى كانت أن ابتسمت بخبث، وكأنها تعي ما يجري.

بمجرّد انصراف منى التفت محسن نحو رحاب، وقال لها ممازحاً وهو يضحك: **"لقد كنا وقحين معها للغاية"**

ردت رحاب: **"لا عليك.. دعك من وقاحتنا الآن.. فهي صديقتي المقربة.. ويمكنني حل المسألة معها لاحقاً"**

محسن: **"أخشى أن تكون مستاءة مما حصل!"**

ردت رحاب بشيء من العصبية: **"لمَ أنت مهتم بها إلى هذا الحد!.. الحق بها إن أردت الاعتذار لها.. وإصلاح ما قد أكون أنا أفسدته عليك.. بالسماح لها بالمغادرة"**

شعر محسن بالارتباك قليلاً، ونفى أن يكون الأمر كما تظنه رحاب.

وانقضى الوقت، وكلاهما يتبادل مع الآخر الأحاديث، حين شعرت رحاب بأن عليها المغادرة، لأنها ستتأخر في العودة إلى منزلها.

استأذنت رحاب وغادرت، وعاد محسن إلى المنزل وهو أكثر قدرة الآن على تحديد مشاعره تجاه رحاب، بعد هذا اللقاء الذي جمعه بها هذا المساء.

واستمرت العلاقة بينهم لفترة من الوقت على هذا الشكل، والذي لا يخلوا من التلميحات الخجولة المتبادلة بين الطرفين.

وبات كليهما منغمساً بشكل كبير في تلك العلاقة، دون أن يتمكن أي منهم من البوح بما يحمله للآخر.

فكثير من العلاقات العاطفية تغرقناً في ملذاتها، ونندفع تجاهها غير مدركين كم بتنا متورطين فيها.

فشعور الحب بالرغم من رقته؛ إلا أنه يملك كل تلك السيطرة العنيفة التي تقودنا بطريق دون أن تكون لدينا أي فكرة إلى أين يسير بنا!

واستمرت رحاب في حضور الدورات التي كان يقدما محسن دون انقطاع، مدفوعة برغبتها في تعلم الفن، ولتستمر بالتقرب من محسن.

وبدوره، كان يحرص على أن ينظم في كل فترة دورة جديدة، ليحظى بفرصة كذلك.

في أحد الأيام، توجه محسن إلى المعهد قبل موعد بدء الدورة بقليل، وبمجرَّد اقترابه من بوابة الدخول، وصلت رحاب بسيارتها، ووجدت موقفاً بالقرب من البوابة، وبدأت في ركن سيارتها بالمكان.

توقف محسن وهو يراقبها، وينتظر نزولها من السيارة. ولكن، فجأة انتابه شعور غريب، وكأن أحدهم قد صفعه على وجهه للتو.

نزلت رحاب وتوجهت نحوه مسرعة، والقت عليه التحية، ولكن محسن قابلها ببرود شديد هذه المرّة، على غير عادته دائماً.

وتغيرت ملامح رحاب فجأة هي الأخرى؛ حين شعرت بالفتور الذي استقبلها محسن به.

أنهى محسن الدورة، وعاد مسرعاً إلى المنزل، وكأنه أراد الهروب من مقابلة رحاب.

لقد استيقظ من الحلم الذي كان غارقاً فيه منذ أشهر، منذ أن تعرّف على رحاب للمرة الأولى.

وعاد في لحظة إلى الواقع الذي تجاهله طوال تلك الفترة، وبدا أكثر انتباهاً لكل تلك التفاصيل، التي قد تكون عائقاً بينه وبين أن يتقرّب من رحاب.

فلأول مرّة، يعلم بأن رحاب تمتلك سيارة خاصة، وليست أي سيارة! فهي من فئة السيارات الفارهة، التي لا يملكها

سوى الأثرياء فاحشي الثراء.

وبدأت جملة من الحقائق الغائبة تكشف عن نفسها الآن.

فلا يمكنه نسيان حقيقة كونه لقيط.

تلك الحقيقة التي ستشكل بالتأكيد أكبر عائق في علاقته برحاب، حتى لو لم تكن ابنة لعائلة ثرية.

ففي الشرق، تكون العادات، والأعراف، والتقاليد؛ هي المحرك الرئيس لجميع قرارات المجتمع، وحتى لمن هم في أدنى درجات السلم الاجتماعي.

فالجميع محكوم بقيم رسمت ملامحها منذ قرون، وليس بالضرورة أن تتصف بالعدالة لمجرّد اكتسابها صفة القيم، فهناك العديد من تلك القيم التي لا تنسجم مع العقيدة التي يدعي الجميع الالتزام بها، فاللياقة الاجتماعية هي الأهم.

ومنذ تلك اللحظة، بدأ محسن يمارس لعبة التجاهل تجاه رحاب، ويحاول التهرّب من أي حوار طويل معها.

وبدورها، بدأت هي تزيد من محاولاتها للتقرب منه؛ مسكونة بهاجس الفقد الذي كانت تخشى حدوثه.

للأسف، أننا كثيراً ما نجهل دوافع الآخرين في مواقفهم التي يتخذونها ضدنا، ونفسر كل تلك المواقف من وجهة نظرنا، التي ربما تكون بعيدة تماماً عن الحقيقة.

ورحاب، كانت تجهل تلك الحقيقة عن حياة محسن.

ومحاولاته لتجاهلها والتهرّب منها؛ كان لها تفسير آخر بالنسبة لها، ولا تتجاوز إدراكها لظواهر الأمور.

فقد كانت تتوهم بأن هناك خطأ قد وقع منها؛ ودفع بمحسن للابتعاد عنها بهذا الشكل المفاجئ.

الفصل الحادي والثلاثون

في أحد الأيام، تخلف محسن عن الذهاب إلى المعهد لتقديم الدورة، متعذراً بوعكة صحية يعاني منها، والتي لم تكن سوى رغبة في الابتعاد والتهرّب من لقاء رحاب، التي كانت تحضر تلك الدورة.

وبينما هو جالس في منزله؛ قرع أحدهم جرس الباب، فتوجه لفتح الباب، وكانت المفاجأة حين وجد رحاب تقف أمامه.

لقد حصلت على عنوان المنزل من أحد زملاء محسن بالمعهد، وجاءت تحت ضغط القلق على حالته الصحية؛ للاطمئنان عليه.

وقف محسن يحدق بها، ولم يجد ما يقوله**!** فلم يتوقع أن تمتلك رحاب مثل هذه الجرأة للحضور، وزيارته في منزله.

فبادرته هي بدورها وقالت: **"ألن تدعوني للدخول!؟"**

ارتبك محسن حينها، وطلب منها الدخول.

دخلت رحاب وهي تتلفت في أرجاء المنزل، وكأنها تود أن تلم بكل موجوداته، وأدق تفاصيله.

وتقدمت وجلست على الأريكة، وجلس محسن على الأريكة المقابلة.

رحاب: **"أبلغوني عن سبب عدم حضورك اليوم إلى المعهد.. وجئت للاطمئنان عليك"**

محسن: **"أنا بخير.. ولا يجدر بك القلق.. مجرّد إرهاق وسوف يزول"**

رحاب: **"يبدو لي بأنك تعيش بمفردك بالمنزل!"**

محسن: **"نعم ذلك صحيح"**

رحاب: **"وأين تسكن بقية عائلتك؟!"**

نهض محسن فجأة بارتباك، واستأذنها لدقائق للذهاب لإعداد فنجان من الشاي لتقديمه لها.

وبالرغم من إلحاح رحاب بعدم وجود ضرورة لذلك؛ انسحب محسن بسرعة نحو المطبخ.

لقد شعر بارتباك شديد، ولم يتمكن من الإجابة على سؤال رحاب المباشر.

وهي لا تعي حساسية السؤال الذي طرحته للتو، وتجهل بأن التغيير الذي كان يثير حيرتها، والذي طرأ على علاقة محسن بها، لم يكن سوى لهذا السبب.

كان محسن يفكر بينما يقوم بإعداد الشاي بالمطبخ، في إجابة مناسبة يمكنه الرد بها على رحاب.

شعر بأن خلف جرأة رحاب التي دفعتها إلى زيارته في المنزل؛ رغبة ملحة في الحصول على إجابات من محسن، وذلك يعني أنها ستحاصره بأسالتها الآن.

لحظات، وتبعته رحاب إلى المطبخ، ودخلت وهي تخطو بهدوء، وتتأمل في كل شيء، ثم قالت: **"منزلك لطيف رغم صغره.. ويبدو لي في غاية الترتيب.. مع أنك رجل تعيش بفردك!"**

ابتسم لها محسن بلطف، وقال بأنه انتهى من إعداد الشاي، ويمكنها انتظاره بغرفة المعيشة.

ولكنها ضلت واقفة أمامه وهي تحدق به، وعيونها تبوح بالكثير مما تود البوح به، وقالت: **"لم آتي هنا لتناول الشاي.. محسن أريد منك توضيحاً حيال هذا التغيير الذي طرأ عليك.. لقد كانت تربط بيننا علاقة جميلة.. ونحظى سوياً بلحظات ممتعة.. ما بك أجبني!"**

لم يكن لدى محسن مبرر يمكنه الرد به على تساؤلات رحاب، فالحقيقة ستكون صادمة لها، وبالنسبة له ستكون قاتلة، وضل واقفاً يحدق بها بارتباك.

رحاب: **"أجبني يا محسن.. ألم تدرك حتى الآن ما أحمله لك في قلبي من عاطفة!.. إني أحبك.. أحبك محسن"**

كان محسن يقف في مكانه يحدق إلى رحاب، وغير قادر على الرد بأي كلمة، فما عساه أن يقول!

هل يبوح لها هو الآخر بمشاعره، أم يرفض تلك الحقيقة!

ومرّت لحظات من الصمت، وكلاهما يحدق بالآخر.

فحين لا يسعفنا الكلام بالرد، وتشل قدرتنا على التعبير؛ تبقى العيون هي الأقدر على البوح، ويكون الصمت أنسب وسيلة للهروب.

وبدأت دموع رحاب تنهمر قطرة، قطرة، وهي تبتسم ابتسامة لطيفة، تزيد ملامحها جمالاً، وكررت كلمتها وهي تهمس برقة مرة أخرى: **"أحبك"**

وهنا رد محسن بلهفة: **"وأنا أحبك"**

وبمجرّد أن سمعت رحاب محسن ينطق بكلمة أحبك؛ انفجرت ضاحكة وهي تردد: **"أخيراً.. وأخيراً ها أنت تقولها يا محسن!"**

رد محسن: **"نعم أحبك.. ولكن لا يمكن أن تكتب الحياة لهذا الحب يا رحاب.. ولذلك آثرت الصمت والهروب والابتعاد"**

رحاب: **"ولمَ لن تكتب له الحياة يا محسن!"**

محسن: **"الأسباب كثيرة يا رحاب"**

رحاب: **"ليست هناك أي أسباب في العالم بإمكانها أن تقف في وجه الحب الصادق"**

محسن: **"دعكِ من تلك الأحلام التي لا يمكنها أن تتحقق سوى في عالم الخيال والروايات"**

مدت رحاب يدها بسرعة، ووضعتها على فم محسن، وهي تقول له: **"أصمت.. أرجوك لا تفسد جمال هذه اللحظات التي أعيشها"**

لم يتمكن محسن من الرد، وصمت أمام السعادة التي لاحظها وهي تتراقص في عين رحاب.

ثم تابعت رحاب كلامها بأسلوب رقيق وحالم: **"سيكون لدينا متسع من الوقت لنتحدث في كل شيء.. في الحقيقة ستكون لدينا الحياة بطولها لنتكلم.. ونستمر بالكلام.. ولكن ليس الآن.. ليس في هذه اللحظة"**

وخرجت رحاب من بيت محسن والسعادة تملأ قلبها، وكأنها أخيراً ستختبر هذا الشعور الذي يسمونه (الحب) والذي يشغل أحلام كل فتاة.

وتركت محسن يصارع قسوة الحقائق التي لا يمكنه تجاهلها.

لم يتمكن محسن من مواجهة رحاب بالحقيقة، وكان من الصعب عليه أن يقتل تلك الفرحة التي كانت تعيشها، وربما لم يملك الجرأة للاعتراف.

الفصل الثاني والثلاثون

اعتراف

بالرغم من ذلك الموقف الذي حصل منذ أيام بين محسن ورحاب؛ إلا أن محسن استمر في محاولته لبناء الحواجز بينه وبينها، واستمر في التعاطي معها في كل لقاء بنوع من الفتور.

كان يدرك تماماً بأن الحقيقة أكبر من أن يتم تجاهلها، وهو على ثقة بأن تقبلها سيكون صعباً على رحاب، وحتى إن هي تقبلت الأمر؛ فماذا عن عائلتها!

وكثير من الأحاديث واللقاءات التي تجري بين الاثنين؛ كانت تنتهي بانسحاب محسن، وبخذلان لرحاب، حين تلمس عدم اهتمامه بها.

ولم تتمكن رحاب من تقبل ذلك في علاقتهم، وخاصة أن محسن قد اعترف بدوره بشعوره تجاهها.

وكان من المنطقي بالنسبة لها أن يبادلها نفس الاهتمام، ونفس المشاعر، وأن تشعر هي كذلك بلهفته للقائها.

وباتت مواقف محسن تخدش غرورها كأنثى، تدرك جيداً جاذبيتها.

وفي مقابل سعيها الدائم لترتيب موعد ليلتقيا سوياً في أي مكان خارج حدود المعهد، كان هو يختلق الأعذار في كل مرّة.

واستمر الحال بينهم بهذا التوازن المختل، حتى فقدت رحاب قدرتها على التحمل.

توجهت رحاب إلى منزل محسن مرّة أخرى، وهي تدرك بأنه المكان الوحيد الذي يمكنها لقائه فيه بشكل منفرد.

فكل محاولاتها السابقة للقائه في موعد قد فشلت.

قرعت رحاب جرس الباب، وفتح لها محسن، واقتحمت المنزل دون أن تنتظر منه أن يطلب منها الدخول.

جلست على الأريكة وكل ملامحها ولغة جسدها تنبئ عن ثورة آخذة في التشكل.

وبمجرّد أن سألها محسن لم تبدو بهذا الارتباك؛ حتى انفجرت صارخة في وجهه: **"بت أشك بأنك إنسان يملك أي مشاعر.. أنت مجرّد جماد لا يملك قلباً.. أمام كل محاولاتي التي أبذلها تجاهك.. إلا أنك تقابل كل محاولاتي تلك بالتجاهل"**

طلب منها محسن الهدوء، ولكن رحاب كانت قد بلغت حداً لا يمكنها فيه السكوت، وعادت توجه إليه الكلمات القاسية، وهي في ثورة خارجة عن السيطرة.

فما كان من محسن إلا أن أسرع باتجاهها واحتضنها بقوة، وهو يطلب منها الهدوء.

ولكن محاولته لتهدئتها لم تنجح، وقامت رحاب بدفعه بقوة بعيداً عنها وهي تصرخ: **"لا تحاول.. لن أهدأ ولن أصمت.. هل هي محاولة منك لخداعي؟.. وتجاوز الموقف.. ألم تبح لي بحبك!.. أنت ملزم تجاهي بميثاق الحب الذي نطقت به.. ولا يمكنك الآن التهرب.. لا يمكنك فعل ذلك بي"**

قالت كلماتها وانفجرت بعدها رحاب باكية، وهمت بالمغادرة، ولكن محسن منعها من الخروج، وطلب منها الجلوس والاستماع لما سيقوله.

حدثها محسن بهدوء: **"نعم يا رحاب.. أنا أحبك بجنون.. ولكني حين بحت لك بحبي في لحظة ضعف.. قلت لك بأن هذا الحب لن تكتب له الحياة.. وطلبتِ مني حينها بأن أصمت"**

رحاب: **"وانا أجبت بوضوح حينها.. بأن لا شيء سيقف في وجه الحب"**

كانت رحاب شخصية حالمة ورقيقة، تملأها العاطفة، والشوق إلى الحب، ولا يمكنها تفهم ما يسعى محسن لقوله، واستمر محسن في محاولاته، بينما هي تواجه كل تلك المحاولات بالرفض والإنكار.

شعر محسن بأن أي من تلك المبررات التي يسردها لم تكن كافية بالنسبة لرحاب كي تقتنع، وأدرك حينها بأن الحقيقة وحدها ولا شيء سواها يمكنها من أن تنزل رحاب من سماء الأحلام التي تحلق بها؛ لتضع أقدامها على أرض الواقع.

بدأ محسن بالقول: **"حسنا رحاب.. سأخبرك بالحقيقة التي تجنبت الحديث عنها دائماً.. وحتى في أحاديثي مع نفسي.. تلك الحقيقة التي لا يمكنني إنكارها.. ولا حتى تقبل حقيقة وجودها"**

هنا فقط، توقفت رحاب عن البكاء؛ وانتبهت لما سيقوله محسن، وصمتت وهي تنظر في عينيه؛ لتسمع منه المبرر خلف كل ما كان يمارسه من تجاهل نحوها.

محسن: **"في أول زيارة لك إلى منزلي منذ أشهر.. كان أول ما لفت انتباهك هو كوني أعيش بمفردي هنا.. وطرحت علي حينها سؤالك الذي لم أتمكن من الإجابة عليه.. وآثرت الهروب.. والتظاهر بإعداد الشاي لك"**

ردت رحاب بأنها لا يمكنها نسيان ذلك اليوم بكل تفاصيله.

ورد محسن: **"في حقيقة الأمر يا رحاب أنا ليست لي عائلة.. أنا قضيت طفولتي في ملجأ الأيتام بالعاصمة"**

سالت رحاب بكثير من التوتر والقلق، ما الذي قد يعنيه ذلك؟

وأجاب محسن: **"يعني أنني كنت طفلاً لقيطاً"**

أغمضت رحاب عينها، وأخذت نفساً عميقاً، وكأنها تحاول ابتلاع هذه الصدمة.

ومرّت لحظات من الصمت، ونهضت رحاب بعدها، وطلبت منه السماح لها بالمغادرة.

خرجت رحاب، وجلس محسن وهو يدرك تماماً بأن قصته مع رحاب قد انتهت في هذه اللحظة، ولكنه كان يتألم بعمق.

فبجانب شعوره بألم الفراق، كان يعاني من مرارة الحقيقة التي التصقت به، دون أي ذنب قد اقترفه في الحياة.

تلك الحقيقة التي سترافقه طوال حياته رغماً عنه، دون أن تكون لدية أي حلول، أو أية وسائل لتمحو كل ذلك عنه.

حين نتسبب لأنفسنا بالبؤس نتيجة أخطاءنا الذاتية؛ يكون بمقدورنا تقبل الأمر، كوننا المخطئين في حق أنفسنا، وربما كان بالإمكان الرجوع عن الخطأ يوماً ما، وإصلاح ما قمنا بإفساده.

ولكن، حين نأتي إلى هذه الحياة محملين بذنوب لم نقترفها بحق أنفسنا، ومجرّدين من حق الاختيار، هنا تبدوا لنا الحياة قاسية أكثر من حدود احتمالنا.

الفصل الثالث والثلاثون

زيارة غير متوقعة

انقضت عدة أسابيع على آخر لقاء جمع بين محسن ورحاب، ولم تحضر خلالها رحاب أي من الدورات التي كان محسن يقدمها بالمعهد.

أصرّ محسن على تجاوز تلك الخيبة الجديدة، وحاول محو تأثيرها عليه.

فالحقيقة التي تلتصق به كافية لتجعله يشعر بالألم، وهو في غنى عن أي شعور آخر يزيد من مرارة الحياة بالنسبة إليه.

ولكن الأمر لم يستغرق المزيد من الوقت؛ حتى عادت رحاب لزيارته بالمنزل.

لقد أمضت رحاب الفترة الماضية وهي تفكر في علاقتها بمحسن، بعد أن تكشّفت لها الحقيقة.

وبلا شك، لم يكن الأمر بتلك البساطة التي تتوقعها، وتظن أن بالإمكان تجاوز المسالة.

دخلت رحاب، وجلست بجوار محسن، ومحسن يترقب ما الذي تود رحاب قوله.

قالت رحاب: **"لقد فكرت طويلاً في الأمر يا محسن"**

محسن: **"أعلم أن الأمر لم يكن سهلاً أبداً لتتقبليه ببساطة"**

رحاب: **"المسألة لا تتعلق بتقبلي أو رفضي فقط يا محسن.. ولكن أنا قلقة بشأن موقف عائلتي!"**

بالطبع لم يشكل كلام رحاب مفاجأة أو صدمة لمحسن، فذلك ما كان يتوقعه على أي حال، وها هي أخيراً تشعر بثقل تلك الحقيقة التي كانت تجهلها.

وتابعت رحاب قولها: **"محسن أنا أحبك.. ومتمسكة بك لأبعد حد.. لن يتمكن أحد من تدمير هذا الحب"**

محسن: **"عليكِ أن تكوني واقعية يا رحاب.. أنا أعلم مسبقاً بموقف عائلتك.. وأحاول تجنيبك الوقوف أمامهم في موقف ضعيف.. لن تتمكني من إقناعهم"**

رحاب: **"أمنحني بعض الوقت فقط.. سأتدبر الأمر"**

وانصرفت رحاب بعد هذا اللقاء، وهي تعد محسن بأنها ستتحدى أي اعتراض، قد تبديه عائلتها.

ولم يكن محسن يتوقع الكثير، ويدرك بأن رحاب لاتزال تعيش داخل حلم، ولا ترغب في الاستيقاظ منه، متجاهلة كل شيء، وكل ما يقوله لها.

وانقضت عدة أيام دون أن يلتقي محسن برحاب، ويجهل كيف كانت تجري الأمور.

بعد مرور أسبوع من لقائهم، حضر زائر إلى منزل محسن، وقرع جرس الباب.

كان الزائر رجلاً مجهولاً بالنسبة إليه، قد تجاوز الخمسين من عمره، وتبدو عليه علامات الجدية والصرامة.

طلب من محسن أن يسمح له بالدخول، وأنه يرغب في الحديث معه.

دخل الرجل، وبدأ بالتجول بنظره في أرجاء المنزل، وهو يسير بطريقة متعجرفة، وتقدم وجلس على الأريكة.

وبمجرّد أن جلس، نظر في وجه محسن وقال له: **"أنا حاتم سلطان.. والد رحاب"**

شعر محسن ببعض الارتباك، فتلك الزيارة لم يكن محسن ليتوقعها، ولا يزال يجهل ما تحمله.

وبدأ السيد حاتم بالحديث قائلاً: **"أسمع ما أنوي قوله لك جيداً.. وعليك أن تعي كل كلامي بشكل واضح"**

نبرة الصوت التي تحدث بها السيد حاتم، كانت دليلاً قاطعاً بالنسبة لمحسن ليفهم المضمون، حتى قبل أن يتفوه السيد حاتم بأي شيء، وطلب منه محسن أن يواصل حديثه.

السيد حاتم: **"أنا رجل أعمال معروف.. ولي مكانة رفيعة بالمجتمع.. ولا يمكنني تعريض سمعة عائلتي للخطر لمجرّد أن ابنتي تعلقت بأحدهم.. خاصة بمن هو في مثل ظروفك..**

أنني أدرك تماماً ما لذي تسعى إليه من وراء هذا الارتباط.. ولن أسمح بأي شكل بأن تستغل ابنتي من أجل أهدافك"

هم محسن بالرد على هذا الكلام الجارح، والاتهامات التي بدأ السيد حاتم بتوجيهها إليه.

ولكن السيد حاتم لم يمنح محسن أي فرصة للرد، وقاطعه قائلاً:
" لم آتي إليك لأسمع.. أنا هنا فقط لأتحدث.. ولا يهمني ما لذي تنوي قوله.. لن أعرض سمعتي وسمعة عائلتي للخطر بالسماح لأبنتي بالزواج من لقيط"

تلك الكلمة كانت جارحة لمحسن، وكأنها سكين ينغرس في أعماقه دون أن تكون لديه مجرّد قدرة بسيطة على الرد، فما عساه أن يرد على الحقيقة!

نهض السيد حاتم من مكانه، وكأنه يهم بالمغادرة، وتوقف للحظة وهو يتحدث ويشير بيده محذراً: **"إياك أن تقترب منها مجدداً.. وعلى العموم هي لن تبقى في العاصمة طويلاً.. فقد رتبت لها مسألة السفر.. وعما قريب سأنهي ترتيبات أخرى تخص حياتها.. لأقطع الطريق عليك.. وعلى كل من هم يحملون نفس طموحاتك"**

خرج السيد حاتم من المنزل، وترك محسن في حالة من الإحباط الشديد.

وبدأ يتساءل عما كان يعنيه السيد حاتم بكلامه عن رحاب**!** وماهي الترتيبات التي ينوي العمل عليها تجاه حياة رحاب؟

الفصل الرابع والثلاثون

ذبول

انقضت عدة أسابيع على لقاء محسن بالسيد حاتم، دون أن يلتقي برحاب، أو حتى يتمكن من معرفة أي شيء عنها.

وخلال تلك الأسابيع، حاول محسن من البحث عن طريقة للتواصل معها؛ ولكنه فشل.

كما أنه توجه لعدة مرات إلى فيلاً السيد حاتم، واستمر ينتظر بالقرب منها لساعات، عله يتمكن من رؤية رحاب، ولكنها لم تظهر أبداً.

وبدأ مسحن يقلق حيال وضع رحاب، والظروف التي قد تكون تمرّ بها.

فهو يعلم أنها فتاة رقيقة، ولا يمكنها تحمل أي قسوة قد تمارس عليها من طرف والدها، والذي بدا لمحسن كإنسان غاية في القسوة والغرور.

ولم يتمكن محسن رغم مرور كل تلك الأسابيع من تجاوز الشعور بالمهانة التي تلقاها من والد رحاب.

ولكن أكثر ما كان يزعجه في هذه المرحلة؛ هو غياب رحاب بهذا الشكل الكامل.

في أحد الأيام، وبعد أن أنتهى محسن من تقديم أحد الدورات، توجه نحو مكتبه؛ ليتفاجأ بـ منى صديقة رحاب تجلس بانتظاره.

توجه محسن نحوها مسرعاً، وهو يتلهف لمعرفة أي شيء عن رحاب.

أغلق باب مكتبه، وسألها بلهفة، أن تطمئنه على رحاب.

كانت ملامح منى لا تبعث على التفاؤل أبداً، فقد بدت محبطة وحزينة للغاية، وقالت: **"في الحقيقة يا محسن.. رحاب لم تعد موجودة بالمدينة.. لقد رتب لها والدها مسألة السفر إلى الخارج.. وهي تقيم هناك منذ أسابيع.. لقد حاول**

إبعادها عنك بأي وسيلة"

كان محسن يستمع إلى منى بصمت، وينتظر أن تخبره المزيد عن رحاب.

منى: **"لقد طلبت مني رحاب عبر الهاتف يوم أمس.. بأن التقيك.. وأبلغك بكل تلك التفاصيل"**

محسن: **"الحمدلله أنها بخير.. ولكن متى ستعود؟"**

ارتبكت منى قليلاً، وكأن لايزال لديها ما تود قوله، ولكن ملامحها كانت تقول بوضوح بأن التفاصيل الأخرى أسوأ.

منى: **"اسمع يا محسن.. لقد أحبتك رحاب بصدق.. إنها صديقتي منذ زمن طويل.. وأنا أعرفها جيداً.. لم تكن رحاب تلك الفتاة السطحية كما تبدو.. ودائماً ما كانت مشاعرها صادقة تجاه الآخرين.. وربما كان شعورها ناحيتك هو الأصدق"**

توقفت منى عن الكلام قليلاً، وحاولت عبر بضع كلمات أخرى التمهيد لم تود اخباره به، ثم تابعت: **"كانت رحاب تحادثني عبر الهاتف يوم أمس.. وهي غير قادرة على السيطرة**

على نفسها.. كانت تبكي بألم.. وطلبت مني.. أن أطلب منك أن تسامحها"

رد محسن بسرعة: **"أسامحها على ماذا!"**

منى: **"لأنها ضعفت أمام تعنت والدها.. والذي رتب موضوع زواجها من ابن أحد رجال الأعمال المعروفين بالمدينة"**

ثم تابعت منى كلامها: **"رحاب لن تكون لك يا محسن"**

هز محسن رأسه بتثاقل، وكأنه يقول لمنى نعم، أنا أتفهم كل ذلك.

استأذنت منى في الانصراف، وخرجت.

ابتسم محسن ابتسامة يملأها الألم، حين تذكر ذلك اللقاء مع رحاب في المقهى عن طريق الصدفة، والحوار الذي دار بينهم حين طلبت منى منهم السماح لها بالرحيل.

هي كذلك، كل اللحظات الجميلة التي نعيشها بقرب من نحبهم، حين تتحول لذكريات تشعل بداخلنا الحنين والألم، في كل مرّة يمرّ بنا محفزّ يتسبب في إيقاظها.

لقد كانت رحاب قصة جميلة في حياة محسن، عاشت معه لأشهر، ولكن الحياة كانت لا تزال تصرّ على أن تسلبه كل شيء أحبه.

وكان محسن، كلما شعر بالحنين إلى رحاب؛ يحتضن نايه، ويبدأ بالعزف عليه، وكأن الناي هو الصديق الذي لم يخذله يوماً، فهو قادر على الإحساس بكل أوجاعه.

كان محسن في كل مرّة يعزف فيها على الناي؛ يشعر بطيف صديقه نضال حوله.

وكأنه يذكره بتلك اللحظات الأخيرة في حياته البائسة، ويدفع به لكي لا تنتهي حياته بنفس الطريقة الحزينة، وحيداً بدون رفيق.

وبعد عدة أسابيع من لقائه بـ منى، وأثناء تصفحه لأحدى المجلات؛ شاهد صور حفل زفاف رحاب على أبن أحد الأثرياء.

لتطوى صفحة أخرى من حياته، مخلفة له الكثير من الأوجاع.

واستمر محسن يتابع حياته بعد هذه القصة، مسكوناً بهاجس الخوف من ألا يحظى بالحب الذي يتوق إليه في حياته، وشبح نضال يطارده دائماً، ليذكره بالمصير البائس الذي قد ينتظره.

كانت تلك الفكرة مرعبة بالنسبة لمحسن، فلم يشأ أبداً بأن يبقى وحيداً، وأن يموت وحيداً.

ولكن كان يشعر باليأس، حين يتذكر تلك الحقيقة عن نفسه، ويشعر بأنها ستشكل العائق الأكبر أمامه في أي ارتباط.

وتابع محسن حياته منغمساً في الرسم، وتقديم الدورات، وحضور المعارض الفنية.

وكأنها بالنسبة له رحلة بحث لا تنتهي عن الحب، والأمان الذي يفتقده كثيراً.

كان يكره وحدته، وفكرة العيش وحيداً، بالرغم من الناس المحيطين به في كل مكان.

ولكن العالم كله لن يغنينا عن إنسان واحد، يمنحنا الحب،

ويكون بالقرب منا في كل لحظة، ونشعر بأنفاسه تتردد بجوارنا، وكأنه الجزء المفقود من الروح، التي باتت تتوق لنصفها الآخر.

العالم كله لا يعني شيئاً، لرجل أحب امرأة، وبات يفتقدها، ويشعر بالحنين تجاهها.

الفصل الخامس والثلاثون

كانت ردود الأفعال التي تلقتها سوسن على السلسلة القصصية المنشورة في الصحيفة مرضية لها جداً.

فقد أظهرت من خلال كتابتها للأحداث، وطريقتها في صياغة القصة؛ أنها كاتبة مبدعة، بجانب كونها صحيفة.

بينما كانت نغم، لا تكف عن الاتصال بها، وابداء إعجابها بكل حلقة يتم نشرها أولاً بأول.

الأمر الذي منحها قدراً من الراحة والاطمئنان، ومحفزاً لمواصلة الكتابة والنشر بنفس الأسلوب.

وعلى أي حال، فقد تجاوزت سوسن في قراءتها لمذكرات الأستاذ محسن أكثر من النصف، ولم يتبقَ لها الكثير لتنتهي.

ولكن انشغالاتها المتواصلة، منعتها لفترة من مواصلة القراءة،

ولم تقلق بشأن ذلك كثيراً، فهي لديها رصيد جاهز من الحلقات المعدة للنشر، ولن تكون في ورطة حيال المسألة.

في حين كانت تتلهف كثيراً لمتابعة القراءة، وبلوغ النهاية، لمعرفة كل التفاصيل المتعلقة بحياة الأستاذ محسن.

بينما كانت قلقة، وتشعر بالإحباط، حيال العوائق التي واجهتها فيما يتعلق بموضوع إقامة المعرض، الذي اتفقت عليه مع السيدة وصال.

شعرت بأنها أهملت الموضوع، أو أنها لم تجد له مساحة كافية من الوقت لتضعه ضمن أولوياتها، في هذه المرحلة على الأقل.

لقد عانت من ضغوط في المواعيد طوال أسابيع، وشعرت بانها بحاجة لكسر ذلك الروتين، والتمتع ببعض الرفقة.

تناولت هاتفها، واتصلت بالسيدة وصال، وأخبرتها بأنها مشتاقة للقائها، واتفقتا على أن يلتقيا مساء ذلك اليوم في منزل سوسن.

وقضت سوسن ذلك المساء برفقة السيدة وصال، وصديقتها ليلى، التي لم تلتقي بها منذ عدة أسابيع.

كانت سوسن بحاجة إلى تلك الأجواء الحميمية، لتشعرها ببعض الدفء والاطمئنان.

ولم يكن هناك من يمكنه منحها تلك المشاعر أكثر من السيدة وصال، وصديقة الطفولة ليلى.

تمتعت سوسن بسهرتها تلك الليلة بشكل لم تنعم به منذ رحيل الأستاذ محسن.

وكعادتها، لم تكف السيدة وصال عن سرد القصص المضحكة، وإشاعة جو من المرح بينهم.

كانت السيدة وصال تملك بجانب شخصيتها المرحة تلك شخصية أخرى، تجعل الجميع يقترب منها طلباً للأمان، فهي لا تكف عن العطاء، وتغمر كل من يقترب منها بالحب، والعاطفة السخية، وذلك بسبب شخصيتها الحساسة التي تمكنها من الشعور بمتاعب الآخرين، وقبل أن يبوح لها أحدهم بأي شيء، بينما لديها القدرة على كتم معاناتها الخاصة، وممارسة التشافي مع الذات، دون أن تبحث عن أحد لتلجأ إليه طلبا للدعم.

وسوسن، كانت تدرك تلك الحقيقة عن السيدة وصال،

وتحمل لها الكثير من المحبة، ومنذ رحيل الأستاذ محسن، شعرت بأنها باتت أكثر حاجة للتقرب منها، والالتصاق بها.

ذلك المساء، أعدت سوسن للجميع حفلة شواء صغيرة في الفناء الخلفي لمنزلها، بينما كانت أجواء الشتاء بدأت بالتسلل، وجلس الجميع متحلقين حول النار يتبادلون الأحاديث.

ذلك التشابه العجيب بين فصول السنة المتغيرة، وتقلبات المزاج، التي تعترينا بين حين وآخر في كثير من التفاصيل.

فمزاجنا يتقلب بين الدفء، والبرودة، والحيوية، والذبول، تماماً كفصول السنة الأربعة.

وحين يعترينا ذلك الذبول؛ نشعر بكثير من الشوق، نحو من يمكنه أن يمطرنا بوابل من المشاعر التي تعيد إلى الروح حيويتها.

وذلك بالضبط؛ ما كانت تمرّ به سوسن في هذه المرحلة؛ ولجأت إلى غيمتها لتغتسل من كل متاعبها.

الفصل السادس والثلاثون

الاقتراب من الهاوية

بعد أيام، تمكنت سوسن من العودة لقراءة المذكرات، وتجاوزت بعض التفاصيل الصغيرة، التي استمر الأستاذ محسن في سردها عن حياته الخالية من أي جديد.

استمر محسن في تقديم الدورات، والمشاركة في بعض المعارض الفنية بشكل متقطع.

وكأن آخر تلك المعارض، هو معرض تقوم جمعية تعاونية بتنظيمه لأغراض خيرية.

شارك الأستاذ محسن في المعرض الأول، واستمر في المشاركة في المعارض اللاحقة، ونشأت علاقة صداقة بينه وبين العاملين في تلك الجمعية، وبدأ بالتردد على المكان بشكل دائم، بهدف الترتيب لأي معارض قادمة، والتي كان يشارك فيها ببضع لوحات، بحيث يعود ريعها لصالح الأعمال الخيرية،

وصرف إعانات للعائلات المعوزة.

وأثناء تلك الزيارات، عادة ما كان يلتقي ببعض هذه العائلات التي تتردد على المكان هي الأخرى، بهدف الحصول على الإعانات.

ولكن، من بين أولئك جميعاً، كان تلفت انتباهه فتاة شابة، تأتي بصحبة والدتها المسنة باستمرار.

ولم تكن تلك الفتاة سوى السيدة فاتن، والتي كانت تبلغ حينها ٢٤ عاماً من العمر، وتبدوا في غاية النحول.

وكان ما لفت انتباهه نحو فاتن، هو ذلك الانكسار الذي كان يلاحظه في عينها.

مزيج بين شعور العطف والإعجاب، فهي كانت على قدر لا بأس به من الجمال، ولكن طبيعتها المنكسرة هي أكثر ما جذب محسن تجاهها.

شعر من خلال متابعته لترددها على المكان، بحجم الظروف التي قد تكون تعانيها فاتن، ووالدتها السيدة وداد،

والتي يبدوا عليها علامات التقدم في العمر، وأنها سيدة قد تجاوزت الخمسين من عمرها.

لم يتجرأ على محادثتها بشكل مباشر، بسبب طبيعته الخجولة، ولكنه لم يتمكن من إخفاء اهتمامه بها.

في أحد المرات التي زار فيها محسن الجمعية، وبعد أن أنهى الزيارة، وأثناء خروجه، لاحظ وقوف فاتن بجانب والدتها على الطريق، بانتظار سيارة أجرة.

اقترب منهم حينها، وعرض عليهم إمكانية إيصالهم حيث يريدون.

ترددت فاتن والسيدة وداد للحظات، ومن ثم وافقت والدتها على ذلك، خاصة أن محسن كان شخصاً مألوفاً بالنسبة إليهم، وكثيراً ما كان يتواجد في الجمعية أثناء ترددهم.

وطوال الطريق، تبادل محسن والسيدة وداد الأحاديث في أمور مختلفة، دون أن يكون هناك حديث عن مسألة بالتحديد، فتلك هي المرة الأولى التي يحصل بينهم حوار مباشر.

اكتفت فاتن بالجلوس والإنصات للحديث الذي يدور بين والدتها ومحسن، دون أن تشارك بأي كلمة.

وصمتها الطويل ذاك؛ زاد من إعجاب محسن بها، فهو بطبيعته ذو شخصية هادئة، وتلفت انتباهه الشخصيات التي لها ذات الطبيعة.

كانت فاتن تسكن مع والدتها في حي شعبي، وفي منزل صغير ومتهالك.

وحين وصلوا إلى المنزل؛ طلبت منه السيدة وداد أن يقبل دعوتها لتناول فنجان من الشاي، وتحت إلحاح السيدة؛ لم يتمكن محسن من الرفض.

كان المنزل من الداخل يعكس بشكل كبير بؤس العائلة، فالمنزل صغير جداً، مجرّد غرفة معيشة متوسطة المساحة، وغرفة أخرى عبارة عن غرفة نوم.

أما الأثاث المتوفر في المنزل، فقد كان يبدو عليه القدم، ولا يزيد عن أريكتين كبيرتين، وطاولة صغيرة، وجهاز تلفزيون.

تأثر محسن بالمستوى الذي تحياه العائلة، وأدرك حينها

سبب ذلك الانكسار الذي كان يخيم على عيون فاتن.

جلس محسن يتبادل الحديث مع والدة فاتن، واكتفت فاتن بتقديم الشاي والانصراف، دون المشاركة في الحوار، ولم يدم بقاء محسن طويلاً في المنزل، وطلب السماح له بالانصراف بمجرّد انتهائه من احتساء كوب الشاي.

عاد محسن إلى منزله في المساء، ولم يتمكن من التوقف عن التفكير في حال فاتن ووالدتها.

فهي فتاة شابة، وبالتأكيد أنها تملك جملة من الأحلام التي تسعى لتحقيقها، ومن الطبيعي أن تكون رغبتها في العيش، والسكن في منزل أكثر اتساعاً، هي أول تلك الأحلام.

استمرت اللقاءات التي تتم عن طريق الصدفة، بين محسن، وفاتن، ووالدتها، في مقر الجمعية لمدة طويلة.

ولم يكن يتم فيها تبادل أي كلام بين محسن وفاتن بشكل مباشر، ولم تزد عن بضع كلمات يتبادلها مع السيدة وداد، والسؤال عن حالها.

لقد كان صمت فاتن الطويل والدائم ملفتاً لمحسن،

حتى بدأ يدرك أن ذلك الصمت ليس بسبب طبيعتها الهادئة؛ بل هي تعود للخيبات الكثيرة التي ربما تعانيها.

فحين كانت تتحدث مع أحد الموظفين بالجمعية، كانت تفعل ذلك بصوت مرتفع، وبطريقة انفعالية، لا تتناسب ومظهرها الهادئ.

كما أنها اعتادت على ارتداء سترة بعنق طويل يغطي كامل رقبتها، بينما تغطي رأسها بشال كبير، ويغطي جزءاً كبيراً من جبينها، وجانب من وجهها، ولا تكف عن العبث به بشكل مستمر، وتعديله كلما انزاح عن جبينها.

الفصل السابع والثلاثون

في أحد زيارات محسن لمقر الجمعية، وأثناء تنقله داخل المبنى، لاحظ فاتن تسير بالممر، وهي تحمل بيدها مجموعة من الأوراق، وصورة أشعة طبية كبيرة.

ومن خلال ذلك؛ خمن بأن فاتن تسعى للحصول على مساعدة مالية، من أجل علاج والدتها.

لم يقترب منها لسؤالها عن الأمر، ولكن انتظر مغادرتها للمبنى، ومن ثم توجه لمسئولة الخدمات الاجتماعية بالجمعية، وتبادل معها بعض الأحاديث بشكل عام، دون أن يكون هناك أمر يمكن مناقشته بينهم، ولكنه كان يبحث عن فرصة للسؤال عن فاتن، وسبب قدومها، وما هو الوضع الصحي لوالدتها.

وحين وجد الفرصة المناسبة؛ قام بطرح السؤال، وتبين له أن الموضوع متعلق بفاتن شخصياً، وليس بوالدتها.

هذا الأمر أثار قلقه، ولكن كان من الصعب عليه معرفة تفاصيل أكثر عن حالتها، وذلك بسبب الحفاظ على خصوصية الحالات التي تتمتع برعاية الجمعية، والتي تلزم العاملين فيها على سرية المعلومات الخاصة.

ولكنه قرر أن يحاول معرفة المزيد عن حالتها الصحية، فلا يمكنه تجاهل المسألة، وتركها غامضة بالنسبة إليه.

وفي أحد المرات، انتهز فرصة لقاءه بفاتن ووالدتها صدفة في الجمعية، وعرض عليهم مجدداً إيصالهم إلى المنزل.

وأثناء الطريق، طلب محسن على السيدة وداد؛ أن تسمح له برسم (بورتريه) لها.

وافقت والدة فاتن بعد تردد ممزوج بالخجل، وتم تحديد موعد لاحق لحضور محسن إلى منزل العائلة، لرسم اللوحة.

حضر محسن في اليوم المحدد، وهو يحمل معه أدوات الرسم، وأختار الزاوية المناسبة لرسم السيدة وداد.

كان محسن يحاول من خلال ذلك؛ إلى التقرب من فاتن ووالدتها، بينما يقوم بتنفيذ اللوحة بشكل بطيء، ليحظى بأطول وقت ممكن معهم، بحيث استمر الأمر لعدة أيام، وهو يتردد عليهم، وفي كل مرّة يقوم بإنجاز جزء بسيط من اللوحة.

وكانت فاتن خلال تلك الأيام، تتابع محسن وهو يرسم، وأحياناً تنسحب، وتنعزل في الغرفة الأخرى.

ولم يخلو الأمر من بعض الأحاديث المتقطعة بينهم، وتكتفي فيها فاتن بالتعبير عن تفاعلها بابتسامات باهته.

أنتهى محسن من إنجاز اللوحة، وطلب من والدة فاتن الموافقة على عرضها في أحد المعارض التي سيشارك بها لاحقا.

وبعدها عرض على فاتن أن تقبل بأن يقوم برسم لوحة لها هي الأخرى.

ترددت فاتن، وعارضت الفكرة ولم ترحب بها، ولكن محسن استمر بالإلحاح عليها للقبول.

وبعد تدخل السيدة وداد لقبول طلب محسن؛ وافقت فاتن على ذلك.

طلب منها محسن أن تردي ملابس مناسبة وأنيقة؛ ليقوم برسمها، وغابت فاتن لعدة دقائق، وعادت وهي ترتدي ملابس أخرى، لم تكن تختلف عما اعتادت ارتدائه على الدوام.

جلست فاتن على المقعد أمام محسن، ليبدأ برسمها.

وقف محسن وبدأ بتأملها بعيون الفنان، ومن ثم أبدا ملاحظته وهو يقول: **"هل تودين في أن أقوم برسمك بهذا الشال الذي ترتدينه على رأسك؟"**

ردت فاتن ببعض الارتباك، وهي تحاول الهروب بنظراتها، لكي لا تنظر في عيني محسن مباشرة، وردت بأنها ترغب في ذلك.

رد محسن: **"لكن يبدوا لي بأن الصورة ستكون أجمل بدونها، مع تسريحة شعر جميلة"**

فجأة ثارت فاتن، ووقفت وأبدت رفضها للموضوع، قائلة أنها لم تعد راغبة في الأمر.

تعجب محسن من ردة فعلها، ولكنه في نفس الوقت شعر ببعض الحرج من الموقف الذي حصل، وكأنه أحس بأنه

ارتكب خطأ ما، مما جعل فاتن تثور وتنفعل بهذا الشكل المفاجئ.

انصرفت فاتن، وعادت إلى غرفتها وأقفلت الباب.

وتوجه محسن بنظره نحو والدة فاتن، وهو يتساءل: **"هل ارتكبت خطأ ما فيما قلته سيدتي!"**

ردت السيدة وداد: **"لا يا بني.. أنت لم تخطئ في شيء.. وأرجو منك ألا تستاء من موقف ابنتي"**

هز محسن رأسه بقليل من الإحباط، وهم بلملمه أغراض الرسم التي بحوزته، استعداداً للمغادرة.

استوقفته السيدة وداد، واعتذرت منه مجدداً، وطلبت منه أن يمكث لبعض الوقت، فهي لن تسمح له بالمغادرة وهو يشعر بالسوء.

طلبت منه الجلوس، بينما ستقوم هي بإعداد الشاي.

غابت والدة فاتن لدقائق، ومن ثم عادت وهي تحمل أكواب الشاي، ووضعتها على الطاولة أمام محسن، وجلست بجانبه على الأريكة.

تبادلا الحديث لبعض الوقت، وبعدها بدأت السيدة وداد بالحديث بشكل أكثر انفتاحاً ووضوحاً، وسرد تفاصيل حياتهم وهي تقول: **" حين تزوجت بوالد فاتن، كان رجلاً مسناً.. ولم يمرّ وقت طويل حتى توفي.. وأنا لا أزال في الأشهر الأولى من حملي بطفلتي.. وكان قدر هذه الفتاة أن تعيش يتيمة الأب لبقية حياتها.. وتحملت مسئولية رعايتها وحدي.. وأنا أحاول توفير متطلبات معيشتنا عن طريق العمل تارة.. أو الحصول على بعض الإعانات من المحسنين تارة"**

توقفت السيدة وداد عن الكلام، وأخرجت تنهيدة طويلة، وعادت لمواصلة الكلام: **"حين كانت فاتن في السابعة من عمرها.. كنت قد حصلت على عمل مؤقت لعدة أيام.. ولم يكن بقدوري تركها بمفردها في المنزل.. فاضطررت لتركها في منزل أحد الجيران"**

توقفت السيدة عن الكلام للحظات، وبدأت دموعها تنساب وهي تقول: **"وليتني لم أفعل.. فمنذ ذلك اليوم تبدلت حياة فاتن بشكل كامل.. بعد أن وقع لها حادث في منزل الجارة"**

كان محسن يستمع إلى حديث السيدة وداد بصوتها الخافت

خشية أن تسمع فاتن، فهي بالتأكيد لا ترغب أن تتحدث والدتها عن شيء يخصها لأحد، بينما محسن ينتظر ويتلهف لتكمل السيدة وداد حديثها.

أكملت السيدة وداد كلامها: **"في ذلك اليوم.. انشغلت الجارة مع بعض الزائرات لمنزلها.. بينما كانت فاتن وبقية الأطفال يلهون في أرجاء المنزل.. ويعبثون في كل مكان.. وكانت الجارة قد تركت كمية كبيرة من الماء على الموقد.. لتقوم بغسل الملابس.. ووقعت فاتن بجانب القدر.. وانسكبت كمية كبيرة من الماء المغلي على جسدها.. وأجزاء من وجهها.. وتأخرت سيارة الإسعاف في الحضور لنقلها إلى الطوارئ.. ذلك الحادث تسبب بتشوهات لفاتن في عدة أجزاء من وجهها وجسدها"**

أدرك محسن حينها كل شيء، ولمَ كانت تضع فاتن ذلك الشال على رأسها باستمرار، ولمَ هي حريصة على ارتداء ملابس تغطي رقبتها، وتفهم ثورتها المفاجئة حين طلب منها نزع غطاء رأسها.

أكملت السيدة وداد: **"ذلك الحادث.. تسبب بألم كبير لها..**

وهي تدرك بأنها باتت فتاة مشوهة.. وغير قادرة على ارتداء ما ترغب فيه من ملابس مثل بقية الفتيات.. وبلا شك.. فهي تدرك بأنها ستواجه صعوبة كذلك في الزواج بأحدهم"

صمتت السيدة وداد عن الحديث، وهي في غاية الاستياء من تلك الحقيقة التي سردتها للتو لمحسن.

لم يكن لدى محسن الكثير ليقوله ليخفف عن السيدة وداد، فهو يعلم جيداً أن إجراء مثل تلك الجراحة التجميلية أمر مكلف، وهو يرى بعينه المستوى المتدني لمعيشة فاتن ووالدتها، وبدأ يستوعب سبب صمت فاتن الطويل، وشعورها بالخيبة والقلق.

وحتماً كانت فاتن تسعى للحصول على الدعم من الجمعية، لتتمكن إجراء الجراحة.

وعادت السيدة وداد لتقول: **"لقد تجاوزت السادسة والخمسين من عمري.. وابنتي لا تزال شابة صغيرة.. وكم أخشى أن أغادر الحياة قبل أن أطمئن عليها.. ذلك القلق يسيطر علي باستمرار يا بني"**

نظرت السيدة وداد إلى محسن، وطلبت منه ألا يشعر بالاستياء

من ردة فعل فاتن منذ قليل، بعد أن اتضحت له الأمور.

رد محسن: **"لا عليك سيدتي.. لقد انتهى الموقف بالنسبة إلي"**

أمسك محسن يد السيدة وداد وقبلها، وطلب منها أن تسمح له بالمغادرة.

الفصل الثامن والثلاثون

بدأت ظروف فاتن تشغل تفكير محسن على الدوام، وهو يبحث عن أي حل يمكنه من خلاله تقديم أي مساعدة، لتتمكن فاتن من استعادة حياتها وسعادتها مرّة أخرى.

لم يكن بمقدور شخص كمحسن تجاهل هذه المعاناة التي سمع بها، ولكن، لم يكن بمقدوره تقديم أي مساعدة مادية لحل المشكلة، فهو بدوره لا يجني الكثير من المال الذي يمكنه من تقديمه إلى فاتن.

وبينما هو يجلس في منزلة في أحد الليالي؛ خطرت بباله فكرة؛ فقفز من فوق الأريكة، وارتدا ملابسه، وخرج مسرعاً ومتوجهاً نحو منزل فاتن.

وصل محسن إلى منزل فاتن، وقرع الباب، وانتظر للحظات.

فتحت فاتن له الباب، وهي تنظر نحوه باستغراب، وتتساءل عن سبب قدومه المفاجئ.

نظر محسن في عيون فاتن مباشرة، وكأنه بدأ يقرأ كل ملامح الحزن التي تبوح بها هذه العيون المنكسرة، والفاقدة للأمل.

كانت فاتن تملك عينين في غاية الجمال، ولكن القدر أسكن تلك العيون في جسد مشوه، والخيبة سلبت منه سعادته، لينطفئ فيها البريق، وتذبل الروح.

القى محسن عليها التحية، وسألها إن كانت السيدة وداد في المنزل، لأنه يرغب في لقاءها.

أجابت فاتن بأن والدتها بالمنزل، ولكن عليه الانتظار لدقائق.

مرّت بضع دقائق، وعادت فاتن وسمحت له بالدخول.

دخل محسن وجلس على الأريكة، وفاتن لا تزال تنظر إليه بشيء من الاستغراب.

فالعلاقة التي تربط محسن بهم ليست متطورة للحد الذي تسمح له بزيارتهم بهذا الشكل المفاجئ.

خرجت السيدة وداد لاستقباله، وجرى حوار سريع بينهم، وبعدها أبدا محسن رغبته في الحديث معها بشكل منفرد.

حينها زاد استغراب فاتن، ولكن لم يكن بوسعها إلا الانصراف بناء على رغبة محسن.

انتظر محسن حتى انصرفت فاتن وأغلقت الباب، وهنا بدأ بالكلام، وسأل السيدة وداد بداية عن التكلفة التقديرية للجراحة التي تحتاجها فاتن.

أجابت السيدة وداد، بأنه سبق لفاتن وأن عرضت حالتها على طبيب تجميل بالمدينة، وأبلغها بأن الجراحة ستكون مكلفة، وقد تصل إلى أربعين ألف دينار.

كان المبلغ كبيراً بالتأكيد، ولكنه لم يكن خارج توقعات محسن.

وهنا قال محسن: **"حسنا سيدتي.. أنا على استعداد لأن أساعدها في توفير المبلغ"**

تعجبت السيدة وداد، وتساءلت كيف له أن يقدم المساعدة!

رد محسن: **"لا تقلقي حيال الكيفية التي سيتم بها الأمر.. سأبذل ما بوسعي ليتم"**

صمت للحظة ثم قال: **"أعلم بأن قدومي المفاجئ لابد وأن أثار استغراب فاتن.. ولكن لا أرغب في أن تعلم عن الأمر الآن.. فلا زال الأمر مجرّد فكرة.. وقد لا يكتب لها النجاح بالشكل الذي أسعى إليه.. وأنا أريد أن أبعدها عن أي أمل زائف قد تبني عليه أحلام كبيرة"**

تفهمت السيدة وداد كلام محسن، ووعدته بأن الأمر سيضل سراً لحين انتهاء محسن من الترتيبات.

غادر محسن، تاركاً خلفه تساؤلات تدور في راس فاتن عن سبب زيارته لهم بهذا الشكل المفاجئ، وتوجهت نحو والدتها بالسؤال عن سبب قدوم محسن، ولكن السيدة وداد رفضت أن تبين لها الحقيقة، وضلت فاتن لعدة أيام تتساءل، دون أن تحصل على إجابة.

في اليوم التالي، توجه محسن إلى مقر الجمعية، واجتمع بهم، وطلب منهم إقامة معرض خيري جديد، وهو على استعداد للمساهمة فيه بأكبر عدد من لوحاته الخاصة.

كان الأمر يتطلب بعض الإجراءات لترتيب الأمر، ومنها تحديد الحالة التي بحاجة للعلاج.

بطبيعة الحال فالظروف الصحية لفاتن لم تكن تخفى عليهم، بحكم أنها سبق وتقدمت بطلب لعدة مرّات، ولم تحصل على الموافقة.

استخدم محسن كل علاقاته الشخصية مع إدارة الجمعية، حتى تمت الموافقة على إقامة المعرض.

كان محسن يدرك جيداً، أنه لن يتمكن من توفير كامل المبلغ من خلال المعرض، وكانت لديه خطط أخرى ليتمكن من ذلك.

وتم تحديد موعد المعرض، وبدأ محسن بمعاونة عدد من الفنانين من أصدقائه؛ بحملة ترويج كبيرة، ليتمكن من بيع أكبر عدد ممكن من اللوحات من خلال المعرض، بحيث يتم توفير الجزء الأكبر من المبلغ.

كان محسن خلال هذه المرحلة، يتردد على منزل فاتن بين فترة وأخرى؛ ليطلع السيدة وداد على الترتيبات الجارية، بينما

تزداد تساؤلات فاتن عن سبب تردد محسن على المنزل بهذا الشكل، والحديث الخاص الذي يدور بين محسن ووالدتها.

حتى فقدت فاتن السيطرة على فضولها.

فما كان منها إلا أن انتظرت محسن خارج المنزل، لتتمكن من الحصول منه على إجابة لحظة خروجه.

خرج محسن، وتفاجأ بفاتن تستوقفه، وتطالبه بإجابة وهي تقول: **"أود أن أحصل منك على إجابة الآن.. عن سبب حضورك المتكرر إلى المنزل؟"** قالتها فاتن بنبرة صوت جادة.

لم يتوقع محسن أن يلتقي فاتن بهذا الشكل، وارتبك حينها، وحاول التهرب من الإجابة.

ولكنها كانت مصرّة على الحصول على إجابة واضحة منه.

فرد عليها محسن بأنها ستعرف قريباً، وستكون الأمور واضحة بالنسبة لها.

لم تقتنع فاتن برد محسن، فبادرت بسؤاله مجدداً: **"هل المسألة تتعلق بي؟"**

رد محسن: **"في الحقيقة.. نعم"**

حدقت فاتن بشكل مباشر في عيني محسن، ونظراتها تعكس حيرتها، وسألته باستهزاء: **"ماذا.. هل تنوي خطبتي من والدتي؟!"**

لم تكن الإجابة المناسبة على سؤال فاتن سوى الحقيقة التي بدأ محسن في التفكير فيها منذ مدة.

فهو كان يشعر ببعض العاطفة تجاه فاتن، ولم يكن ينكر حقيقة تعاطفه معها، وكانت المشاعر بداخله مختلطة للحد الذي لم يتمكن معها من تحديد مشاعره تجاهها بشكل واضح، هل هي مشاعر حب، أم مجرّد تعاطف مع حالتها وظروفها.

ودون أن ينسى ظروفه الخاصة، التي تجعل منه شخصاً لا يسهل تقبله.

ولكنه ودون وعي رد عليها: **"وهل ستقبلين؟"**

صمتت فاتن للحظات، وهدأ انفعالها فجأة، وبينما كانت تنظر في عين محسن بشكل مباشر منذ لحظات، ارتخت نظراتها نحو الأسفل الآن، وبشكل فطر قلبه، وهو يشعر بذلك الانكسار

الذي اعترى فاتن، والذي يدرك بواعثه.

ظلت فاتن للحظات وهي غير قادرة على الرد بكلمة على سؤال محسن، ومن ثم أجابت وهي تشيح بوجهها بعيداً عن محسن: **"هناك حقيقة يجدر بك معرفتها قبل أن تنتظر مني إجابة"**

رد محسن: **"وماذا إن كنت أدرك عنكِ تلك الحقيقة يا فاتن؟"**

نظرت نحوه فاتن بملامح لا يمكن تفسيرها، وصمتت.

تابع محسن كلامه: **"وربما كل منا لديه حقائق يجدر بالآخر معرفتها.. قبل أن يجيب بنعم.. أو لا"**

ظلت فاتن تحدق في عين محسن دون أن يتفوه أي منهم بكلمة، وانصرف محسن بعدها تاركاً الأسئلة تعبث بتفكير الطرفين.

الفصل التاسع والثلاثون

كأن الحملة الترويجية التي قام بها محسن، والدعوات التي تم إرسالها للعديد من الشخصيات، قد حققت الهدف.

ففي يوم افتتاح المعرض؛ حضر عدد كبير من رجال الأعمال والزوار، الأمر الذي يعني بأن المعرض قد يحقق نتائج جيدة، ويتمكن من جمع مبلغ مناسب من التبرعات من خلال بيع اللوحات.

وبالفعل، فبعد افتتاح المعرض، وبدأ البيع بالمزاد للوحات، تم بيع عدد كبير من اللوحات وبمبالغ مناسبة.

وكان محسن يتابع باهتمام كبير تقدم المزاد، ويشعر بالسعادة كلما بيعت لوحة، ويدون الرقم في ورقة صغيرة كان يحملها بيده.

وقام بحصر الإيرادات في نهاية اليوم؛ ليجد أنها قد تجاوزت الاثنين وعشرون ألف دينار، أي أكثر من نصف المبلغ المطلوب.

وكان ذلك إنجازاً كبيراً حققه المعرض بالفعل، ومن بين أفضل المعارض التي تنظمها الجمعية، من حيث الإيرادات التي حققها.

في اليوم التالي، قام محسن بعرض سيارته للبيع، وهي الشيء الوحيد الذي كان يمتلكه، وبإمكانه توفير مبلغ معقول، يساعد في تحقيق الرقم النهائي المستهدف.

انتظر محسن لبضعة أيام، حتى تمكن من الحصول على زبون وافق على دفع مبلغ عشرة آلاف دينار، مقابل السيارة.

وبذلك كان المبلغ المتبقي ليكتمل مبلغ الأربعين ألف دينار، هو ثمانية الاف دينار فقط.

كان على محسن حينها اتخاذ قرار غير مريح بالنسبة له، فقد قرر أن يتصل بهشام ليطلب منه معاونته في استكمال المبلغ.

وبالرغم تردده في الأمر، ولكنه في النهاية قرر أن يبادر بتلك الخطوة، واتصل بهشام، وطلب منه أن يحدد له موعد.

وبعد أن مرت عشر سنوات على آخر لقاء بينهم، ها هم يلتقون مجدداً، فاللقاء السابق تم حين أنهى محسن تعليمه الثانوي، وحين كان يبلغ الثامنة عشر من عمره، وها هو اليوم يعود في عمر الثامنة والعشرين، ليلتقي بهشام.

كان هشام قد تحول لأحد رجال الاعمال البارزين في العاصمة، بينما اسم محسن كان بدأ بالظهور قليلاً بين جملة من أسماء الفنانين، وسبق لهشام أن قرأ اسمه في بعض الصحف أثناء مشاركته في المعارض.

حضر محسن إلى منزل هشام حسب الموعد، وقرع جرس الباب، ووقف بانتظار أن يفتح له.

دخل محسن المنزل الذي قضى فيه أجمل سنوات طفولته، وربما كانت تلك هي أجمل سنوات عمره على الاطلاق.

كان محسن لا يزال يحتفظ بالكثير من الذكريات له في حديقة المنزل، وبين جدرانه، وكان يخيل إليه أنه يشم رائحة تلك المرأة التي أحتضنه بكل حب وكأي أم.

دخل هشام والقى التحية على محسن، وكان يبدو في هذه المرة أكثر ودية في الحديث.

مرّ بعض الوقت، ودارت بينهم بعض الأحاديث، وتحدث الاثنان عن حياتهم، وما تحقق لهم، وبطبيعة الحال لم تكن أي من إنجازات محسن ترقى لمستوى إنجازات هشام.

بعد ذلك، بدأ محسن يتحدث عن سبب زيارته: **"في الحقيقة يا هشام.. أنا طلبت هذا اللقاء لسبب قد لا تتوقعه"**

نظر نحوه هشام، وطلب منه مواصلة الحديث.

وأكمل محسن حديثه وهو يقول: **"كان لك والدان رائعان يا هشام.. ولن تجد شخصاً أكثر مني قدرة على وصف مدى نبلهم.. وأنا من احتضناني بكل ذلك الحب من جانبهم على مدى سنوات.. ودون أن أشعر بأنني طفلهم بالتبني"**

رد هشام: **"أقدر لك مشاعرك تجاههم"**

محسن: **"لا تشكرني.. فأنا لن أفيهم حقهم ببضع كلمات قد تقال"**

عدل محسن من جلسته قليلاً، وعاد ليقول: **"في الحقيقة لقد حضرت اليوم لطلب الحصول على دعمك لحالة إنسانية.. حملت على عاتقي مسئولية مساعدتها"**

لم يرد هشام بأي كلمة، واكتفى بالصمت والاستماع، وانتظار أن يكمل محسن كلامه.

قدم محسن بعض الأوراق لهشام، وقال له: **"انظر.. هذه الوثائق تثبت لك بأني لا أسعى للحصول على مبلغ لصالحي الخاص.. يمكنك التأكد منها بطريقتك"**

توقف محسن عن الحديث، بينما أخذ هشام في تصفح الوثائق.

ثم سأل محسن عن المبلغ المتبقي ليكتمل.

رد محسن: **"ليس بالكبير.. فقط ثمانية آلاف دينار.. ويمكنك تحرير شيك بالمبلغ لصالح الجمعية.. ليس بالضرورة أن تسلمني إياه نقداً"**

هز هشام رأسه، وكأنه بدأ يتفهم المسألة.

كان محسن حريص على أن يحقق الهدف من هذه الزيارة، بعد كل ذلك التردد الذي كان يشعر به حيالها.

فعلى أي حال، هو قد طلب تحديد الموعد، وطلب مساعدة هشام، ولا يمكنه الرجوع خالياً.

كان صمت هشام يشعر محسن بالقلق، مخافة أن يبدي هشام أي اعتراض، أو أن يعتذر منه بلطف.

فما كان من محسن إلا أن عاد للحديث مجدداً، وقال: **"لقد جئت إليك اليوم وأنا أضع كل ثقتي فيك.. فلم تعد لدي أبواب أخري يمكنني ولوجها"**

نظر في عيني هشام مباشرة، وقال: **"أرجوك"** وأكمل حديثه: **"المسألة تتعلق بحياة إنسانة أخرى.. تنتظر أن تبتسم لها الحياة مجدداً"**

رد هشام: **"حسناً يا محسن.. أنا على استعداد للتبرع بالمبلغ المتبقي"**

كانت سعادة محسن كبيرة حين سمع رد هشام.

لقد تمكن أخيراً من توفير كامل المبلغ، وأصبح بإمكانه الآن التوجه إلى منزل فاتن، وإبلاغها بأنه بات بمقدورها إجراء الجراحة.

وطلب هشام من محسن أن يعود في الغد، ليحصل على المبلغ.

وهذا ما تم بالفعل، وحصل محسن على المبلغ من هشام، ولم يتبقَ الآن سوى أن تبدأ فاتن في إجراء الفحوصات اللازمة لإجراء الجراحة.

الفصل الأربعون

ابتسامة تعانق شفاه

خرج محسن في اليوم التالي راكضاً من منزل هشام، واستوقف سيارة أجرة، وتوجه إلى منزل فاتن، وهو لا يكاد يصدق بأنه قد تمكن من تحقيق هذا النجاح.

كان طوال الطريق يرتب الطريقة التي يمكنه بها مفاجأة فاتن بالخبر.

تخيل بأنه بمجرّد سماع فاتن بالمفاجأة، سيسقط قناع الانكسار ذاك من على وجهها؛ ليشرق وجهها الحقيقي من خلف ذلك القناع بابتسامة كبيرة.

فالابتسامة هي أجمل تعبير يمكنه أن يرتسم على ملامح البشر، وخاصة حين يكون أحدهم فاقداً للأمل، ويرزح تحت أكوام من الخيبات.

وأخيراً ستتمكن فاتن من استرداد سعادتها التي فقدتها في سن مبكرة، وأن تعيش هذه الحياة بروح جديدة، وكأنها تولد للتو.

وصل محسن إلى منزل فاتن، وقرع الباب، وانتظر للحظات.

وكالعادة، كانت فاتن هي من فتح الباب، ونظرت نحوه بنفس نظرات التعجب السابقة، وقالت له: **"أنت مجدداً!"** قالت ذلك بشيء من الاستياء، ومن ثم أكملت: **"أظنك ستطلب محادثة أمي بشكل منفرد مثل كل مرّة!"**

ابتسم محسن بقدر كبير من المشاغبة.

مما زاد من حيرة فاتن وعلقت: **"يا إلاهي متى سينتهي هذا اللغز!"**

رد محسن بنبرة سعادة كبيرة: **"خلال دقائق"**

وسألها إن كان بإمكانه الدخول؟

دخل محسن وجلس على الأريكة، وهو يضم بين يديه الظرف، الذي بداخله المال الذي حصل عليه من هشام، إضافة إلى قيمة السيارة التي قام ببيعها.

كان محسن يجلس على الأريكة ويبتسم بشكل طفولي يثير حيرة فاتن، فهي منذ أسابيع لم تتمكن من حل هذا اللغز، والآن تشاهد محسن لأول مرة على هذه الحال من السعادة الكبيرة.

دقائق وحضرت السيدة وداد لاستقبال محسن، وجلست بجوار فاتن.

وفي لحظة شعر محسن بأن كل الكلام الذي أعده في أثناء قدومه بالطريق قد تبخر، وأحس بالارتباك وهو يبحث عن الكلمات المناسبة ليبلغ فاتن ووالدتها بالخبر.

نظرت إليه السيدة وداد، وقالت باستغراب: **"ما بك يا بني؟.. تحدث "**

ثم انتبهت للأمر، وطلبت من فاتن مغادرة المكان.

قاطعها محسن وقال: **"لا يا سيدتي.. في هذه المرّة عليها أن تكون متواجدة"**

التزمت فاتن الصمت وهي تراقب هذا التوتر البادي على ملامح محسن، وشعرت بأنه غير قادر على الكلام فعلاً.

استجمع محسن قواه، ونظر في عيني فاتن وهو يبتسم، وبدأ بالقول: **"بات بإمكانك الآن إجراء الجراحة يا فاتن"**

صرخت السيدة وداد وهي تشعر بالسعادة مما سمعته، بينما ازداد استغراب فاتن، وقالت: **"أنا لا أفهم ما لذي يجري.. وعن أي شيء تتحدث!"**

رد محسن: **"لقد تمكنت من توفير مبلغ الجراحة التي أنتِ بحاجة إليها يا فاتن.. بات بإمكانك الآن أن تستعيدي روحك التي احتجزت منذ سنوات داخل هذا الجسد"**

وهنا بدأت السيدة وداد بالبكاء، وسرد القصة كاملة لفاتن، وكيف تمكن محسن من توفير مبلغ الجراحة.

كانت فاتن تستمع لوالدتها باندهاش.

فهي توصلت أخيراً لحقيقة السر وراء تردد محسن على منزلهم منذ أسابيع.

وبدأت دموع فاتن تنساب وهي تستمع لوالدتها، وقفزت فجأة وركضت نحو الغرفة الأخرى، وأغلقت الباب خلفها.

أدرك محسن بأن فاتن لم تتمكن من استيعاب المفاجأة، وأنها بحاجة لأن تأخذ وقتها في ذلك، وتفرغ كل تلك المشاعر.

واستمر محسن في مناقشة بعض التفاصيل المتبقية مع السيدة وداد لبعض الوقت.

وحين طلب محسن من السيدة وداد السماح له بالمغادرة، خرجت فاتن مجدداً، ووقفت أمامه وهي تنظر في عينه مباشرة.

كان يبدوا عليها بأن لديها ما تقوله.

ووقف محسن وهو ينتظر أن يسمع منها ما تود قوله.

قالت فاتن: **"إنني أقبل"**

ابتسم محسن، بينما كانت السيدة وداد تقف بينهم وهي لا تفهم، حول أي شيء كانت فاتن تبدي موافقتها!

رد عليها محسن: **"لن أعير هذا القرار أي اهتمام الآن.. سأنتظر حتى تقومي بإجراء الجراحة.. وبعدها سأحصل على قرارك.. وبعد أن تستمعي إلى ما لدي أيضاً"**

الفصل الحادي والأربعون

مضت عد أيام على إجراء فاتن لجراحة التجميل التي شملت أجزاء من جبينها، ووجها، ورقبتها.

داوم خلالها محسن على زيارتها بالمستشفى، وهي لا تزال تخضع للرعاية، ولا تزال أجزاء من وجهها مغطاة.

وكان يستشعر من خلال حديثه معها؛ مدى لهفتها لإزالة تلك الضمادات؛ لمعرفة النتائج التي تحققت بعد الجراحة.

وحتى بعد أن تم السماح لها بالخروج من المستشفى؛ كان عليها أن تنتظر لعد أيام أخرى، حتى تتم إزالتها بشكل كامل.

واستمر محسن على زيارتها بالمنزل، ويقضي بعض الوقت برفقة فاتن.

كان محسن يشعر بالتغيير الذي طرأ على شخصية فاتن بعد الجراحة مباشرة.

فقد بدت أكثر انفتاحاً للكلام مع محسن، وظهر الجانب الآخر من شخصيتها، واتضحت جوانبها المرحة.

كثيراً ما تكون الحياة قاسية للحد الذي تفقدنا الكثير من أنفسنا، حتى نبهت ونذبل، ونتحول إلى ما نشبه الصورة التي رسمت على جدار، بقليل من التعابير التي لا تعكس حقيقتنا، وحتى إن كانت هناك ابتسامة تمرّ بشفاهنا بين الحين والآخر؛ فإنها تكون ابتسامة باهتة، ومنطفئة، لا تعكس ابداً الروح التي تشع بداخلنا.

حل موعد إزالة الضمادات عن وجه فاتن، وكان من المقرر أن يرافقهم محسن، ولكنه تأخر قليلاً، ولحق بهم فيما بعد في المستشفى.

وقف محسن والسيدة وداد أمام فاتن، بينما تجلس هي على السرير بانتظار إزالتها.

كان التوتر بادياً على فاتن، وهي تنتظر أن ترى النتائج، ومحسن يشعر بنفس القدر من التوتر.

لحظات، ودخل الطبيب، وطلب من الممرضة البدء بإزالة الضمادات، ولاحظ محسن ازدياد التوتر على ملامح فاتن.

انتهت الممرضة من إزالة كافة الضمادات، واقترب الطبيب وبدأ بمعاينة الجروح التي لا تزال موجودة في أماكن الجراحة، ومن ثم نظر إلى فاتن وابتسم وقال لها: **"الحمد لله.. تبدو لي النتائج ممتازة.. مبروك يا فاتن"**

ارتسمت ابتسامة مشرقة على ملامح فاتن، واقتربت منها الممرضة وهي تحمل مرآة صغيرة بيدها، وقرّبتها من فاتن.

نظرت فاتن إلى نفسها في المرآة، وبدأت بتأمل وجهها وهي تمر بأصابعها فوق الأجزاء التي كانت مشوهة في السابق، وتتحسس نعومة بشرتها في نفس المكان الذي كان يمتلأ بالتجاعيد، وبدأت دموع الفرح تنساب بلطف من عينها.

كانت فاتن لا تزال قلقة حيال نجاح العملية، وأخذت في طرح أسئلتها على الطبيب، وبدوره طمئنها بأن الأمور ستتحسن مع الأيام، وستزول كل تلك البقع الحمراء التي لا تزال ظاهرة.

وبعد إجابات الطبيب؛ شعرت فاتن بارتياح كبير، ومدت يدها نحو الشال الكبير الذي كان لا يزال على رأسها والقت به، وانساب شعرها على جبينها وهي تعبث به بيدها، لتحاول ترتيبه.

ولأول مرّة، يتمكن محسن من رؤية ملامح فاتن بشكل كامل، دون أن يغطي الشال أجزاء منه.

وأخيراً تمكنت فاتن من استعادة ابتسامتها، وشعرت بأن شيئاً ثقيلاً كان يجثم فوق صدرها منذ زمن طويل بدأ ينزاح.

خطت فاتن خطواتها الأولى خارج المستشفى، وقبل أن تنزل الدرج، توقفت للحظة، وأخذت نفساً عميقاً وكأنها تتنفس لأول مرة.

هبت نسمة هواء رقيقة، بعثرت أجزاء من شعرها، وكأنها تحررت من كل أحزانها.

عرض محسن على فاتن والسيدة وداد أن يصحبهم إلى الرصيف الموازي للنهر للتنزه.

سار ثلاثتهم وتجاوزا مواقف السيارات الخاصة بالمستشفى،

باتجاه الطريق، وانتبهت السيدة وداد حينها وسألت: **"أين هي سيارتك يا محسن!"**

أجاب محسن بأنه لم يعد يملك سيارة، وقد اضطر لبيعها قبل أيام.

نظرت نحوه فاتن وهي تسأل: **"فعلت ذلك من أجلي.. صحيح؟"**

أجاب محسن بعد تردد، بأن ذلك ما حصل بالفعل.

وصل الجميع إلى الرصيف، وقرروا الجلوس في أحد المقاهي الموجودة هناك.

مرّ بعض الوقت، وبعدها أبدت السيدة وداد رغبتها في السير والتنزه بمفردها، وكأنها كانت تحاول من وراء ذلك منح فرصة لفاتن ومحسن للحديث بشكل منفرد.

التفتت فاتن نحو محسن، ونظرت في عيونه مباشرة للحظة، ثم قالت: **"لقد غمرتني بمواقفك يا محسن.. لم أحظى أبداً**

بكل هذا الحب والاهتمام من أحد سابقاً.. لأول مرّة أشعر بأنني أعني شيئاً مهماً بالنسبة لشخص آخر"

رد محسن: **"لم يكن بمقدوري أن أقف متفرجاً على كل ذلك الألم الذي كان يقيم قلاعة في داخلك.. دون أن أحاول هدمها"**

عاد الأثنان للصمت مجدداً، وبدأت فاتن تتابع مشهد النهر والمتنزهين على ضفافه، بينما لم تكف خلالها عن العبث بشعرها كلما هبت النسمات.

بدى ذلك مصطنعاً لمحسن، وشعر بأن فاتن تمارس ذلك الفعل كنوع من الشعور بالمتعة، التي حرمت منها لسنوات، وتمكنها أخيراً من الظهور دون خجل أما الناس.

فعلق قائلاً: **"منذ خرجنا من المستشفى لم يكف النسيم عن مغازلة شعرك"**

ابتسمت فاتن بلطف، وانحنت بجلستها على الطاولة، وقالت: **"سأكرر إجابتي الآن.. أنا موافقة"** وصمتت للحظة، وعادت تسأل: **"ألا ترا أن الوقت بات مناسباً الآن لقول ذلك؟"**

رد محسن: **"بالتأكيد.. هو مناسب كذلك لأن تسمعي مني**

ما ينبغي عليك معرفته"

فاتن: **"تحدث.. أنا أنصت إليك"**

بدأ محسن بالحديث، والكلام عن حقيقته، وأنه قضى سنوات عمره المبكرة في منزل عائلة، وانتقل بعدها للعيش في ملجأ الأيتام في العاصمة، وحقيقة أنه طفل لأبوين مجهولين.

كان محسن يضع علاقته بفاتن على المحك، وهو يسرد تلك الحقائق المتعلقة به، ولا يمكنه تخمين ردة فعل فاتن حين تعرف كل ذلك، ويضع جميع الاحتمالات الممكنة التي قد يتلقاها من ردود فاتن.

مرّ الوقت، ومحسن مستغرق في الحديث، وفاتن تنصت إليه باهتمام، دون أن تبدي الكثير من ردود الفعل.

وبعد أن انتهى محسن من الكلام، نظر إليها وقال**: "والآن أنا انتظر منك الإجابة النهائية؟"**

ردت فاتن وبدون أي تردد: **"وأنا أبلغتك بقراري منذ دقائق"** وتابعت: **"لن أنسى وقوفك بجانبي لأتمكن من استعادة إحساسي بالحياة أبداً ما حييت يا محسن"**

محسن: **"ولكن أنا لا أريد منكِ أن تقبلي بالزواج مني من أجل ذلك.. ولم أطالبك بالمقابل"**

فاتن: **"أنا لا أقبل بالزواج بك من أجل أني أرغب في رد المعروف.. ولكني عن اقتناع بك كشخص.. وأعدك باني سأكون إلى جانبك دوماً"**

محسن: **"كنت أتساءل كذلك عن ردة فعل السيدة وداد؟ على كل ذلك!"**

فاتن: **"سأتولى حل هذه المسألة الليلة.. لا تقلق"**

الفصل الثاني والأربعون

السعادة الزائفة

استمرت خطوبة محسن وفاتن لبعض الوقت، واتضحت مشاعر كلا منهم تجاه الآخر بشكل أكبر.

وكان لدى كل طرف مشاعره الخاصة، وأوجاعه التي يرغب في الحديث عنها والبوح بها، وبحاجة إلى شخص يشاركه أحلامه وأمنياته.

وأكبر أمنيات فاتن كانت هي أن تتخلص من حياة الفقر التي رافقتها منذ طفولتها، والحرمان من أبسط متطلباتها كأنثى، ودائماً ما كانت تردد بانها ترغب في أن تتجاوز كل تلك السنوات، وأن تعيش الحياة بكل ملذاتها.

لم يخلو الأمر من بعض الخلافات التي من الطبيعي أن تحصل بين أي شريكين يخطون خطواتهم الأولى نحو حياة مشتركة.

ولكن، مع تزايد تلك الخلافات؛ بدأ محسن يشعر بأن فاتن شخصية مختلفة عنه بشكل كبير، واكتشف بأنها شخصية ينقصها الاتزان في كثير من الجوانب.

كان التغيير الذي طرأ عليها بعد الجراحة واضحاً بالنسبة إلى محسن، فالتغيير كان كبيراً، وبدت فاتن شخصية متمردة ومتذمرة إلى حد بعيد.

ولكن محسن مع كل تلك الاختلافات؛ كان يشعر بالسعادة بوجودها بالقرب منه، وكأنه بدأ يدرك بانه لم يعد وحيداً، وتبددت تلك المخاوف السابقة التي كان يقلق بشأنها، حين تمر بذاكرته قصة صديقه نضال.

وكان من الصعب عليه أن يعود إلى نقطة الصفر من جديد، ويعود إلى وحدته السابقة.

واستمر في تجاوز بعض تلك الأخطاء التي ترتكبها فاتن بين الحين والآخر، وهو يعتقد بأنه سيتمكن مع مرور الوقت من إحداث بعض التغيير في شخصيتها.

أقام محسن حفل زفاف صغير ومختصر، واقتصر الحضور فيه على بعض الأصدقاء وأقرباء فاتن، وانتقلت بعدها فاتن للعيش في منزل محسن.

ومنذ البداية لم تكن الأمور تسير بين الاثنين بشكل مثالي، فالخلافات كانت متكررة ومستمرة وعلى أتفه الأسباب.

وطفت شخصية فاتن المتمردة والمتذمرة على السطح، بحيث عجز محسن عن التوصل لأسلوب مناسب ليخلق مساحة من الانسجام أو التفاهم بينهم.

وبينما كانت الخلافات تنشأ لأسباب تافه، ويحاول محسن معالجتها بمنطقية؛ كانت فاتن لا تكف عن توجيه الاهانات والصراخ في وجهه باستمرار.

شعر محسن بكثير من السوء والإحباط تجاه تصرفات فاتن الخارجة عن السيطرة، والتي عادة ما كانت تثير جنونه، ولكنه لم يفقد أبداً شعوره بالحب تجاهها، وكان بالرغم من كل تلك الخلافات؛ إلا إنه يكن لها الكثير من المحبة.

وفي المقابل، فقد كانت هي تفقد مشاعرها تجاه محسن بسرعة كبيرة.

وحاول محسن في النهاية السيطرة على تلك الخلافات بالتجاهل، وعدم التمادي في النقاشات؛ لكي لا تزداد حدة، وحاول احتواء فاتن قدر استطاعته، ولم يجد سوى تلك الوسيلة لتجنب الصدامات.

مرّ العام الأول من زواجهم على هذا النحو من التوتر، حتى هدأت الخلافات قليلاً.

وكانت المفاجأة التي لم يكن محسن ليصدقها؛ هي حين أخبرته فاتن بأنها حامل بطفلهم الأول.

وتلك كانت أسعد اللحظات التي عاشها محسن على الإطلاق.

في حين كانت سعادته أكبر لحظة تبين له نوع الجنين، واتضح بأن فاتن حامل بأنثى.

بدأ محسن وفاتن في البحث عن اسم مناسب لطفلتهم الأولى، وهم يعدون الأيام لمعرفة موعد ولادتها.

رغم كل تلك السعادة التي شعر بها كلاهما؛ إلا أن فاتن

لم يكن بمقدورها أن تخفف من حدة طباعها، والتي بالتأكيد ازدادت مع تقدمها في الحمل، وهي تختلق الخلافات، وتحول سعادة محسن إلى تعاسة، وإلى جو من النكد المتواصل.

ولم تتردد فاتن في ترك المنزل والعودة إلى منزل والدتها، الأمر الذي كان يتكرر كل عدة أسابيع.

ومحسن في كل مرّة يحاول حل الخلاف، والطلب منها العودة إلى المنزل.

وحتى السيدة وداد لم تكن قادرة على استيعاب هذا التغيير الكبير في شخصية فاتن، وعلى تمردها الخارج عن السيطرة، بالرغم من أنها كانت كثيراً ما توجه اللوم إلى محسن، وتطالبه ببذل المزيد من الحب والاحتواء؛ لتتمكن فاتن من الشعور بالرضا.

مرّت شهور الحمل تلك؛ وعلاقة محسن وفاتن تتأرجح بين مشاعر السعادة والفتور، وبين الانسجام والصدام.

وأنجبت فاتن طفلتهم نغم، والتي كانت أجمل شيء يحظى به محسن في حياته.

لقد تحولت نغم إلى مصدر السعادة لمحسن، والذي كان يقضي الساعات الطويلة بجانبها، وفي مداعبتها والخروج بها للتنزه واللعب.

الفصل الثالث والأربعون

السقوط الأخير

كانت حياة محسن وفاتن شهدت بعض التحسن والاستقرار في علاقاتهم المشتركة، بينما نغم تكبر يوماً بعد يوم، وتكبر معها محبة محسن لها.

تلك الحياة التي يعيشها محسن بالقرب من زوجته فاتن وطفلته؛ كانت كافية بالنسبة له للشعور بالسعادة والرضا، ولم يرغب في شيء أكثر من أن يواصل حياته بالقرب منهم، فهو الشخص الذي انحرم من الشعور بدفء العائلة طوال عمره منذ سن مبكرة.

وحتى تلك العائلة التي قضى بينها طفولته المبكرة؛ لم تكن عائلته الحقيقية، فعلى أي حال كان سيكبر ويكتشف يوماً تلك الحقيقة، ولن يشعر يوماً بصدق محبة هشام له بأي كيفية.

ولكن فاتن ونغم هم عائلته الحقيقية التي لا يمكن إنكارها، ولا يمكن أن تتحول إلى كذبة ما تلبث وأن تنتهي.

أحياناً، نظن بأن من يعيش معنا تحت سقف واحد يحمل نفس أحلامنا، ويمكن أن يشعر تجاه تلك الحياة المشتركة بنفس ما نشعر به، والشيء الذي ربما يكون صادماً بالنسبة إلينا بشكل أكبر؛ هو أننا نظن مخطئين بأننا نمتلك نفس المساحة في قلوبهم.

إننا نستمر بتلك الظنون لسنوات طويلة، دون أن نشك ولو لمجرّد الشك؛ بأننا قد نكون على خطأ.

وخاصة حين يكون الطرف الثاني بارعاً في إخفاء مشاعرة، وقادراً على التمثيل.

وحينها، تكون تلك الصدمة قاسية لحد بعيد.

وبالرغم من أن العلاقة بين محسن وفاتن كانت تشعره بان العلاقة بينهم مستقرة بشكل كبير؛ إلا أن الخلافات كانت تقع دون أن يتمكن من تجنبها.

فطبيعة فاتن المتذمرة؛ كانت تدفعها كثيراً للشكوى والتأفف من المستوى المادي للعائلة.

ودائماً ما تثير المشاكل لهذه الأسباب، إما بمطالبة محسن بالمزيد من الجهد لتوفير المزيد من المال، أو تارة أخرى بممارسة التنمر والانتقاص من ميول محسن الفنية، دون إبداء أي قدر من الاحترام والتقدير لما يقوم به.

ذلك التاريخ من الحرمان الذي عاشته فاتن طوال حياتها؛ جعل منها شخصية مهووسة بالهرب من شعور الحرمان، وتجنب الوقوع فيه مرّة أخرى.

كان محسن يحاول تفهم تلك المشاعر، ولكن طريقة فاتن في التعبير عن رغباتها، كانت تجعله غير قادر على التعاطف معها.

فهي عادة ما تكون هجومية وحادة، وتمارس التنمر ضد كل اهتمامات محسن.

وكان من الطبيعي أن يتخذ مواقفه الدفاعية ضد هجماتها، وبذلك تتسع مساحة الخلافات بينهم.

حين بلغت نغم الرابعة من عمرها، أبدت فاتن رغبتها في الحصول على وظيفة

كانت مبرراتها في ذلك؛ هي رغبتها في زيادة دخل العائلة، والحصول على قدر أكبر من الرفاهية، وإنها بذلك ستكون قادرة على الوقوف بجانبه ومساعدته في تحمل جزء من مسئوليات الحياة.

لم يبدي محسن اعتراضه على طلب فاتن، طالما أن تلك هي رغبتها، كما أنه تأمل في أن ذلك قد يخفف من توترها بعض الشيء.

وبدأت فاتن بالبحث عن فرصة عمل بالفعل، واستمر الأمر لعدة أشهر حتى تمكنت من الحصول على وظيفة في أحد الشركات التجارية، وبأجر لا بأس به.

وكان على الاثنين حينها مناقشة بعض التفاصيل المتعلقة بالأمر.

فخروج فاتن للعمل كان يعني بأن ذلك سيكون على حساب واجبات أخرى.

ولكن فاتن كانت تبدي تفهمها لقلق محسن، وأبدت التزامها بأنها لن تهمل رعاية طفلتهم في أي حال.

وقامت فاتن بالبحث فوراً عن دار حضانة مناسبة، يمكنها أن ترعى نغم لساعات، وخلال تواجد فاتن في العمل.

لم يدرك محسن حينها؛ بأن فاتن بدأت بالفعل في دق المسمار الأخير في نعش علاقتهم الزوجية.

وأن رغبتها في العمل لم تكن سوى محاولة منها للاستقلال عن محسن، وترتيب حياتها لما سيكون بعده.

ولم تسر الأمور كما كان محسن يظن، من أن انشغال فاتن بالعمل قد يخفف من التوتر بينهم، ويجعلها أكثر سعادة.

بل على العكس من ذلك؛ ففاتن رفعت من درجة تمردها في وجه محسن، إلى جانب إهمالها لواجباتها المنزلية بالكامل.

وبمجرّد حصول فاتن على أول أجر شهري لها؛ بدأت بإنفاقه على زينتها الشخصية.

متناسية تلك المبررات التي كانت تسوقها لمحسن، بأنها تحاول تحمل المسئولية معه.

واستمرت العلاقة بينهم بالتوتر أكثر، وأكثر، وبدأت فاتن في تكوين صداقات متزايدة مع زميلات العمل، ما يعني بانها باتت لديها التزامات تجاههم، وتكرار الخروج في المساء للقائهم.

لم يتمكن محسن من تحمل تصرفات فاتن التي بدأت تزداد سوءاً، وبدأت بإهمال طفلتها، وتركها لساعات طويلة بالمنزل مع محسن.

وحين أثار محسن معها تلك المسألة؛ حصل بينهم صدام ونقاش طويل.

ولكن فاتن أبدت استعدادها للتخفيف من وتيرة تلك المواعيد، والاهتمام بشكل أكبر بنغم.

أدرك محسن بأن ذلك لم يكن سوى التزام شكلي، لتتمكن من امتصاص غضبه، وهو من لم يعتد من فاتن أن تستسلم، وتتنازل بسهولة عن غاياتها.

وبالفعل، فقد ابتكرت فاتن وسيلة أخرى لتتمكن من ممارسة حياتها بالشكل الذي ترغب فيه.

وبدأت تتأخر في العودة إلى المنزل بحجة بأن لديها الكثير من العمل الذي عليها إنجازه، بحيث غدى الأمر الآن أكثر سوءاً، فهي باتت لا تتواجد في المنزل طوال اليوم، وتعود في ساعة متأخرة، وتتجنب الحديث مع محسن في أي أمر، أو مناقشة أي مسالة معه، متعذرة بانها متعبة من العمل.

في أحد الأيام، اتصلت فاتن بمحسن قبل انتهاء موعد العمل بفترة قصيرة، وأبلغته بأنها مضطرة للبقاء في المكتب لوقت متأخر، ولا يجدر به القلق بسبب تأخرها في العودة إلى المنزل.

وبعد أن أنهى محسن عمله؛ توجه إلى الحضانة، وأقل نغم وعاد بها إلى المنزل، وانتظر لعد ساعات، ثم خرج مرّة أخرى وهو يحمل طفلته.

توجه محسن إلى المبنى الذي تعمل فيه فاتن، وسأل حارس المبنى إن كان هناك أحد بالداخل، ولكن الحارس أكد له بأن المبنى خالي تماماً من أي أحد.

اتصل محسن من هاتفه على فاتن، وسألها عن مكان تواجدها؟

وردت فاتن بأنها لا تزال بالمكتب.

قال محسن: **"حسنا يا فاتن.. أنا أقف الآن أما باب المبنى.. وأرغب في أن تخرجي إلى الخارج للقائي"**

ارتبكت فاتن، وبدأت بالبحث عن كذبة يمكنها تقديمها لمحسن، وبدأت بسردها: **"في الحقيقة.. لقد خرجت للتو برفقة أحد الزميلات لتناول الغداء"**

لم يتمكن محسن من السيطرة على انفعاله، واتهمها بالكذب، ونشب جدال طويل بينهم على الهاتف، وأغلقت فاتن الخط.

حاول محسن بعدها الاتصال بها لعدة مرّات، ولكن فاتن كانت قد أغلقت هاتفها.

عاد محسن إلى المنزل وهو في غاية التوتر والانفعال، وينتظر عودة فاتن.

وعادت فاتن بعد عدة ساعات، وانفجر محسن في وجهها غاضباً، ونشب بينهم شجار استمر لبعض الوقت.

وفجأة، توقفت فاتن عن الكلام والرد على محسن بأي كلمة، ومحسن في حالة انفعال.

وحين صمت محس للحظة، وجهت فاتن إليه سؤال: **"هل انتهيت؟"**

رد محسن: **"لا.. لم انتهي بعد"**

فاتن: **"أما أنا فبلى.. لقد انتهيت.. علاقتنا هذه لابد وأن تتوقف هنا.. لا يمكنني الاستمرار"**

كانت كلمات فاتن صادمة لمحسن، وسألها عما قد يعنيه ذلك**!**

لم ترد فاتن بكلمة، وتوجهت نحو الغرفة وأغلقت الباب خلفها.

استمر الأمر لساعة، وخرجت بعدها فاتن وهي تجرّ خلفها حقيبة كبيرة، وتوقفت أمام محسن للحظة، وقالت**: "أنتظر منك أن تبدأ بإجراءات الانفصال فوراً"**

خرجت فاتن وهي تحمل نغم معها، وشعر محسن فجأة بأن عالمة آخذ في الانهيار.

ذلك العالم الذي طالما حلم به، وسعى لتحقيقه، حتى غدا واقعاً يمكنه تلمسه بيده.

بدأ يشعر بالبرد فجأة، وأدرك أن ذلك البرد لم يكن سوى بسبب الدفء الذي قرر أن يغادر هذا المنزل، وإلى الأبد، تاركاً إياه يتجمد في هذا الصقيع.

لم يحاول محسن التواصل مع فاتن طوال أسابيع؛ لأنه بات يدرك بأن الشرخ الذي كان موجوداً من البداية بينهم؛ اتسع للحد الذي لا يمكنه أن يلتئم مجدداً.

كان يدرك، بأن تمرد فاتن بلغ حداً يصعب على أي أحد السيطرة عليه.

ولكنه ومع ذلك كله؛ كان يشتاق إليها، ولكن كبريائه هو الآخر يمنعه من أن يبدي ضعفه أمامها إلى هذا الحد.

فقرر في رؤيتها، ولكن من بعيد، ودون أن تشعر هي بذلك.

وفي المساء، توجيه إلى حيث كانت تعمل فاتن، وانتظر في مكان بعيد؛ ليحاول رؤيتها وهي تخرج من العمل.

انتظر لعدة دقائق، ورآها تخرج بصحبة رجل، وتركب معه في السيارة.

وقف محسن مندهشاً من الأمر، ولكنه قرر اللحاق بهما، وسار خلفهم بعد أن استأجر أحد سيارات الأجرة.

استمر في الطريق خلفهم لعدة دقائق، بعدها توقفت السيارة التي كانت تقل فاتن عند أحد المطاعم، ونزلت هي والرجل ودخلا إلى المطعم.

وحين تمكن من رؤية الرجل من بعيد؛ أدرك أنه صاحب الشركة التي تعمل فيها فاتن.

هنا توقفت سوسن عن قراءة المذكرات، وهي تشعر ببعض الارتباك، فبعد أن وصل الأستاذ محسن إلى كتابة هذه الجملة؛ انتقل فجأة للحديث بشكل مختلف، وكأن هناك جزء غير متصل في الأحداث التي يسردها.

ولأول مرة منذ أن بدأت سوسن بقراءة المذكرات، تواجه

مثل هذا الانقطاع في تسلسل السرد.

وحين أمعنت النظر جيداً في الصفحات؛ أدركت أن هناك عدد من الصفحات التي تم انتزاعها من بين الأوراق؛ لتشعر ببعض الحيرة، وهي تطرح العديد من التساؤلات، دون أن تكون لديها القدرة على الإجابة.

كان الأستاذ محسن، قد انتقل فجأة للحديث عن مشاعرة بشكل لا يخلو من ألم عميق وهو يكتب.

"بت أدرك الآن جيداً، بأن الحياة لا يمكنها أن تبتسم لشخص؛ قررت بأن تعبس في وجهه مرّة ومنذ ولادته.

تلك التعاسة؛ هي وشم تسم به الحياة وجوه من تختار بأن تجعل منهم تعساء، مهما كانت محاولاتهم للهروب من ذلك والانعتاق.

وها أنا أعود لوحدتي، محملاً بالعديد من الخيبات الجديدة، والخذلان، والجراح النازفة، ودون أن أدرك متى وكيف تلقيت كل تلك الطعنات، التي تسببت بكل هذه الجراح.

لقد اكتفيت.. نعم اكتفيت، وتوصلت لقناعاتي النهائية، بأنني لست الشخص الذي يحق له بأن يحلم بالسعادة، فتلك السعادة ماهي إلا وهم، نلهث خلفه ولا ندركه.

نستمر بالركض خلفه في حالة من الهستيريا، للحد الذي قد نفقد معه إدراك كل الإشارات التي تبعث بها الحقيقة، لكي نستفيق ونتوقف عن اللحاق خلف أوهامنا.

وللأسف، أننا لا ندركها إلا حينما نقع في هوة الضياع، ونستفيق تحت الإحساس بالألم، جرّاء سقوطنا العنيف.

في الحقيقة أنا لم أكتفي.. ولكني انتهيت"

وختم كلامه بتلك العبارة.

هنا سقطت عدة دمعات من عيون سوسن، وأغلقت المذكرات وهي تقول: **" نعم.. هذا هو الأستاذ محسن الذي عرفته.. فأنا لم أتعرف على إنسان حي.. لقد كان ميتاً ومستنزفاً بالكامل حين التقيت به"**

الفصل الرابع والأربعون

انسحاب

تم الانفصال بين محسن وفاتن بعد ذلك، وانسحب محسن بجسده ومشاعره بالكامل عن محيطه، وعن الحياة.

فبعد مرحلة الانفصال؛ لم يتمكن محسن من التأقلم مع تلك الظروف، وفقدانه لوجود فاتن ونغم بجانبه.

ذلك المنزل الذي كان مليء بالحياة فيما سبق؛ ها هو يذبل الآن، ويخلوا من أي إحساس.

مجرّد صمت خانق، ينثر رائحته النتنة في المكان، ويحاول أن يتمدد ليملأ كل زاوية من زوايا المنزل.

كان محسن يتجول في منزله، وتمر أمامه أطياف ساكنيه السابقين.

كان يتلمس ألعاب نغم التي كانت تعبث بها بيدها الصغيرة، ويتذكر ضحكاتها، وعباراتها الركيكة والتي كانت تحاول من خلالها التعبير عن نفسها، وهي تظن بأنها قادرة على فعل ذلك مثل الكبار تماماً.

لم يجرؤ على العبث بأي من محتويات المنزل، وترك كل شيء في مكانه، دون أن يحركه، وهو يردد هنا وضعتها فاتن بيدها، وهنا تركتها نغم آخر مرّة كانت فيها في المنزل.

ومع الأيام تراكم الغبار الثقيل فوق كل شيء.

فوق الأرفف، وفوق الطاولات، فوق الوسائد المهجورة، وربما فوق قلبه الذي لم يعد حتى يشعر بنبضاته.

شتاء من نوع آخر، يهطل فيه الغبار بدلاً من الثلوج؛ ليغطي ويغلف كل شيء، ويحول الحياة بأسرها إلى الجمود.

ذلك الشتاء الذي لن يعقبه ربيع، يعيد الروح للمكان.

قرر محسن بعد ذلك أن يبتعد عن كل شيء، ويترك العاصمة، ويبحث لنفسه عن مكان آخر ليعيش فيه.

أراد أن يزيد من عزلته، وأن يتخلص من كل الأعباء التي تفرضها المدن الكبرى، وأن يتجنب اللقاءات مع الأشخاص الذين يعرفهم؛ لكي لا يضطر لممارسة المجاملات التي لم يعد قادراً على ممارستها مع أي أحد.

أراد السكن في بلدة صغيرة، توفر له مساحة من الهدوء والانعزال، بلدة يمكنه أن يجد فيها شيء من الدفء.

وبدأ بالسفر، والتجول بالقطار لعدة أسابيع بين المدن والبلدات الصغيرة، حتى وقع اختياره على البلدة التي قرر الانتقال إليها.

حمل معه كل أغراضه وذكرياته؛ لينتقل إلى مكان آخر، ولم يكن ذلك بهدف البدء بحياة جديدة كما يفعل الكثيرون، ولكن لمجرّد الابتعاد، وأراد أن يُمحى من ذاكرة من يعرفهم.

كانت بلدة ريفية صغيرة وهادئة، شعر تجاهها بالحب، والأجمل هو وجود مركز ثقافي فيها، يمكنه من مواصلة الرسم، والمشاركة في بعض المعارض.

وفور انتقاله إلى هناك؛ بدأ بالبحث عن سكن مناسب، بمواصفات معينة.

أراده منزلا صغيراً ذو تهوية جيدة، وإطلاله مناسبة، وبإيجار شهري يتناسب وظروفه المادية.

القى نظرة على عدة شقق معروضة للإيجار، ولكن أي منها لم يتناسب مع متطلباته.

رأى أحد اللوحات التي تشير إلى وجود شقة خالية للإيجار على واجهة أحد المباني.

وقرر محسن القاء نظرة على هذه الشقة.

وكثيراً ما تلعب الصدف لعبتها دون أن تسير بشكل متعمد ومخطط له، فنلتقي بأشخاص كنا نتوق للقائهم دون أن نعرف ملامحهم، أو أسمائهم.

تحدث محسن في مذكراته بكثير من الود تجاه السيدة التي كانت تملك المبنى، ووصفها بانها سيدة في غاية اللطف.

وأحس كأنه يعرفها منذ زمن، دون أن تكون بينهم سابق معرفة، وبدورها رحبت هي بالساكن الجديد.

ولم تكن تلك السيدة صاحبة المبنى؛ سوى السيدة وصال، والتي تحولت لاحقا إلى أحد أكثر الأشخاص المقربين منه.

وعلى الفور، انتقل محسن للسكن في المنزل الجديد.

وكانت السيدة وصال شخصية ودودة ومضيافة، وتجيد كسب محبة واحترام الآخرين؛ بما تبديه وتبذله من لطف صادق تجاههم.

انسجم محسن كثيراً مع السيدة وصال، وبدا منفتحا للحديث معها كلما سمحت له الظروف بذلك.

وبدأ محسن بعد عدة أسابيع من انتقاله إلى البلدة؛ يبحث لنفسه عن عمل مناسب، وحصل على عضوية في المركز الثقافي في البلدة.

فلم يتبقى معه المزيد من المال الذي يمكنه من الاستمرار.

ومع مرور الشهور؛ بدأ محسن يشعر بالاستقرار والانسجام

مع حياته الجديدة، وإن كان لايزال يرغب في تجنب أي علاقات في محيطة.

وعاد ليزاول الرسم من جديد، وحصل على فرصة ليستأنف عمله المعتاد في تقديم دورات تعليم الرسم.

تمكنت السيدة وصال بطبيعتها الطيبة؛ أن تبدد شعور الوحدة لدى محسن، وتحولت إلى فرد بحجم أسرة بالنسبة إليه.

كان محسن يتردد كل عدة أسابيع على العاصمة لرؤية نغم، وقضاء بضع ساعات معها.

وفي أحد الزيارات، تبين له بأن فاتن قد تزوجت بمالك الشركة، وانتقلت للعيش معه في فيلا كبيرة، بالرغم من أنه رجل متزوج، ويكبرها بثلاثين عاماً تقريباً.

لم يبالي محسن بمعرفة المزيد عن حياة فاتن، فمجرّد التفكير فيها كان يصيبه بضيق وكآبة، وكان يتجنب بأي شكل الحديث معها، أو رؤيتها حين ذهابه للقاء ابنته نغم.

فكلما تذكر فاتن؛ كان يتألم من فكرة أنها تحولت إلى شخص غريب عنه، بعد أن جمع بينهم الحب مرّة.

ولم يكن ليستوعب حقيقة أنه باتت لكل منهم الآن حياة مستقلة، لا يتشاركانها، ولكل منهم أحلام خاصة، وكيف لأحد منهم أن يتألم أو يشعر بالسعادة دون ان يشاركه الآخر فيها.

حاول كثيراً أن يتجاوز تلك الصدمة التي تسببت فاتن له بها، ورغم التظاهر بذلك؛ إلا أنه كثيراً ما كان يسقط فريسة لأحزانه، ولا يجد سوى الناي ليلجا إليه، ويبث إليه كل ألم يشعر به.

يقضي الليالي وهو يجلس بجوار النافذة يعزف ألحانه الشجية، وكأنه يحاول أن يبوح لكل سكان الحي بمدى الألم الذي يعربد في داخله.

الفصل الخامس والأربعون

بعد عدة أشهر من انتقاله للإقامة في البلدة، أقام المركز الثقافي معرضاً للفنون التشكيلية، وتمت دعوة محسن للمشاركة في المعرض.

وكانت تلك هي أول مشاركة له في أي فعالية تقام في البلدة.

حضر محسن إلى المعرض، واختار لنفسه زاوية بعيدة وهادئة، يمكنه من خلالها تجنب الاختلاط المبالغ فيه مع الحضور.

ويذكر محسن في مذكراته، بأن أحد المتطفلات تمكنت من اقتحام خلوته تلك، وجرّه للحديث والثرثرة.

لم يشعر محسن بالسوء من تلك المتطفلة، فقد بدت له شخصية مرحة ومهذبة، وتتمتع بحضور جميل.

لقد كان محسن يضحك من طريقتها في الحديث، وتلك المداعبات التي لا تكف عن ممارستها.

كانت صحفية، وترغب في إجراء حوار سريع معه، بحكم أنه أحد الفنانين المشاركين في المعرض، ورد عليها محسن بأسلوب لا مبالي، وهو يقول: **"ماذا تريديني أن أقول؟.. أنا غير راضٍ عن مستوى التنظيم الذي أراه.. أم تراك تودين أن اتفوه بنفس تلك العبارات التي يقولها الجميع.. بأن التنظيم فاق التوقعات.. وأشكر القائمين على التنظيم.. إلخ"**

فانفجرت الصحفية ضاحكة من تعليق محسن، وهي تقول: **"منذ سنوات وأنا أعمل في الصحافة.. ولم أسمع سوى مثل هذه التعليقات"**

سألها محسن عن أسمها؛ فردت عليه الصحفية بان اسمها **"سوسن"**

كان ذلك؛ هو اللقاء الأول الذي جمع بينهم، وترك انطباعاً جميلاً لدى كل منهم عن الآخر.

توقفت سوسن عن القراءة للحظات، وهي تتذكر ذلك اللقاء،

وما تلاه من لقاءات فيما بعد.

فاللقاء الثاني؛ كان بعده بعدة أيام، والذي حصل عن طريق الصدفة، حين فاجأته سوسن بنفس الطريقة، بينما كان يجلس محسن بمفرده في أحد المقاهي.

كان محسن حينها يجلس سارحاً، وكأنه يفكر في شيء ما، دون أن يلاحظ ما يدور حوله، وشاهدته سوسن من بعيد، فتقدمت نحوه والقت عليه التحية، وهي تدرك بأنها ستتمكن من إفزاعه.

فالتفت محسن نحوها فجأة، وقال لها بنبرة استياء: **"أنتِ مجدداُ!"**

ردت عليه سوسن بمشاغبة: **"ما بك.. هل أبدوا لك شخصية ثقيلة الظل إلى هذا الحد.. لتستاء من رؤيتي مجدداً..!"**

ضحك محسن حينها، ودعاها إلى الجلوس ومشاركته الوقت.

ومن هنا نشأت تلك الصداقة بين سوسن ومحسن، والتي استمرت طوال السنوات التالية، التي قضاها محسن في البلدة.

وشكل محسن، والسيدة وصال، وسوسن، ثلاثي لا يمكن تصور

حجم الانسجام والود الذي كان يجمع بينهم.

وكان وجودهم ضمن الدائرة الضيقة لمحسن؛ كافياً ليشعر بقدر من السعادة التي يفتقدها.

بعد مرور عامين من زواج فاتن من ذلك الثري؛ علم محسن بأن العلاقة ساءت بينهم لحد كبير.

وبينما كانت تسعى هي للخلاص، كان زوجها بدوره يحاول إذلالها، ومماطلتها في منحها حريتها.

ولجأت فاتن إلى رفع قضية ضده للحصول على الطلاق والحرية.

كان محسن يتابع أخبارها، وبداخله مشاعر مختلطة، ما بين الكراهية والحب.

تلك الأخطاء التي يرتكبها أحدهم بحق الأخرين، يتوهم خاطئاً

بأن الزمن سيتولى مهمة محو الشعور بتأنيب الضمير الذي يلازمهم.

فالجميع عندما يخطأ؛ يجد لنفسه المبررات لذلك الخطأ، ومع الاستمرار في الكذب؛ بأنه الضحية؛ يبدأ في الاقتناع بحقيقة تلك الأكاذيب.

وحين تحين لحظة دفع ثمن الأخطاء؛ يتزايد ذلك الشعور، وحينها حتماً سيلجؤون للاعتذار.

في أحد المرات التي حضر فيها محسن إلى العاصمة لرؤية نغم؛ طلبت منه فاتن أن يمنحها فرصة للحديث.

بالرغم من أن محسن كان يتجنب هذا اللقاء منذ سنوات؛ إلا أنه لم يتمكن من رفض هذا الطلب.

جلس محسن على الكرسي المقابل لفاتن في المقهى، وهو يحدق فيها بشكل مباشر، وكأنه يطرح أسئلته عليها في صمت: **"ما الذي ستقولينه الآن يا فاتن؟.. لقد تطلب الأمر منكِ سنوات حتى تمتلكي الجرأة لطلب هذا اللقاء.. ماذا.. هل بدأتِ بالشعور**

الآن بحجم الخطأ الذي ارتكبته في حقي!.. حين تبدئين في الكلام سأصمت لأسمعك.. سأسمعك بقلبي.. سأستمع إلى جميع مبرراتك التي أنا أنكرها مقدماً.. سأستمع إلى كل توسلاتك.. بالرغم من أني سأرفضها.. ولكني يجب أن أمنحك هذه المساحة لكي تتكلمي وتقولي.. وبعدها سأتكلم أنا"

كانت فاتن تجلس على المقعد في مقابل محسن، وهي غير قادرة على النظر إليه مباشرة، ولا تمرّ بضع لحظات إلا وتنساب الدموع من عينيها، بينما لا تزال تجلس في صمت.

فبادر محسن بدفعها للكلام، وطالبها بأن تقول ما تود قوله، ووعدها بأنه سيكون مستمعاً جيداً.

فاتن: **"أعلم بأني لن أجد الكلمات المناسبة للاعتذار.. ولكني مدينة لك بها.. ولابد أن أقولها كيفما كانت.. وأتمنى أن تحاول أنت استيعابها"**

هز محسن رأسه، وطلب منها أن تتواصل.

فاتن: **"لقد دعوتك اليوم للقائي.. لكي أطلب منك الصفح.. ربما أكون أنا أكثر شخص يعرف حقيقتك يا محسن.. ويدرك جيداً**

عاطفتك.. وقلبك الكبير.. وهذا يدعوني لأن أتجرأ على هذا الطلب"

ثم صمتت فاتن، وكأنها تتنظر أن تسمع أي رد من طرف محسن.

ولكن محسن ظل صامتاً، وكأنه بدوره يرغب في أن يستمع إلى المزيد.

وكأن فاتن أدركت ذلك، وأن محسن ينتظر أن تواصل هي الكلام فقالت: **"ليس لدي المزيد لأقوله"**

اعتدل محسن في جلسته قليلاً، ورد: **"حين نكسر لعبة يحبها طفل صغير.. وينفجر باكياً.. لا يمكننا أن نطالبه بأن يكف عن البكاء فجأة.. لمجرّد أننا نرغب في ذلك.. فبالنسبة إلينا هي مجرّد لعبة.. ولكنها كانت تعني له الكثير.. وحينها علينا على الأقل.. أن نعده بأن نشتري له لعبة أخرى بدلاً عن التي أتلفت.. وإن كانت تلك كذبة نسردها فقط ليكف عن البكاء"**

ابتسم محسن ابتسامة ساخرة، وعاد ليقول: **"وأنتِ كنتِ أكثر من مجرّد لعبة بالنسبة إلي.. وبالتفوه ببضع كلمات اعتذار..**

تودين في الحصول على الصفح الآن!"

فاتن: **"أخبرتك مسبقاً بأن الأمر سيكون صعباً علي"**

محسن: **"ولم يكن كذلك سهلاً بالنسبة لي.. كل ما اقترفته في حقي"**

وساد جو من الصمت بينهم مرّة أخرى.

كانت فاتن تعتقد بأن محسن مجبر على قبول هذا الاعتذار؛ لمجرّد شعورها بالندم، وأن عليه أن يمنحها تلك الراحة التي باتت تبحث عنها، ولا يمكن لها أن تشعر بها إلا حين تتخلص من عقدة الذنب.

فعادت لتسأل: **"ماذا.. هل ستسامحني الآن؟"**

رد محسن: **"حين يكون بإمكانك أن تعيديني للحياة بعد موتي.. حينها سيكون بإمكاني أن أسامحك"**

ونهض محسن وأنصرف، تاركاً فاتن جالسة على مقعدها وهي تبكي.

بعد أشهر من ذلك اللقاء، توفي زوج فاتن قبل أن يتم الفصل في طلب الطلاق، وحصلت على جزء من الإرث، والذي مكنها من شراء شقة، ونيل حصة في أسهم الشركة التي كان يملكها زوجها.

كانت كل الأحداث التي تم تدوينها في المذكرات بعد ذلك، لا تخفى على سوسن.

فطوال السنوات التالية، كانت سوسن ووصال بالقرب من محسن، وملمين بكل تفاصيل حياته التي لم يكن فيها الكثير من الأحداث والمحطات، واستمرت تلك العلاقة بينهم تزيد، حتى تلك الليلة الأخيرة التي كانت فيه سوسن برفقته في المنزل، وقامت بنقله إلى المستشفى حين ساءت حالته الصحية، وانتهت حياة محسن في غرفة الطوارئ.

الفصل السادس والأربعون

ربيع الوفاء.

انقضى عام على رحيل محسن، وقد انتهت سوسن من استكمال قراءة المذكرات، وتم نشر الجزء الأكبر من السلسلة عبر الصحيفة.

وتفاجأت سوسن مساء أحد الأيام بالسيدة وصال تتصل بها عبر الهاتف، وتطلب لقاءها.

في اليوم التالي، توجهت سوسن إلى منزل السيدة وصال، وكانت قد مضت عدة أسابيع على آخر لقاء بينهم.

دخلت سوسن وجلست بالصالون، وغابت السيدة وصال لعدة دقائق، ثم عادت وهي تحمل بيدها ظرفا مغلقاً.

جلست السيدة وصال، ودار حديث سريع بينهم، ثم قالت السيدة وصال: **"لقد أهملنا الأمر الذي كنا قد اتفقنا على تنفيذه سابقاً!"**

سوسن: **"أدرك ذلك جيداً.. ولكن عدم قدرتي على إيجاد حل لذلك.. جعلني غير قادرة على مواصلة التفكير فيه"**

نظرت إليها السيدة وصال، ومدت نحوها الظرف الذي كانت تمسكه بيدها.

تناولت سوسن الظرف وهي تسأل: **"ما هذا!"**

طلبت منها السيدة وصال أن تفتح الظرف، وتنظر إلى ما بداخله.

فتحت سوسن الظرف، وكان بداخله رزمة من النقود، فنظرت نحو السيدة وصال وهي تتساءل!

ردت السيدة وصال: **"كان من الصعب علي أن أكتفي بصفة المتفرج.. فأنتِ قد عملتي على نشر قصته طوال الأشهر الماضية.. وربما ذلك أشعرك بالرضا عن نفسك.. لأنكِ كنتِ وفية تجاه الأستاذ محسن"**

ردت سوسن: **"في الحقيقة نعم"**

عادت وصال لتقول: **"منذ أن عدتي من العاصمة تلك الليلة**

وأنتِ محبطة بسبب التكاليف التي فاجأتك.. فكرت أنه بوسعي أن أهتم أنا بالأمر.. وبدأت بجمع مبلغ من قيمة الإيجارات التي أحصل عليها من الساكنين بالمبنى"

ومن ثم بدت على وجه السيدة وصال ملامح الخجل، وعادت لتقول: **"أعلم بأني لم أتمكن من توفير كامل المبلغ الذي قلتي لي عنه.. وهو خمسة عشر ألف دينار.. ولكني تمكنت من جمع عشرة آلاف فقط"**

وما أن سمعت سوسن بذلك؛ حتى قفزت من مكانها وهي تشعر بالسعادة، وأقبلت على السيدة وصال تضمها إليها وتقبلها، وهي تقول: **"أفخر بأن لي صديقة مثلك"**

ابتسمت السيدة وصال بخجل، وقالت: **"هذا ما أمكنني فعله"**

سوسن: **"لا عليكِ.. بمقدوري أن أساهم من جانبي بمبلغ أيضاً"** ثم صمتت للحظة، وبدأت تتمتم ببضع كلمات، وكأنها كانت تراجع التزاماتها، وتجري عملية حسابية سريعة، ثم ردت بحماس: **"حسناً.. بإمكاني المساهمة بثلاثة آلاف"**

وصال: **"بذلك يكون المبلغ المتبقي الفين دينار..**

وذلك ليس بالمبلغ الكبير جداً.. ويمكننا تأجيل الأمر لشهر آخر أو شهرين.. ريثما يمكننا توفيره"

طلبت سوسن من السيدة وصال أن تسمح لها بالمغادرة، وخرجت سوسن وهي تحمل معها المبلغ.

حين خرجت سوسن، كانت السيدة وصال تقف خلفها لتودعها، فتفاجئا بسيدة تقف عند باب الأستاذ محسن، وبجوارها طفلة صغيرة.

التفتت نحوهم السيدة وطفلتها الصغيرة، ليتبين لسوسن والسيدة وصال بأنها نفس الطفلة التي جاءت إلى شقة الأستاذ محسن بعد وفاته، وهي تحمل بيدها علبة الألوان، وتذكرت السيدة وصال على الفور والدتها التي كانت تبحث عنها.

كانت أم الطفلة تبحث عن الأستاذ محسن، وقالت للسيدة وصال بأن ابنتها لم تكف عن مطالبتها بزيارة الفنان الذي يسكن

في هذا المنزل؛ ليقوم بتعليمها الرسم، وقد أنجزت أحد رسوماتها مؤخراً، وألحت في رغبتها في عرضها عليه.

ردت عليها السيدة وصال بشيء من الحزن: **"في الحقيقة لقد توفي الأستاذ محسن منذ عام سيدتي"**

شعرت السيدة بالإحراج، واعتذرت بلطف، مبررة ذلك بجهلها بالأمر.

دعتها السيدة وصال للدخول وشرب فنجان من القهوة في منزلها، وأجابت والدة الطفلة بأن ذلك غير ممكن حالياً ووعدتها بزيارة في وقت لاحق.

ردت السيدة وصال: **"نحن سكان حي واحد، وأتوقع أنك تسكنين في المبنى المقابل؟"**

وأجابت أم الطفلة بأن ذلك صحيح، ووعدتها بأنها ستعود لزيارتها، وهمت بالمغادرة.

استوقفتها السيدة وصال وسألتها هن أسمها؟

ردت أم الطفلة: **" بتول غنام.. اسمي بتول غنام"** وبدأت بالمغادرة، والنزول على الدرج.

ركضت سوسن نحوها بشكل مفاجئ، ووقفت تحدق بها من الأعلى وهي تنزل عبر الدرج، ثم سألتها: **"سيدتي.. هل اسم محسن عبدالمجيد يعني لك شيئاً؟"**

توقفت السيدة ونظرت نحو سوسن في الأعلى، وهي تحاول تذكر الاسم.

وفجأة تغيرت ملامح السيدة، وردت وهي تبتسم بارتباك: **"لا آنستي.. لم اسمع بهذا الاسم من قبل"** ثم اعتذرت، وواصلت نزولها.

التفتت سوسن نحو السيدة وصال، وهي تضع إحدى يديها على رأسها.

تعجبت وصال من طريقة سوسن في سؤال أم الطفلة عن معرفتها بالأستاذ محسن، ودار بينهم حديث سريع لعدة دقائق.

بعدها نزلت سوسن عبر الدرج، وتوجهت إلى خارج المبنى،

وماهي سوى بضع خطوات؛ حتى سمعت أحدهم يحدثها من الخلف.

التفتت نحو المتكلم؛ لتجد السيدة بتول تقف أمامها، وتنظر إليها وتسألها: **"هل كان الأمر يتعلق بملجأ الأيتام بالعاصمة آنستي!"**

ردت سوسن وهي تشعر بشيء يدعوها للبكاء: **"نعم سيدة بتول.. صحيح"**

لقد بدت الحيرة على ملامح السيدة بتول، وهي تسألها بقدر كبير من الاستغراب: **"من أنتِ.. من تكونين!"**

كانت سوسن تقف أما السيدة بتول وهي غير قادرة على الكلام، فقد سيطر عليها مزيج من المشاعر المختلطة، وترتسم ابتسامة على شفاهها، بينما عيونها لا تكف عن ذرف الدموع.

وطلبت سوسن من السيدة بتول أن تمنحها الفرصة لتشرح لها الأمر.

توجهتا نحو أحد المقاهي القريبة من الحي، وبدأت سوسن بسرد ما قرأته في مذكرات الأستاذ محسن عنها.

كانت علامات التأثر واضحة على ملامح السيدة بتول، فهي لا تزال تتذكر محسن جيداً، واستاءت حين علمت بأنه هو من كان يسكن أمام منزلها منذ سنوات، دون أن يتمكن الاثنان من معرفة ذلك، وأنها لم تعلم به إلا بعد رحيله عن الحياة.

قضى كلاهما بعض الوقت في ذلك المقهى، وهما يتبادلان الأحاديث، واخبرتها سوسن بأنهم يعملون الآن على تنظيم معرض للوحات الأستاذ محسن، وطلبت منها بلطف أن تحاول الحضور يوم الافتتاح.

بعد عدة أيام؛ تفاجأت سوسن بالسيدة بتول تقوم بالاتصال بها عبر هاتفها.

ردت سوسن على اتصال السيدة بتول، وجرى حوار سريع، أبدت خلاله السيدة بتول رغبتها وهي تسأل: **"هل بإمكاني المساهمة بالمبلغ المتبقي؟"**

كانت سعادة سوسن كبيرة وهي تسمع ذلك، ورحبت بالأمر.

وبذلك؛ يكون المبلغ المطلوب قد اكتمل الآن، وبات بمقدورهم البدء بكل الترتيبات اللازمة.

الفصل السابع والأربعون

وانحنت رؤوس السنابل

بعد أيام قليلة، توجهت سوسن نحو العاصمة للاتفاق مع إدارة صالة العرض، وتحديد موعد الافتتاح.

رغبت سوسن في تأجيل الموعد لعدة أسابيع، بحيث يكون بإمكانها حصر اللوحات التي سيتم عرضها، وكذلك الترتيب لحملة ترويج مناسبة، تضمن حضور أكبر عدد ممكن من الزوار، وتم تحديد موعد الافتتاح بعد شهر ونصف.

في مساء ذلك اليوم؛ التقت سوسن بنغم في أحد الحدائق بالعاصمة، وقدمت لها إيجاز كامل عن كل الترتيبات التي تعمل عليها لإقامة المعرض.

كانت سعادة نغم بالغة، حين سمعت بذلك، ووعدت سوسن بأنها ستحضر إلى البلدة قبل موعد الافتتاح بعدة أيام، للمساعدة في نقل اللوحات.

عادت سوسن مساء ذلك اليوم إلى البلدة، وعلى الفور توجهت إلى منزل السيدة وصال.

وبمجرد أن فتحت السيدة وصال الباب؛ ركضت نحوها سوسن وضمتها إليها بقوة، وهي تسألها: **" أنتِ! من أنتِ!"**

نظرت السيدة وصال نحوها بتعجب، وهي غير قادرة على استيعاب سؤالها، وردت: **"أنا وصال"**

ضحكت سوسن بصوت مرتفع، وهي تمسك بكتفي السيدة وصال وهي تقول: **"أنتِ ملاك.. إني أحبكِ.. أحبك كثيراً"**

بعدها قام الاثنان بمناقشة بقية التفاصيل اللازمة، وكيفية جمع كافة اللوحات من شقة الأستاذ محسن، ومن ثم اختيار مجموعة منها للمعرض.

بدأت سوسن بنشر إعلان بشكل يومي في الصحيفة عن موعد افتتاح المعرض، واستمر التواصل بين سوسن ونغم طوال تلك الأيام، لتقوم نغم بدورها بإنجاز بعض الأمور.

ومرّت الأيام بسرعة، ولم يتبقَ سوى أسبوع على موعد الافتتاح.

حضرت نغم إلى البلدة للمساعدة في اختيار اللوحات ونقلها، واقامت نغم في منزل سوسن خلال فترة بقائها بالبلدة.

ذلك المساء؛ شعرت سوسن ونغم ببعض الارتباك حول فكرة الدخول لشقة الأستاذ محسن صباح الغد، بعد عام كامل من رحيله.

كيف ستكون مشاعرهم الآن! وهم يدخلونها بعد هذه المدة، وينظرون إلى جميع محتوياته.

وإلى كل تلك الأمور الي تخص الأستاذ محسن بشكل مباشر.

غليونه، فرشاة رسمه، فنجان قهوته، وسادته، كل تلك المتعلقات بقيت على حالها بعد رحيل صاحبها.

في صباح اليوم التالي؛ وقفت سوسن ونغم خلف السيدة وصال وهي تهم بفتح الباب.

فتحت السيدة وصال الباب، ودخلت أولاً، والتفتت خلفها ونظرت نحو سوسن ونغم، وهي تنتظر دخولهم.

وحين رأت ترددهم في الدخول؛ تفهمت السبب وراء ذلك التردد، وقالت لهم بلطف: **"هيا يا سوسن.. تقدمي يا نغم"**

تقدمت نغم وتبعتها سوسن إلى الداخل، والكثير من المشاعر تحاول التعبير عن نفسها.

تجولت سوسن ونغم بداخل الشقة لدقائق، وهم ينظرون إلى كل شيء باهتمام، وكأنه قد ترك في مكانه بالأمس فقط.

تقدمت سوسن نحو أحد الطاولات، ومسحت بيدها فوقه لتتحسس الغبار، ولكنه كان نظيفاً.

التفتت سوسن نحو السيدة وصال وابتسمت ابتسامة دافئة.

وابتسمت وصال لها وهي تهز برأسها بخجل.

فمنذ رحيل الأستاذ محسن؛ لم تهمل السيدة وصال تنظيف

شقته كل عدة أسابيع؛ لتبقى نظيفة وكأن الأستاذ محسن لا يزال يعيش فيها.

فللوفاء أشكال متعددة، وكل إنسان يعبر عن وفاءه لشخص كان يحبه بطريقته الخاصة.

ولا يهم حجم ذلك الفعل الذي يقدمه مهما كان بسيطاً، ليبقى الأهم؛ أن نشعر فعلاً بأننا لا زلنا أوفياء.

انتظرت السيدة وصال لبعض الوقت، وتركت نغم وسوسن يحضون بفرصة للتعبير عن مشاعرهم، ومن ثم صرخت وهي تقول: **"هل سيطول الامر أكثر!"**

صرخة السيدة وصال أفزعت سوسن كالعادة؛ فالتفتت نحوها فجأة وانفجرت ضاحكة.

بدأ الجميع بجمع اللوحات وترتيبها، وإخراج العديد من اللفافات القديمة التي رسم عليها الأستاذ محسن لوحاته في سنوات ماضية، وكانت كمية اللوحات الموجودة بالمنزل كبيرة، وتتطلب أكثر من يوم للانتهاء من فرزها.

وانقضى ذلك اليوم بعد إنجاز جزء لا بأس به من العمل.

وبعد أن شعر الجميع بالتعب، واتفقوا عن استكمال ما تبقى في اليوم التالي؛ دعت سوسن السيدة وصال لمرافقتهم إلى منزلها، ووعدتهم بأن تقيم لهم حفل شواء هذا المساء في حديقتها الخلفية.

اجتمع الثلاثة في مساء ذلك اليوم، وجلسوا يتبادلون الأحاديث.

بينما تعمل سوسن على إشعال النار.

ومضى الوقت وتناولا العشاء.

بعدها نظرت نغم نحو سوسن، وقالت: **"أظن أنكِ قد انتهيتِ من قراءة مذكرات بابا.. هل من الممكن إعادتها إلى الآن؟"**

ارتبكت سوسن من طلب نغم في الحصول على المذكرات، فقد عملت سوسن طوال الأشهر الماضية على قراءتها، وإعادة صياغتها بشكل يصلح للنشر، وتمكنت ببراعة في تجاوز بعض الحقائق التي لا يمكن إظهارها لأحد، عن طفولة الأستاذ محسن، وقصة انفصاله عن السيدة فاتن.

نظرت سوسن نحو السيدة وصال بقلق، وهي من سبق وأخبرتها بأن تترك لها التعامل مع المسألة حين يحين وقتها.

نظرت السيدة وصال إلى سوسن، وأومأت لها برأسها بأن تحضر المذكرات.

غابت سوسن للحظات، وعادت وهي تحمل بين يديها مذكرات الأستاذ محسن، ووضعتها في يد نغم، وهي غير واثقة كيف ستتصرف السيدة وصال الآن!

بدأت نغم بتحسس غلاف المذكرات بحب كبير، وبدأت في تقليب صفحاتها بشكل سريع.

انتظرت السيدة وصال لبعض الوقت، وبعدها طلبت من نغم أن تعطيها المذكرات.

تعجبت نغم من طلب السيدة وصال، ولكنها قدمت المذكرات إليها، وهي تنتظر ما لذي ستفعله السيدة صال بتلك المذكرات الآن؟

نظرت السيدة وصال نحو نغم، وسألتها: **"هل كنتِ تتابعين الحلقات التي تم نشرها بالصحيفة؟"**

ردت نغم: **"بالتأكيد.. كنت حريصة على ذلك"**

وصال: **"هل شعرتِ بعد قراءتها.. بأن والدك كان إنساناً يحق لكِ أن تفخري به يا ابنتي؟"**

ردت نغم على الفور: **"بالتأكيد سيدة وصال.. ذلك بابا الذي كنت أراه دائماً شخصاً يحق لي الافتخار به"**

وصال: **"ما رأيك بأن نترك كل شيء جميل نعرفه كما هو.. دون أن نعبث به؟"**

ردت نغم باستغراب، وهي تتنقل بنظراتها ما بين سوسن والسيدة وصال، وكأنها تنتظر تفسيراً لهذا الكلام، ثم سألت: **"هل يعني ذلك بأن بابا كان شخصاً سيئاً.. وأن هناك ما يجعلني أشعر بالخجل من ماضيه؟"**

وصال: **"لا يا ابنتي.. لم يكن والدك هو الشخص السيء في هذه القصة التي تلخص حياته.. ولكن حياتنا دائماً ما تتقاطع مع حياة الآخرين.. وقد تكون حياتهم هي التي تتضمن ما يدعوا إلى الخجل"**

نغم: **"من تقصدين بكلامك سيدة وصال!"**

وصال: **"ليس هناك شخص بالتحديد.. لنترك الماضي يرحل بكل مآسيه وأوجاعه.. وبأسرار الآخرين.. دون أن نحاول إحياء ما قد مات ودفن.. لنترك البركة راكدة.. دون أن نلقي فيه حجراً.. يثير القاع"**

حدقت نغم في عين السيدة وصال، وضلت وصال تحدق بها للحظات.

بعدها أرخت نغم نظرها باتجاه المذكرات، دون أن تتفوه بكلمة.

نهضت وصال، وأمسكت بيد نغم وهي تدعوها لتتبعها.

تقدمت وصال نحو بقايا النار المشتعلة، ونظرت إليها، وبجوارها تقف نغم، وتبعتهم سوسن، ووقفت خلفهم.

قالت وصال: **"الآن لقد هدأ لهيب تلك النار التي كانت تشتعل منذ قليل.. ولكن لا زال بإمكان هذا الجمر المتقد أن يحول الماضي إلى رماد"**

مدت وصال المذكرات إلى نغم، وتناولتها منها نغم ونظرت إليها وهي تمسكها بين يديها، وقربتها من أنفها وأخذت نفساً عميقاً وقبلتها، ومن ثم ألقت بها نحو النار.

بدأت المذكرات بالاشتعال، والنار تسرع نحو كل صفحة من صفحاتها وهي تتموج بأطياف ملونة، تعكس كل تلك التفاصيل التي تتضمنها هذه الصفحات، والتي تتحدث عن مشاعر التعاسة، وبعض لحظات السعادة التي عاشها محسن في حياته.

تقدمت سوسن من الخلف، ووقفت بجانب نغم وهي تنظر للمذكرات وهي تحترق، وصمتت لحظة ثم قالت: **" كنت آخر شخص بجوار الأستاذ محسن ليلة رحيله.. في تلك الليلة.. كان يشعر بالألم.. وبالرغم من محاولاته لإخفاء ذلك الألم.. إلا أن حجمه كان يظهر على ملامحه.. طلبت منه لعدة مرّات أن يسمح لي بنقله إلى المستشفى.. ولكنه كان يرفض.. وطلب مني أن أعد له فنجاناً من القهوة.. وبعد أن قدمتها إليه.. نظر نحوي وشكرني وقال: (لا تتركيني وحدي هذه الليلة) حينها ابتسمت.. وقلت له لا لن أفعل.. سأبقى بالقرب منك.. لقد كان يدرك جيداً بأن رحيله قد اقترب.. وكان يخشى أن يبقى وحيداً.. لم أدرك حينها المعنى الحقيقي لطلبه.. إلا بعد أن قرات مذكراته.. لقد كانت تلك الليلة شبيهة جداً بالليلة التي رحل فيها صديقه نضال"**

ابتسمت سوسن ابتسامة ساخرة، وأكملت: **"لقد استمر شبح صديقه نضال يطارده.. وهو يحاول ألا ينتهي إلى نفس مصيرة.. وبعد أن اطمئن بأني سأبقى بقربه تلك الليلة.. همس بصوت منخفض وهو يقول: (لن أكون وحيداً) وهو يبتسم.. ثم تابع: (ولكن لن يكون هناك بقربي من بمقدوره أن يعزف لي على الناي) أكمل شرب فنجان قهوته وصمت للحظات.. ومن بعدها بدأ بالحديث.. بحديث طويل.. طويل جداً"**

صمتت سوسن، ونظرت نحوها نغم والسيدة وصال، وهم بانتظار أن تكمل.

وبدأت سوسن بسرد كلمات الأستاذ محسن، وهو يقول لها: **"كانت سنوات ثقيلة.. وكأنها جبل يرفض أن ينزاح من على صدري.. وكأنها الآن شريط يمر أمامي.. وأرى طفولتي في تلك الحديقة الواسعة.. وأنا أركض فيها وأتجول بدراجتي.. وذلك الصوت الدافئ الذي لا زلت أذكره جيداً.. يناديني (محسن.. كفاك لعباً في الحديقة يا صغيري.. ادخل إلى المنزل.. قبل أن تصاب بضربة شمس) لتعقب تلك السنوات.. سنوات أخرى في ذلك المبنى الكئيب.. الخالي من أي دفء.. والذي أصفه بأنه كان أشبه بالسجن لأزهار دوار الشمس..**

كان مكاناً بارداً.. بإمكانه تحويل أي جسد إلى قطعة متجمدة.. قابلة للتهشم متى سقط.. لقد جربت الشعور بمشاعر الفقد مراراً منذ أن كنت في التاسعة من عمري.. وها أنا اليوم أشعر بأني أفتقد نفسي.. وربما أنا في الحقيقة محكوم علي أن أولد فاقداً إياها.. ولا أعرف عنها سوى حقيقة واحدة.. لا تتعدا اسم محسن (قالت سوسن بعدها حدق الأستاذ محسن إلى النافذة طويلاً، وعاد ليقول) بعض الملامح لا زلت أراها كل صباح.. كما رأيتها لأول مرّة في ذلك الصباح.. وهي قادرة على أن تسحر كل من يراها بابتسامتها.. والتي ودعتني يوماً وهي تنظر إلي.. وأنا ابتعد جالساً داخل الباص.. تلك الملامح التي كم تمنيت أن أراها ولو لمرّة واحدة.. مرّة أخرى.. طوال سنوات.. ولكني أدركت بعد كل تجاربي.. المعنى العميق لكلمة الرحيل.. أنه يعني الغياب إلى الأبد.. دون أن يترك لدينا الأمل في اللقاء مجدداً.. تلك الوجوه العابرة حفرت في ذاكرتي ملامحها المستعصية على الطمس والتلاشي.. وكل منها ترك بداخلي الحنين (قالت سوسن بعدها نظر نحوي وسألني) هل تخون الروح يا سوسن؟ (فأجبته: وكيف للروح أن تخون!.. ضحك الأستاذ محسن حينها ضحكة ساخرة، وعاد ليقول) نعم يا سوسن إنها تخون.. حين نحب أحدهم.. وتمتزج روحة

فينا.. وتتحول لتصبح الروح التي نحيا بها.. ولا نتوقع أن تفارق الجسد إلا حين تحين ساعتها.. ولكن حين تقرر أن تغادرنا قبل تلك الساعة.. وتتركنا جسداً خاوياً بدون روح.. مجرّد طين.. فتلك هي خيانة الروح"

قالت سوسن: **"لقد شعرت حينها.. بأن الكلمات التي كان يتفوه بها الأستاذ محسن في تلك اللحظات.. تزيد من إحساسه بالسوء.. وطلبت منه أن يكف عن الكلام.. ولكنه تجاهل طلبي.. وواصل حديثه"**

"وبعد أن تغادر الروح.. ما فائدة الجسد!.. مجرّد أنفاس تتردد لا أكثر.. وحتى حين نتحول إلى مجرّد طين.. يطمع أحدهم في أن ينتزع أجزاء منه.. ليشيد بها أحلامه.. وبعدها.. وبمجرّد كلمة اعتذار سخيفة.. يطالبوننا بأن ننسى!.. الجروح الصغيرة تشفى.. وتترك آثارها على أجسادنا لتذكرنا بنفسها.. ولكن الجروح العميقة.. لا يمكن أن تشفى أبداً.. وتضل نازفة.. ونشعر بالألم منها إلى الأبد.. فكيف لنا أن ننسى!.. حياتي باختصار.. تشبه الخريف الذي استمر لأربعة فصول"

قالت سوسن: **"وبعدها صمت الأستاذ محسن إلى الابد..**

لم أدرك حينها أنه كان يتلو خطاب تأبينه بنفسه.. ويرثي ذاته.. لأنه كان يدرك بأنه يقترب من النهاية"

واكملت سوسن وهي تقول: **"كنت أبحث بين صفحات مذكراته عن المنعطف الذي غير مجرى حياته.. فاكتشف أن حياته مليئة بالمنعطفات.. التي سارت به بكل إصرار نحو الهاوية"**

الفصل الثامن والأربعون

(بورتريهات) لوجوه غائبة

في صباح اليوم التالي؛ عاد الجميع إلى شقة الأستاذ محسن، وبدأت كل واحدة منهم تختار وترشح أحد اللوحات لتشارك بالمعرض.

فتحت نغم أحد اللفافات المطوية لترى لوحة (بورترية) لفتاة جميلة جداً تحمل عنوان (الملاك) وطلبت من السيدة وصال وسوسن رؤيتها.

كانت ملامح الشخصية رقيقة وجميلة للغاية، فاتفق الثلاثة على أن تكون أحد اللوحات المشاركة في المعرض.

ووجدت سوسن لوحة أخرى، لسيدة تتوارى ملامحها خلف خمار يغطي كامل وجهها، وكان عنوان اللوحة (أماني) وأدركت بأنها لوحة تمثل والدته الحقيقية، التي كان يجهل أي شيء عنها.

عدد اللوحات الموجودة كان كبيراً، وعملية الاختيار لم تكن سهلة أبداً، ولا يمكنهم عرض جميع اللوحات بسبب مساحة المعرض المتاحة.

كان قد تبقى على المعرض أربعة أيام فقط، واتفقوا على أن يتم شحن اللوحات عبر القطار، وأن تغادر نغم برفقتها لتتولى مهمة نقلها وترتيبها في المعرض، بينما ستلحق بها السيدة وصال وسوسن قبل موعد الافتتاح، وتتولى ليلى صديقة سوسن ايصالهم إلى العاصمة بسيارتها.

في المساء، حضرت سيارة النقل التي ستقوم بإيصال اللوحات إلى محطة القطار.

وبينما سوسن، والسيدة وصال، تقفان عند باب المبنى لمتابعة التحميل، مرّ من أمامهم السيد منصور، والقى عليهم التحية، وتجاوزهم بقليل.

ليعود ويتوقف السيد منصور بعدها للحظات، وعاد وهو يمشي بخطوات بطيئة، وتوقف بالقرب منهم، وخلع قبعته وبدأ بالعبث بها بين يديه.

لاحظت السيدة وصال وقوفه بالقرب، فأدركت بأن لديه ما يرغب في قوله.

توجهت إليه السيدة وصال قائلة: **"تفضل يا سيد منصور.. هل ترغب في قول شيء؟"**

ارتبك السيد منصور قليلاً، ثم سأل: **"في الحقيقة.. نعم.. لا أدري.. ولكن كنت أتسائل إلى أين تقومون بنقل تلك اللوحات!"**

شرحت له السيدة وصال ما كان يجري.

تردد السيد منصور قليلاً، ثم عاد ليسأل: **"حسناً.. ولكني كنت أتساءل.. إن كان بالإمكان عرض اللوحة التي رسمني فيها الأستاذ محسن؟"**

نظرت سوسن والسيدة وصال إلى بعضهما، وأبدو ترحيبهم بالأمر، وقالت سوسن: **"حسناً يا سيد منصور.. يمكنك ذلك..**

ولكن لم يتبقَ لدينا من الوقت سوى عشرة دقائق.. لنتمكن من اللحاق بموعد القطار.. وعليك أن تسرع في إحضارها"

ركض السيد منصور بطريقة بريئة، عائداً إلى منزله، وسوسن ووصال يراقبان ابتعاده، دون أن تتمكنا من السيطرة على الضحك.

وبعد ساعات، غادرت نغم برفقة اللوحات على متن القطار، متوجهة إلى العاصمة.

الفصل التاسع والأربعون

عودة الملاك

وصلت سوسن، والسيدة وصال، وليلى، إلى العاصمة صباح يوم الافتتاح.

وعلى الفور، توجه الجميع إلى موقع المعرض، بينما كانت نغم بانتظارهم.

دخلت سوسن والسيدة وصال، وبدءا بالتجول داخل المعرض، لمراجعة كل الترتيبات قبل موعد الافتتاح بعد ساعات.

توقفت سوسن أمام أحد اللوحات، وهي تحاول استرجاع ذاكرتها، ونظرت نحو نغم وهي تتساءل: **" كيف لم الحظ هذه اللوحة قبل الآن.. هل كانت هذه اللوحة ضمن المجموعة التي أخترناها منذ أيام..!"**

بدأت نغم في التحدث بمشاغبة، وقالت: **"تأمليها جيداً.. هل يعقل بأنك لا تتذكرينها!"**

سوسن: **"في الحقيقة.. لا!"**

كانت تلك اللوحة؛ هي آخر لوحة بدأ الأستاذ محسن في رسمها، ولم يمهله الوقت كي ينتهي من رسمها.

اللوحة التي تبين فتاة بملامح حزينة، تتأمل زهرة بانتظار تفتحها.

لقد كانت اللوحة ضمن المقتنيات التي حملتها نغم معها بعد وفاة والدها.

وعلى مدى الشهور الماضية؛ عملت نغم على تعلم الرسم، وأكملت رسم اللوحة، التي لم يتمكن والدها من إكمالها.

ولكن نغم، غيرت من تعابير اللوحة قليلاً، ورسمت الزهرة وهي متفتحة، والفتاة تنظر إليها وتتأملها وهي مبتسمة.

وتذكرت سوسن اللوحة حينها، ونظرت إلى نغم وهي تقول: **"نعم.. لقد أكملتِ ما بدأه الأستاذ محسن يا نغم.. ذلك ما كان ينتظره منكِ والدك.. لقد انتظر الأستاذ محسن أن تزهر الحديقة التي بداخله طويلاً، ولكن أزهارها لم تتفتح أبداً.. أما أنتِ يا نغم.. فأمامك حياة طويلة.. وستزهر حديقتك حتماً"**

وضمت إليها نغم، ومن ثم نظرت إلى عينيها وهي تقول:
"عيناك تحمل نفس البراءة التي كانت تشع من عيونه.. لا تسمحي لها بالذبول أبداً"

تم افتتاح المعرض مساء ذلك اليوم، وبدأ الزوار بالتدفق لمشاهدة المعرض.

لقد أثمرت جهود سوسن في الترويج للمعرض خلال الأسابيع الماضية.

فالحضور كان كثيفاً، وازدحم المكان بالزوار بعد افتتاحه مباشرة.

كان السيد منصور يقف بجوار لوحته متأنقاً، وهو يقدم شرحاً عن اللوحة، وعن نفسه، وهو يردد: **"هذا أنا"** ويشير للزوار إلى اللوحة.

بينما اهتمت السيدة وصال باستقبال الزوار عند بوابة المعرض للترحيب بهم.

وسوسن تهتم بالتفاصيل بالداخل، ونغم ترد على استفسارات الزوار.

وبينما سوسن تتجول في المكان، لاحظت سيدة مسنة وأنيقة، تطيل النظر إلى لوحة الفتاة التي تحمل عنوان (الملاك)

اقتربت سوسن من السيدة ورحبت بها، وسألتها إن كانت اللوحة أعجبتها؟

وأبدت السيدة إعجابها باللوحة، واكتفت بقول: **"رائعة"**

توقفت سوسن للحظة، وانتبهت إلى الشبه الكبير بين ملامح الفتاة التي تظهر صورتها في اللوحة، وملامح السيدة التي تقف أمامها، ثم قالت بقليل من الاستغراب: **"هل هي تشبهك بالفعل.. أم يخيل إلي ذلك!"**

ابتسمت السيدة برقة، ولم ترد بكلمة.

سوسن: **"هل لي أن أعرف من أنتِ سيدتي؟"**

ردت السيدة: **"اسمي هند"**

لم تتمكن سوسن من تصديق ذلك، وأدركت حينها من تكون، وقالت: **"هند.. الآنسة هند.. معلمة الرسم.. هل أنا محقة سيدتي؟"**

السيدة: **" في الحقيقة.. نعم"** قالتها وهي تتساءل من أين لها أن تعرفها!

سوسن: **"لم يبالغ الأستاذ محسن في وصفك في مذكراته أبداً"**

هند: **"هل تحدث عني في مذكراته!"**

سوسن: **"وبكثير من التقدير.. وبكثير من مشاعر الحب.. وبكثير من الحنين"**

ابتسمت السيدة هند، واكتفت بهز رأسها، وعادت تتأمل اللوحة.

وبينما سوسن والسيدة هند يتبادلان الأحاديث، اقترب رجل من السيدة هند، وبدأ يتحدث إليها، وهو يقول: **"هناك عدد كبير من اللوحات التي نالت إعجابي في المعرض.. ولكني اخترت**

لوحتين منهم"

التفتت السيدة هند نحو سوسن، وقدمت إليها الرجل، وهي تقول: **"أقدم لك السيد عاصم.. مدير المتحف الوطني للفن التشكيلي بالعاصمة"**

أومأت سوسن إليه برأسها مرحبة.

وبادرها السيد عاصم قائلاً: **"في الحقيقة.. نحن نسعى في المتحف لاقتناء أفضل الأعمال.. وقد وقع اختياري على لوحتين بالمعرض.. لتكون ضمن مقتنيات المتحف.. لوحة بعنوان (أماني) وهذه اللوحة التي نقف أمامها (الملاك)"**

وقفت سوسن وأغمضت عينيها، وأخذت نفساً عمياً وهي تسترجع تفاصيل حياة الأستاذ محسن كاملة، وكأنها تمرّ أمامها، وتلك الزيارة التي قام بها برفقة الآنسة هند منذ سنوات طويلة لهذا المتحف.

تلك الزيارة التي كانت الشرارة التي أطلقت شغف محسن بالرسم.

واليوم يقف مدير المتحف بجوار معلمته للرسم، الآنسة هند، ويطلب عرض لوحاته في نفس المتحف.

كيف للإنسان أن يستوعب ألاعيب القدر التي يمارسها بكل ذكاء مع كل فرد منا في هذه الحياة، ليتركنا نتأمل ونحتار في تفسير كل ذلك.

رحلة حياة قد تطول أو تقصر بأحدهم، قد تحمل الكثير من الأحزان أو الأفراح، الكثير من النجاحات أو الإخفاقات، ولكنها تبرع في مفاجئتنا دوماً بترتيب كل أحداثها.

الفصل الخمسون

طريق العودة

في طريق عودة السيدة وصال وسوسن؛ كانت ليلى تقود سيارتها على الطريق.

وسوسن ووصال تشعر كل واحدة منهم بشعور عميق بالرضا.

إنها الأرواح التي تدرك المعنى الحقيقي والعميق للوفاء، ولا يمكنها إلا أن تكون وفية تجاه من أحبتهم يوماً.

لم يكن يدور بينهم الكثير من الأحاديث خلال الطريق، ولكن كلاً منهم كان يدرك جيداً حجم المحبة التي يحملها الآخر في قلبه تجاهه.

عبرت ليلى بسيارتها فوق أحد الجسور التي تمر فوق أحد الأودية.

وحينها طلبت منها السيدة وصال أن تتوقف بجانب الطريق للحظات.

نزلت من السيارة، ودعت سوسن إلى النزول ومرافقتها، واقتربت نحو السياج، ووقفت هناك وهي تتأمل المنظر.

كان الوادي يضم عدداً من الحقول، وهناك العديد من المزارعين الذين يعملون بها.

بينما كانت الشمس ترسل شعاعها الأخير، وهي تميل نحو الغروب، لتنبئ عن نهاية يوم آخر.

صمتت وصال قليلاً، ثم وجهت سؤالها لسوسن: **"هل تشعرين بالرضا؟"**

سوسن: **"بكل الرضا"**

وصال: **"لقد برعتِ في صياغة قصة الأستاذ محسن يا سوسن"**

سوسن: **"يسعدني أن أسمع منكِ ذلك"**

وصال: **"تمكنتِ من تجاوز بعض المحطات في تلك القصة بشكل ذكي.. ودون أن تغيري ملامحها"**

تعجبت سوسن من كلام السيدة وصال، وسألتها: **"ما الذي يعنيه ذلك!.. هل كنتِ تعلمين بتفاصيلها؟"**

ابتسمت السيدة وصال، وردت: **"نعم.. وكنت أعلم بشأن تلك الصفحات المنزوعة من بين أوراقها.. كان ينبغي على أحدهم أن يفعل ذلك"**

تفهمت سوسن ما كانت تعنيه السيدة وصال.

عادت وصال لتسأل: **"هذا يدفعني لسؤالك.. متى ستفكرين في كتابة قصتك الخاصة؟"**

ردت سوسن: **"ما الأمر المهم في كتابة قصتي.. طالما أن الإنسان لا يحظى بالتكريم إلا بعد مماته!"**

ثم أكملت حديثها بطريقة مشاغبة: **"اعدك بأنني سأفكر في الأمر قبل أن أموت"** ثم توجهت بنظرها نحو الشمس،

وهي تقول: **"أو.. أو ربما سأترك مسئولية كتابتها لمن سيستمرون بالحياة من بعدي"**

وصال: **"علينا أن نصل إلى البلدة.. قبل أن يحل الظلام"**

تمت

٢١ ديسمبر ٢٠٢٠

صدر للمؤلف

- مجموعة قصصية بعنوان (كلاسيكيات)

- مجموعة مقالات بعنوان (عزف منفرد)

- نصوص أدبية بعنوان (أدم)

حسابات المؤلف
على برامج التواصل الاجتماعي

Daydream.s.a

Daydream2019

Daydream_s_a

Daydreamsa

Samir alim

"الشمس التي تغيب.. هي نفسها التي ستشرق في صباحنا في اليوم التالي.. أما أصحاب القلوب الدافئة متى رحلوا.. فلا توجد منهم نسخة أخرى.. هم يشرقون في سماء الحياة لمرّة واحدة.. ويرحلون تاركين من ورائهم إرثاً من الحب"